6419

SIA

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المرحوم الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ﴾

تنبيه

لما رآنا المؤلف المفضال متفانين بنشر الكتب النافعة الإسلامية

لاسيما الخاص بترقية الأخلاق وبث روح الفضيلة في الآفاق

أذن لنا بنشر هذا الكتاب البديع النافع وأعطانا تصريحا

بذلك مكتوبا بخطه ومذيلا بتوقيعه وحفظ لنا فيه

حقوق طبعه رغبة فيما فطرنا عليه من حب

النفع العموم فقمنا بإعادة طبعه راجين

الحق جل اسمه أن ينفع به العباد آمين

الجزء الأول والجزء الثاني

الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٨ — ١٩٢٩ م

على نفقة [illegible] الكتب من الأسفار النفيسة النافعة

[illegible] الكردي

[illegible]

[illegible]

موعظة المؤمنين

من

(تأليف العلامة المرحوم الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي)

لما رآنا المؤلف المفضال شغفين بنشر الكتب الن

لاسيما الخاص بترقية الأخلاق وبث روح الفضيلة

أذن لنا بنشر هذا الكتاب البديع النافع وأعطانا تصريحا

بذلك مكتوبا بخطه ومذيلا بتوقيعه. وحفظ لنا فيه

حقوق طبعه. فرغبة فيما فطرنا عليه من حب

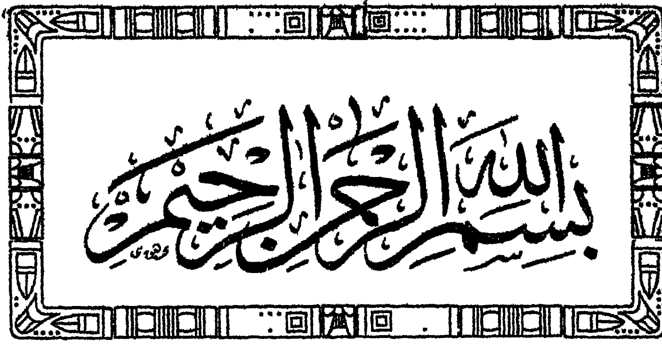
النفع للعموم قمنا بإعادة طبعه راجين

الحق جل اسمه أن ينفع به العباد

الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م

« على نفقة الباحث المنقب عن الأسفار النفيسة النافعة »

دار العصور للطبع والنشر بشارع الخليج المصري بالظاهر بمصر



نحمدك ياذا الجلال والإكرام . على ما أكملت لنا من دين الإسلام . ونصلّي ونسلّم على نبيّ الهدى والرّحمة . المبعوث بالكتاب والحكمة . خاتم النبيّين . وإمام المرشدين . سيدنا محمد . وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين *

﴿ أمّا بعد ﴾ فان موعظة العامّة . والتصدى لإرشادهم فى الدروس العامّة . من الأمور المهمة . المنوطة بخاصة الأمة . اذ هم أمناء الشرع ونور سراجه . ومصابيح علومه وحفّاظ سياجه . وكان السلف يملون مما وقر في صدورهم ما يرونه أمسّ بحالهم وزمنهم ومكانهم . ولما امتدّ الفتوح فى الإسلام . ابتدئ بجمع الهدى النبوىّ للأنام . ثم اتسع العمران وعظمت الحضارة . فأخذ ينمو التفريع والتخريج والإنبساط فى الفنون على نسبتها فى الغزارة . واستبحرت فى فنون العلم الأسفار . ودنت لمقتطفه مباحثه الكبار . وصار المعوّل فى بثه عليها . والملجأ في تعرف حقائقه عليها . وتنوّعت فى كل فنّ مصنفاته . وزخرت من كل بحث مؤلفاته . حتى حار طالبه فى انتقاء الأحسن . واستوقف كثرتها نظره فى تخيّر الأتقن ، وأصبح التبصر فى أجودها عنوان الذكاء . والوقوف على أنفعها آية النباهة والإرتقاء . ولما كانت عظة العوام . بايقافهم على جواهر دين الإسلام . وإعلامهم محاسن الدين وواجباته . ونوافله ومحظوراته . وما يأمر به من الأخلاق الكريمة . ويزجر عنه من المساوئ

الذميمة . ليرتقوا الى مافيه صلاحهم ونجاحهم . فيفوزوا بما فى الاعتصام به بسعادتهم وفلاحهم . من أوجب الواجبات . وآكد المفروضات . لما أخذ الله على العلماء من الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فيقف المدعوون على شرائعه تعالى فيما أمر وزجر ، ووعد وأوعد وبشّر وأنذر . فلزم الداعى الى الله تعالى أن يجتهد بفطنته لما يعينه فى دعوته . فينتخب من المدوّنات أنفعها . وينتقى من لباب لبابها أرفعها . اذ كثير مما اعتيد فى المحافل تدريسه . لم يكن على بناء افادة العامة تأسيسه . ولا برهان بعد عيان *

موضوع ذكرى العامة موضوع جليل . لا يصلح له الا كل حكيم نبيل . أتدرى مَن المذكّر . أو الواعظ . أو المرشد . هو انسان حافظ لحدود الله . قائم على ارشاد العقول . وتهذيب النفوس . وتثقيف الأذهان . وتنوير المدارك . وتصحيح المعتقدات وإبانة سرّ العبادات . وإماطة ماغشى الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة وتراث الضلالة *

المذكّر وارث محمدىّ . واقف على مقاصد التشريع وحكمته . عالم مواضع الخلاف والوفاق . سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام . لا يصعد بهم قمم الشدة والتعسير ولا يهبط بهم الى حضيض الترخيص غلوّا فى التيسير بل يسير بهم على جادّة الحق وسواء الطريق *

المذكّر ينشر العلم النافع بين الناس . ويحثهم على العمل به . ويخاطبهم على قدر عقولهم . ويتنزّل لإرشادهم الى لغتهم . يعاشرهم بالنصح . ويخالطهم لتأليف قلوبهم *

المذكّر هو العامل الأكبر في اخراج الناس من ظلمات الجهالة الى نور العلم وتحريرهم من رق الخرافات والوهم . وهو كالسراج فاذا لم ينتفع بضوئه فلا فائدة فى وجوده . وحق ما قيل « لا يكون العالم عالما حتى يظهر أثر علمه فى قومه » اذ ليس مسئولا عن نفسه وحدها بل عنها وعن عشيرته وأمته . فمن الواجب عليه أن يعلّم ويعظ ويبلّغ كما فعل رسول الله ﷺ * وعلى الجملة فالمذكّر لا بد أن

يكون كاملا فى علمه كاملا فى تعليمه . كاملا فى ارشاده . كاملا في أخلاقه *

وغير خاف أن مدكّر العامة على قوة ملكته وسعة مداركه . يضطر الى مادة تعينه على ذكراه . وتمدّ ذا كرته اذا أمّ مبتغاه . ولكن أين تلك المادة الممدّة . فانى لم أرَ بين المصنّفات على كثرتها ما ألف لذكرى العامة مستوفيا للشروط التامة . بأن يفقهوا معناه . ويدركوا منطوقه ومغزاه ويكون وافيا بحاجياتهم آتيا على جميع كالياتهم . مجرداً عن دقائق المسائل قريب الأخذ للمتناول . فيستعين به المدكّر . ويهتدى به المستبصر . ولم أزل أترقّب من نفحات التوفيق ما يهدّى البال . الى أن رأيت بعد ما بلوت في عامّ التدريس . كلّ كتاب نفيس . الأعوام الطوال . أن من أنفع ما يقتبس منه عظة المؤمنين . مواضيع تنتخب ﴿من احياء علوم الدين﴾ للعلامة الإمام حجة الإسلام، أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى عليه الرحمة والرضوان. ثم اتفق أن تذاكرت مع حكيم إمام ﴿١﴾ و استطلعت رأيه الصائب فى هذا المرام، فقال متأسفاً « ان هذا الموضوع لم يصنف فيه الا أن أحسن ما لدينا لذلك هو الإحياء بعد تجريده » فعددت ذلك من بدائع الموافقات و أتذكر الآن أن أحد الأعلام فى دمشق أشار على من استشاره من المدرسين بالإحياء ، فأخذ المدرس فى قراءته بالحرف ، عملا بالأمر الصرف ، ثم شكى له ضيقَ صدره من مباحث لا تفقهها العوام، ولا ينتفع بها الاحاصة الأنام فأجابه بأن أمره كان لفصول تنتخب منه وقد تحققتُ بذلك كمال حذقه رحمه الله و رضى عنه، لذلك عزمت سنة ﴿ ١٣٢٣ ﴾ على اختصاره فى جزئين موجزين على الشريطة السالفة ، أساير فيهما ترتيب أصله بلا مخالفة ، والمأمول أن تحظى بالغاية الموخاة ، والضالة المنشودة ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان *

---

(١) هو الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية أيام كنا فى ضيافته بمصر عام (١٣٢١) واستشرناه فأشار به عليه الرحمة والرضوان *

كتاب العلم

﴿ فضيلة العلم ﴾

شواهده من القرآن آيات كثيرة منها قوله عزّ وجلّ ﴿ شهدَ اللهُ أنّهُ لا اله إلاّ هو والملائكةُ وأولو العِلمِ قائماً بالقِسْطِ ﴾ فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا وفضلا . وقال الله تعالى ﴿ يَرْفعُ اللهُ الذينَ آمنُوا مِنْكم والذينَ أُوتوا العلْمَ درجاتٍ ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ قُل هَلْ يَستوى الذينَ يَعلمُونَ والذينَ لا يَعلْمُون ﴾ وقال تعالى ﴿ انّما يخشى اللهَ من عبادِهِ العُلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ ولوْ ردّوهُ الى الرّسُول والى أُولي الأَمْرِ منْهُمْ لعَلِمهُ الذين يَستَنْبطونَهُ منْهمْ ﴾ ردّ حكمه فى الوقائع الى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله تعالى *

وأما الأخبار فقال رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْراً يُفَقِّهْهُ فى الدّين ويُلْهِمْهُ رُشْدَهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ العلماء ورثةُ الأنبياءِ ﴾ ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوّة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة ، وقال صلوات الله عليه ﴿ اذا أتى عليّ يومٌ لا أزْداد فيه علماً يقرّبني الى اللهِ عزّ وجلّ فلا بُورِكَ لِي في طلوعِ شمسِ ذلك اليوْم ﴾ وقال ﷺ فى تفضيل العلم على العبادة والشهادة ﴿ فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلى على أدْنَى رجلٍ من أصحْابى ﴾ فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوّة وكيف حطّ رتبة العمل المجرد عن العلم وان كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ، وقال رسول الله ﷺ ﴿ فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليْلةَ البدْرِ على سائرالكواكبِ ﴾ ومن

وصايا لقمان لابنه ﴿ يابنىّ جالس العلماءَ وزاحمهم بركبتيك فان الله سبحانه يحيى القلوبَ بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماءِ ﴾

﴿ فضيلة التعلّم ﴾

أما الآيات فقوله تعالى ﴿ فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا فى الدّين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهلَ الذّكر ان كنتم لا تعلمونَ ﴾ وأما الأخبار فقوله ﷺ ﴿ مَنْ سلَكَ طريقاً يطلُبُ فيه علماً سلك اللهُ به طريقاً الى الجنّةِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لأنْ تغدوَ فتتعلّمَ باباً منَ العلمِ خيرٌ من أنْ تُصلّىَ مائةَ ركعةٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ طلَبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ ﴾ و قال أبو الدرداء لأن أتعلم مسألة أحب إلىّ من قيام ليلة ، وقال أيضا العالم والمتعلم شريكان فى الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم ، وقال الشافعى رضى الله عنه ﴿ طلب العلم أفضل من النافلة ﴾ ، وقال فتح الموصلى رحمه الله أليس المريض اذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قال كذلك القلب اذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت ولقد صدق فان غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به اذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فان الناس نيام فاذا ماتوا إنتبهوا * وقال ابن مسعود رضى الله عنه عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه موت روّاته وإن أحداً لم يولد عالما وانما العلم بالتعلم *

﴿ فضيلة التعليم ﴾

أما الآيات فقوله عز وجلّ ﴿ ولينذروا قومَهم اذا رجعوا اليهم لعلّهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد ، وقوله تعالى ﴿ وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لتبيّننّهُ للناسِ ولا تكتمونَهُ ﴾ وهو ايجاب للتعليم وقوله تعالى ﴿ وانّ فريقاً منهُمْ ليكتمونَ الحقَّ وهُم يعلمونَ ﴾ وهو تحريم للكتمان كما

فقال تعالى في الشهادة ﴿ ومَنْ يكتُمْها فإنَّه آثِمٌ قلبُهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن أحسنُ قولاً ممَّنْ دعا إلى اللهِ وعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ ادْعُ الى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ويُعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ﴾ وأما الأخبار فقوله ﷺ لما بعث معاذاً الى اليمن ﴿ لأنْ يَهدىَ اللهُ بكَ رجلا واحداً خيرٌ لك من الدّنيا وما فيها ﴾ وقال ﷺ ﴿ مَنْ عَلِمَ عِلماً فكَتَمَهُ أَلجَمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إنّ اللهَ سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملةَ في جُحرِها وحتى الحُوتَ فى البحرِ ليُصلّون على معلّمِ النّاسِ الخيرَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ اذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملهُ إلاّ من ثلاثٍ ـ صدقةٍ جاريةٍ أوعلمٍ يُنتفعُ به أوْ ولدٍ صالحٍ يدعُو له ﴾ وقال ﷺ ﴿ الدّالُّ على الخير كفاعلهِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ رحمةُ اللهِ على خلفائى ﴾ قيل ومنْ خلفاؤك قال ﴿ الذينَ يحيُون سُنّتى ويُعلِّمُونَها عبادَ اللهِ ﴾

ومن الآثار ما روى عن معاذ أنه قال تعلّموا العلم فان تعلّمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، و بذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين ، والمصبّر على البأساء والضرّاء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتصّ آثارهم ، وترمق أفعالهم ، يبلغ العبد به منازل الأبرار والدرجات العلى ؛ والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يُطاع الله عز وجل ، و به يُعبد ، و به يوحد ويمجد ، و به يتورع ، و به توصل الأرحام ، و به يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء و يحرمه الأشقياء * وقال الحسن رحمه الله لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية الى حدّ الانسانية *

﴿ بيان العلم الذى هو فرض عين ﴾

قال رسول الله ﷺ ﴿ طَلَبُ العِلْمِ فريضةٌ على كلِّ مُسلمٍ ﴾ فمنه ما يدرك به التوحيد و يعلم به ذات الله تعالى وصفاته ؛ ومنه ما تعرف به العبادات والحلال

والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، ومنه ما تعلق به أحوال القلب ما يحمد منها كالصبر والشكر والسخاء وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص — وما يذم كالحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء والبخل فمعرفة ما تكتسب به الأولى وما تجتنب به الثانية فرض
عين كتصحيح المعتقدات والعبادات
والمعاملات *

كتاب عقيدة أهل السنة

﴿ فى كلمتى الشهادة التى هي أحد مبانى الإسلام ﴾

عقيدتهم فى ذاته تعالى وتقدس انه إله واحد لا شريك له ، قديم لا أول له مستمر الوجود لا آخر له ، أبدى لا نهاية له ، دائم لا انصرام له . لم يزل ولا يزال ، موصوفا بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ؛ وانه ليس بجسم مصور ، ولا يماثل موجودا ، ولا يماثله موجود ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وانه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده ، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شيء الى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما انه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى العبد من حبل الوريد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وانه لا يحل فى شيء ولا يحل فيه شيء ، تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان وانه في ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئى الذات بالأبصار ، في دار القرار نعمة منه واطفا بالأبرار ،

و إنعاما منه للنعيم ، بالنظر الى وجهه الكريم ، وانه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالإيجاد والإبداع ، وانه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين الى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، و يدرك حركة الذر فى جو الهواء ، و يعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى ، لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال ، وانه تعالى مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت أمر الا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وانه تعالى سميع بصير ، لا يعزب عن سمعه مسموع و إن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وان دق ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام . لا يشبه سمعه وبصره سمع و بصر الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ، وانه تعالى متكلم آمر ناه ، واعد متوعد ، وان القرآن والتوراة والأنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وأنه تعالى كلم موسى عليه السلام بكلامه الذى هو صفة ذاته لا خلق من خلقه ، وان القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وانه سبحانه وتعالى لا موجود سواه الا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وانه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته ، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد ومدرك ومحسوس حادث إخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه انشاء بعد ان لم يكن شيأ ، إذ كان فى الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك اظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من ارادته ولما حق في الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته ، وانه متفضل بالخلق والإختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات

بحكم الكرم والوعد لا بحكم اللزوم له ، اذ لا يجب عليه لأحد فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وان حقه فى الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلَّغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤا به ، وانه بعث النبيّ الأميّ القرشيّ محمدا ﷺ برسالته الى العرب والعجم والجن والإنس ، وانه ختم الرسالة والنبوة ببعثته ، فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيراً ، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرح به دينه القويم ، وهدى به الصراط المستقيم ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وان الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون ، وأنّه تعالى قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم ، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد فى آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته ﴿١﴾ *

وندين بأن لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور ، وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين بالايمان جنةً ولا ناراً إلاّ من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ونرجو الجنة للمذنبين ، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذّبين ، ونقول إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا ﴿٢﴾ بشفاعة رسول الله ﷺ تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ ، ونؤمن بعذاب القبر وان الله عز وجل يوقف العباد فى الموقف ويحاسب المؤمنين ، وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام ، ونثنى عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين ، ونقول إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضوان الله عليه

---

(١) الى هنا من كلام الغزالي وما بعده من كتاب الابانة للامام الاشعري

(٢) أي احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهور العظم، ويروى امتحشوا لما لم يسم فاعله اهـ نهاية *

وان الله أعز به الدين ، وأظهره على المرتدين ، وقدمه المسلمون بالإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ ، ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وان الذين قاتلوه قاتلوه ظلماً وعدوانا، ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة ، ونتولى سائر أصحاب رسول الله ﷺ ونكف عما شجر بينهم ، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا واجماع المسلمين وما كان فى معناه ، ولا نبتدع فى دين الله ما لم يأذن لنا ولا نقول على الله ما لا نعلم .ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك﴿١﴾ .ونقول إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات يظهرها عليهم *

كتاب أسرار الطهارة

قال تعالى ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولكِنْ يُرِيدُ لِيُطهركم ﴾ وقال تعالى ﴿ فيهِ رجالٌ يُحبونَ أنْ يَتَطَهَّروا واللهُ يُحِبُّ المطَّهرين ﴾

وقال ﷺ ﴿ مِفْتاحُ الصلاةِ الطّهورُ ﴾ وعنه ﴿ بُنِيَ الدينُ على النَّظافة ﴾ ففطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر اذ يبعد

﴿١﴾ في الاقناع وشرحه ـ من كتب الحنابلة ـ وكل قربة فعلها المسلم وجعل ثوابها لمسلم حي أو ميت جاز ونفعه لحصول الثواب له حتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تطوع وواجب تدخله النيابة كحج وصوم نذر أو لا كصلاة وكدعاء واستغفار وصدقة وعتق وأضحية وأداء دين وصوم وكذا قراءة وغيرها ـ قال الامام احمد : الميت يصل اليه كل شيء من الخير للنصوص الواردة فيه ولأن المسلمين يجتمعون فى كل مصر ويقرؤن ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان اجماعا اه *

أن يكون المراد بقوله ﷺ « الطهورُ نصفُ الايمانِ » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء والقائه وتخريب الباطن وابقائه مشحونا بالأخباث والأقذار هيهات هيهات . والطهارة لها أربع مراتب « المرتبة الأولى » تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات « المرتبة الثانية » تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام « المرتبة الثالثة » تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة « المرتبة الرابعة » تطهير السرّ عما سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل الى طهارة السرّ عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة مالم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ، ولن يصل الى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات — وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الامر يُدرك بالمنى وينال بالهوينا * نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة الا الدرجة الأخيرة التي هى كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالأضافة الى اللب للمطلوب فصار يمعن فيها ويستوعب جميع أوقاته فى الإستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخبل العقل ، ان الطهارة المطلوبة الشريفة هى هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر فى تطهير القلب وتساهلهم فى أمر الظاهر حتى أن عمرَ رضى الله عنه مع علوّ منصبه توضأ من ماء فى جرّة نصرانية . ولقد كانوا يصلّون على أرض في المساجد وكانوا يقتصرون على الحجارة فى الإستنجاء . فكانت عنايتهم كلهم بنظافة الباطن ولم ينقل عن أحد منهم سؤال عن دقائق النجاسات . وقد انتهت النوبة الى طائفة يسمون الرعونة نظافة فأكثر أوقاتهم فى تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياءِ والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه . ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو صلى على الأرض من غير سجادة مفروشة أو توضأ من آنية كافر أقاموا عليه

القيامة وشدّوا عليه النكير ولقبوه بالقذر . فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه * اذا عرفت هذه المقدمة فلنتكلم الآن من مراتب الطهارة على الرابعة وهى نظافة الظاهر فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث ، وطهارة عن الحدث ، وطهارة عن فضلات البدن وهى التى تحصل بالقلم والاستحمام واستعمال النورة والختان وغيرها

القسم الأول فى طهارة الخبث

﴿ والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والازالة ﴾

﴿ الطرف الأول فى المزال وهى النجاسة ﴾

الأعيان ثلاثة : جمادات ، وحيوانات ، وأجزاء حيوانات ! أما الجمادات فطاهرة كلها الا الخمر ، وكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها الا الكلب والخنزير ، فاذا ماتت فكلها نجسة الا خمسة ﴿١﴾ الآدمى ﴿٢﴾ والسمك ﴿٣﴾ والجراد ﴿٤﴾ ودود التفاح وفى معناه كل مايستحيل من الأطعمة ﴿٥﴾ وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شىء منها فيه ، وأما اجزاء الحيوانات فقسمان ﴿ أحدهما ﴾ ما يقطع منه وحكمه حكم الميت ، والشّعْر لاينجس بالجزّ والموت ، والعظم ينجس ﴿ الثانى ﴾ الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ماليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط ، وما له مقر وهو مستحيل فنجس الا ماهو مادة الحيوان كالمنىّ والبيض والقيح والدم والروث، والبول نجس من الحيوانات كلها ، ولا يعفى عن شىء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها الا عن خمسة ﴿ الأول ﴾ أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه مالم يعد المخرج ﴿ والثانى ﴾ طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الإحتراز عنه وهو الذى لا ينسب المتلطخ به الى تفريط أو سقطة ﴿ الثالث ﴾ ما على أسفل الخف من

نجاسة لايخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعدالدلك للحاجة ﴿ الرابع ﴾ دم البراغيث ماقلّ منه أو كثر الا اذا جاوز حدّ العادة سواء كان في ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته ﴿ الخامس ﴾ دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد * ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلّى ولم يغسل وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبا — وكذلك أثر الفصد الا ما يقع نادرا من جراح أو غيره فيلحق بدم الإستحاضة ولا يكون فى معنى البثرات التى لايخلو الانسان عنها فى أحواله ، ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرّفك أن أمر الطهارة على التساهل وما أبدع فيها وسوسة لاأصل لها *

﴿ الطرف الثانى فى المزال به ﴾

وهو إما جامد وإما مائع — أما الجامد فحجر الإستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلبا طاهرا منشفا غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشىء منها الا الماء ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه فان لم يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أولونه أو ريحه لم ينجس لقوله ﷺ ﴿ خَلَقَ اللهُ الماءَ طَهُوراً لا يُنَجِّسُهُ شيءٌ الاَّ ما غيَّرَ طَعْمَهُ أَوْلوْنَهُ أَوْ رِيحَهَ ﴾

﴿ الطرف الثالث فى كيفية الازالة ﴾

النجاسة ان كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى اجراء الماء على جميع موارده ، وان كانت عينية فلابد من ازالة العين ، وبقاء اللون بعد الحت والقرص معفو عنه ، ويعفى عن الرائحة اذا عسر ازالتها ، والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون ، والمزيل للوسواس أن يعلم أن الاشياء خلقت طاهرة بيقين فما لايشاهد عليه نجاسة ولايعلمها يقينا يصلّى معها *

﴿ القسم الثانى طهارة الأحداث ﴾

ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الإستنجاء — فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء، وآداب قاضى الحاجة إن شاء الله تعالى *

﴿ آداب قضاء الحاجة ﴾

ينبغى أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء وأن يستتر بشىء إن وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء الى موضع الجلوس وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها وأن يتقى الجلوس فى متحدث الناس وأن لا يبول فى الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة وفى الثقب، وأن يتقى الموضع الصلب ومهبَّات الرياح فى البول استنزاهاً من رشاشه وأن يتكىءَ فى جلوسه على الرجل اليسرى وان كان فى بنيان يقدّم الرجل اليسرى فى الدخول واليمنى في الخروج ولا يستصحب شيأ عليه اسم الله تعالى أو رسوله ﷺ، وأن يقول عند الدخول، بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث وعند الخروج الحمد لله الذى أذهب عنّى ما يؤذينى وأبقى علىّ ما ينفعنى وأن يستبرئ من البول بالنتر ثلاثا ولا يكثر التفكر فى الإستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحسّ به من بلل فيقدّر أنه بقية الماء وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة على قلة الفقه، ومن الرخصة أن يبول الانسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه. فعل ذلك رسول الله صلوات الله عليه مع شدة حيائه ليبيّن للناس ذلك *

﴿ كيفية الإستنجاء ﴾

ثم يستنجى لمقعدته بثلاثة أحجار، ومثلها كل خشن طاهر، ثم يستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه

الكف بحس اللمس ويترك الإستقصاء فيه بالتعرض للباطن فان ذلك منبع الوسواس وليعلم أن كل مالا يصل اليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر ، وكل ماهو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد طهوره أن يصل الماء اليه فيزيله ولا معنى للوسواس *

﴿ كيفية الوضوء ﴾

اذا فرغ من الأستنجاء ، وأراد القيام الى الصلاة ، اشتغل بالوضوء ويبتدئ بالسواك ثم يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويسمّى ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلها الإناء ، ثم يأخذ غرفة لفيه فيتمضمض بها ثلاثا ويغرغر الا أن يكون صائما ، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ، ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ، ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبتدأ سطح الجبهة الى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول ، ومن الأذن الى الأذن في العرض ، ويوصل الى منابت الشعور الأربعة « الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب » لأنها خفيفة فى الغالب ، والى منابت اللحية الخفيفة — وأما الكثيفة فيفيض الماء على ظاهرها ، ويندب تخليلها ، ويدخل الأصابع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما ثم يغسل يديه الى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم ويبدأ باليمين . ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رؤس أصابع يده اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمرها الى القفا ثم يردها الى المقدمة ، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد ثم يمسح رقبته بماء جديد ، ثم يغسل رجليه الى الكعبين ، ويخلل أصابعهما فاذا فرغ رفع رأسه الى السماء وقال ﴿ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله * اللهم جعلنى من التوّابين واجعلنى من المتطهّرين واجعلنى من عبادك الصّالحين ﴾

﴿ ما يكره فى الوضوء ﴾

يكره فى الوضوء أن يزيد على الثلاث وأن يسرف فى الماء * توضأ عليه الصلاة

والسّلام ثلاثا وقال ﴿ مَنْ زادَ فَقَدْ أساءَ وَظَلَمَ ﴾ وقال ﴿ سيكُونُ قَوْمٌ مِنْ هَـذِهِ الامة يعتَدُونَ فى الدُّعاءِ والطُّهُور ﴾ ويقال من وهْنِ علم الرجل ولوعهُ بالماء فى الطهور ويكره أن ينفضَ اليد فيرش الماء وأن يلطم وجهه بالماء لطما *

﴿ الاعتبار بالطهارة ﴾

متى فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهُّر قلبه وهو موضع نظر الرّب سبحانه وليتحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلوّ عن الأخلاق المذمومة والتخلّق بالأخلاق الحميدة أولى من أن يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكا الى بيته فتركه مشحونا بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البرّانى من الدار وما أجدره بالتعرض للمقت والبوار *

﴿ كيفية الغسل ﴾

يغسل يديه ثلاثا ثم يستنجى ويزيل ما على بدنه من نجاسة ان كانت . ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا الاّ غسل القدمين فانه يؤخرهما ثم يصبّ الماء على رأسه ثم على شقه الأيمن ثم الأيسر ـ ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء الى منابت ما كثف منه وما خف وليس على المرأة نقض الضفائر الا إذا علمت أن الماء لا يصل الى خلال الشعور ويتعهد معاطف البدن ـ والغسل الواجبُ بأربعة بخروج المنىّ والتقاء الختانين والحيض والنفاس ؛ وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والإحرام والوقوف بعرفة ولدخول مكة ولمن غسل ميتا *

﴿ كيفية التيمم ﴾

من تعذر عليه استعمال الماء لفقده من بعد الطلب او لمانع له عن الوصول

اليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج اليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكا لغيره ولم يبعه الا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أوشدة الضنا فينبغى أن يصبرحتى يدخل عليه وقت الفريضة ـ ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر بحيث يثور منه غبار ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ولايكلّف ايصال الغبار الى ما تحت الشعور خف أو كثف ـ ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية ويفرج فيها بين أصابعه ويمسح بكفه اليسرى يده اليمنى وبكفه اليمنى يده اليسرى ـ واذا صلّى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ويعيد التيمم لفرض ثان *

﴿ القسم الثالث من النظافة التنظيف عن الفضلات الطاهرة ﴾

﴿ وهى نوعان أوساخ وأجزاء ﴾

﴿ النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية ﴾

﴿ الأول ﴾ مايجتمع فى شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين ازالة للشعث عنه ـ وكان ﷺ يدهن الشعر و يرجله غبا ويأمر به ﴿ الثانى ﴾ ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن ؛ والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر صماخى أذنيه فينبغى أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام ﴿ الثالث ﴾ ما يجتمع فى داخل الأنف ويزيله بالإستنشاق والإستنثار ﴿ الرابع ﴾ ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان فيزيله السواك والمضمضة ﴿ الخامس ﴾ ما يجتمع فى اللحية من الوسخ والقمل اذا لم يتعهد ويستحب ازالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط ، وترك الشعث فى اللحية اظهاراً للزهد، وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب ـ وهذه أحوال باطنة بين العبد و بين الله عزّ وجل ، والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال ﴿ السادس ﴾ وسخ البراجم وهى معاطف ظهور الأنامل : كانت العرب لاتكثر غسل ذلك لتركها

غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع فى تلك الغضون وسخ فأمرهم النبى ﷺ بغسل البراجم ﴿السابع﴾ تنظيف الرواجب : أمر رسول الله ﷺ العرب بتنظيفها وهى رؤس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لايحضرها المقراض فى كل وقت فتجتمع فيها أوساخ ﴿الثامن﴾ الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحمام *

﴿ آداب الحمّام ﴾

لا بأس بدخول الحمام * دخل أصحاب رسول الله ﷺ حمامات الشام وقال بعضهم ، نِعْمَ البيت بيت الحمّام يطهّر البدن ويذكر النار * روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما : وقال بعضهم بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء ، فهذا تعرض لآفته ، وذاك تعرض لفائدته ، ولا بأس بطلب فائدته عند الإحتراز من آفته ، ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان فى عورته ، وواجبان فى عورة غيره - أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وازالة وسخها الا بيده ويمنع الدلاّك من مسّ الفخذ وما بين السرّة الى العانة والواجبان فى عورة الغير أن يغضّ بصرَ نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النهى عن الكشف واجب وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول - وأما السنن فمنها النية وهو أن لا يدخل لعاجل دُنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ويقدم رجله اليسرى عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحارّ حتى يعرق فى الأول وأن لا يكثر صبّ الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فانه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامى لكرهه لا سيما الماء الحارّ فله مؤنة وفيه تعب، وأن يتذكّر حرّ النار بحرّ الحمام ويقدر نفسه محبوسا فى البيت الحار ساعة ويقيسه الى جهنم فانه أشبه بيت بجهنم ، النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول عافاك الله ، ولا بأس

بأن يدلكه غيره ويغمز ظهره وأطرافه ـ ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عزّ وجلّ على هذه النعمة ويكره طبّا صبّ الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ـ ويكره للمرأة دخوله الا لضرورة بمئزر سابغ *

﴿ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية ﴾

﴿ الأول شعر الرأس ﴾ ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله ﴿ الثانى شعر الشارب ﴾ يندب قصّ ما طال عن الشفة منه ولا بأس بترك السّبالين ﴿ الثالث شعر الإبط ﴾ تستحب ازالته فى كل أربعين يوماً فأقل ﴿ الرابع شعر العانة ﴾ تستحب ازالته بالحلق أو بالنورة فى المدة المتقدمة ﴿ الخامس الأظفار ﴾ وتقليمها مستحب لشناعة صورتها اذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ وليس فى ترتيب قلمها مروىّ صحيح ﴿ السادس والسابع ﴾ زيادة السرّة وقلفة الحشفة ـ أما السرة فتقطع في أول الولادة ـ وأما التطهير بالختان فلا بأس به في اليوم السابع من الولادة وان خيف منه خطر فالأولى تأخيره ﴿ الثامن ﴾ ما طال من اللحية ـ روى عن بعض الصحابة والتابعين أخذ ما زاد عن القبضة وقال آخرون تركها عافية أحب ، والأمر في هذا قريب ان لم ينته الى الطول المفرط فانه قد يشوّه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبز اليه فلا بأس بالإحتراز عنه على هذه النية وفى اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ، خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها والنقصان والزيادة فيها وتسريحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثة اظهارا للزهد والنظر الى سوادها عجبا بالشباب والى بياضها تكبرا بعلوّ السن ، وخضابها بالحمرة من غير نية تشبها بالصالحين ، فأما الخضاب بالسواد فقد روى فيه نهى لأنه قد يفضى الى الغرور والتلبيس ، وأما تبييضها بالكبريت فقد يكون مستعجلا لاظهار علوّ السن توصلا الى التوقير ! وترفعا عن الشباب واظهاراً لكثرة العلم ظنا بأن كثرة الأيام تعطيه فضلا وهيهات فلا يزيد كبر السن الجاهل

الا جهلا ـ فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ؛ ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته ، وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم * كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دينهم * وقال ابن عباس رضي الله عنه ما آتى اللهُ عزّ وجل عبده علما الا شابا والخير كله فى الشباب ـ ثم تلا قوله عزّ وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ وقال أيوب السختيانى أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه ، وقيل لأبى عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلّم من الصغير فقال ان كان الجهل يقبح به فالتعلم يحسن به *

﴿ باب أسرار الصّلاة ومهمّاتها ﴾

الصلاة عمادُ الدين ، وعصام اليقين ، وسيدة القربات ، وغرة الطاعات وقد استقصيت أصولها وفروعها فى فن الفقه فنقتصر هنا على ما لا بد منه للمريد من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة *

﴿ فضيلة الأذان ﴾

قال ﷺ ﴿لاَ يَسْمَعُ نِدَاءَ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلا إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ النِّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ﴾ وذلك محبوب مستحب الا فى الحيّعلتين فانه يقول فيهما ﴿لا حول ولا قوة الا بالله﴾ وفي قوله قد قامت الصلاة ﴿ أقامها الله وأدامها ﴾ وفى التثويب أى قول مؤذن الفجر الصلاة خيرٌ من النوم ﴿ صدقتَ وبَرِرْتَ ﴾ وعند الفراغ يقول ﴿ اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامة والصّلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ﴾

﴿ فضيلة المكتوبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً ﴾ وقال ﷺ ﴿ الصَّلوَاتُ الخَمْسُ والجُمُعَةُ إلى الجُمعَةِ كَفَّاراتٌ لما بَينهنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ ﴾ وسئل ﷺ أىّ الأعمال أفضل فقال ﴿ الصَّلاَةُ لِمَوَاقيتِها ﴾ وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول اذا حضرت الصلاة قوموا الى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها *

﴿ فضيلة إتمام الأركان ﴾

قال ﷺ ﴿ مَنْ صَلّى صَلاَةً لِوَقتِها وأَسْبَغَ وُضُوءَها وأَتَمَّ رُكُوعَها وَسُجُودَهَا وَخُشُوعَهَا عَرَجَتْ وَهِيَ بَيْضاء مُسْفِرَةٌ تقُولُ حفظكَ الله كما حفظْتنى ومنْ صلّى لغيْرِ وقتها ولمْ يُسْبِغْ وُضُوءَها ولمْ يُتِمَّ رُكُوعَها ولا سجودَها ولا خُشُوعَها عرجتْ وهي سوْداءُ مُظلمة تقُولُ ضيّعك الله كما ضيّعْتنى حتى إذا كانت حيْثُ شاء الله لُفّتْ كما يُلَفُّ الثّوْبُ الخَلِقُ فيُضربُ بها وجْهُهُ ﴾

﴿ فضيلة الجماعة ﴾

قال ﷺ ﴿ صلاَةُ الجمْعِ تفْضُلُ صلاة الْفَذّ بسبع وعشْرين درجةً ﴾ وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناساً فى بعض الصلوات فقال ﴿ لَقَدْ هَمَمْتُ أنْ آمُرَ رَجُلا يُصلّي بِالنّاسِ ثمَّ أُخالِفُ إِلَى رِجالٍ يَتَخَلّفُونَ عَنْها فَأُحْرِقُ عَليْهِمْ بُيُوتَهُمْ ﴾ وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ؛ ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة ـ وقال محمد بن واسع ما أشتهى من الدنيا الا ثلاثة أخا ان تعوّجتُ قوّمنى ، وقوتا من الرزق عفوا بغير تبعة ، وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها ـ وقال الحسن ،

لا تصلوا خلف رجل لا يختلف الى العلماء ـ وقال ابن عباس رضى الله عنه ، من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به *

﴿ فضيلة السجود ﴾

قال رسول الله ﷺ ﴿ مامِنْ مُسْلِمٍ يَسْجُدُ لِلهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ بِها دَرَجَةً وحطَّ عَنْهُ بِهاسيئة ﴾ وقال ﷺ ﴿ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِدٌ فاكثِروا الدُّعاءَ ﴾ وقال تعالى ﴿ سِيماهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يعنى نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر *

﴿ وجوب الخشوع ﴾

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾ ظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ، فمن غفل فى صلاته كيف يكون مقيما لها لذكره تعالى ـ وقال سبحانه ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِنْ الغافِلِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فى صَلاَتِهِمْ خاشِعونَ ﴾ جعل أول مراتب الفلاح الخشوع فى الصلاة إعلاماً بأن من فقده فهو بمراحل عن الفوز والنجاح الذى هو معنى الفلاح ، وقال ﷺ ﴿ إِنَّمَا الصَّلاَةُ تَمَسْكُنٌ وَتَواضعٌ وَتَضَرُّعٌ وَتَضَعُ يَدَيْكَ تَقُولُ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهِىَ خَدَّاجٌ ﴾ وروى ﴿ مَن لم تنههُ صلاتُهُ عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله الاّ بعدا ﴾ وحكى عن مسلم بن يسار أنه كان يصلى فى مسجد البصرة فسقط حائط المسجد ففزع أهل السوق لهدّته فما التفت ، ولما هُنىء بسلامته عجب وقال ماشعرت بها ، وقال ابن عباس ركعتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

﴿ فضيلة المسجد وموضع الصلاة ﴾

قال الله عز وجل ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

وقال ﷺ «مَنْ بَنَى لِلّٰهِ مَسجداً ولوْ كَمَفحَصِ قطاة(١) بنى اللهُ له بيتاً في الجنة» وقال ﷺ «إذا دَخَلَ أحدُكُمْ المسْجِدَ فليَرْكَعْ ركعَتَينِ قبْلَ أنْ يجلسَ» وقال ﷺ «لاَ صَلاَةَ لِجَارِ المسْجِدِ إلاّ في المسجد» وقال ﷺ «يأتِي على النّاسِ زَمانٌ يتحلّقونَ في مَساجِدِهِمْ وليسَ هَمُّهُمْ إلاّ الدُّنيا وَليسَ لِلّهِ فيهمْ حاجةٌ فلاَ تُجالِسُوهُمْ»

«أعمال الصّلاة الظاهرة»

اذا فرغ المصلّى من الوضوء والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرّة الى الركبة فعليه أن ينتصب قائما متوجها الى القبلة وليقرب من جدار الحائط فان ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز موضع سجوده ، وليدم هذا القيام كذلك الى الركوع من غير التفات — ثم ينوى أداء الصلاة بقلبه ويرفع يديه الى حذو منكبيه مقبلا بكفيه الى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما بل يتركها على مقتضى طبعها ويكبّر — ثم يضع اليدين على صدره ويضع اليمنى على اليسرى ولا ينفض يديه اذا فرغ من التكبير بل يرسلهما ارسالا خفيفا رفيقا، وينبغى أن يضمّ الهاء من قوله «اللهُ» ضمة خفيفة من غير مبالغة ، ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ولا بين باء أكبر وراءه ألفا كأنه يقول «اكبار» ويجزم راء التكبير ولا يضمها *

(١) أى مجثمها لتضع فيه بيضها ترقد عليه كأنها تفحص عنه التراب أى تكشفه وحمله الأكثر على المبالغة — وقيل بأن يزيد في المسجد قدرا يحتاج اليه كمفحصها أو على الاشتراك من جماعة فى بنائه فتقع حصة كل واحد كذلك القدر اهـ

﴿ القراءة ﴾

ثم يبتدئ بدعاء الإستفتاح عقب التكبير قائلا : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا ، أو ﴿ وجهتُ وجهى للذى فطرَ السموات والارضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين * إنّ صلاتى ونُسُكى ومحياىَ ومماتى لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا من المسلمين ﴾ أو – سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك ، ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم – ثم يقرأ الفاتحة ويقول بعدها آمين – ولا يصلها بقوله ﴿ ولا الضالّين ﴾ ويجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء الا أن يكون مأموما – ويجهر بالتأمين ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها ، ولا يصل آخر السورة بتكبيرة الهوىّ بل يفصل بينهما بقدر قوله ﴿ سبحان الله ﴾ ويقرأ فى الصبح من السور الطوال من المفصل – وفي المغرب من قصاره وفى الظهر والعصر والعشاء من أوساطه وفي الصبح في السفر ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و﴿ قل هو الله أحد ﴾ وكذلك فى ركعتى الفجر والطواف والتحية *

﴿ الركوع ولواحقه ﴾

ثم يركع ويراعى فيه أموراً وهو أن يكبّر للركوع * وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع * وأن يمدّ التكبير الى تمام الركوع * وان يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما * وأن يمدّ ظهره مستويا لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه * وتضمّ المرأة مرفقيها الى جنبيها وأن يقول ﴿ سبحان ربى العظيم ﴾ ثلاثا ، والزيادة الى السبعة والى العشرة حسن ان لم يكن إماما – ثم يرتفع من الركوع الى القيام ويرفع يديه ويقول ﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ ويطمئن فى الإعتدال ويقول ﴿ ربّنا لك الحمد ملءَ السموات وملءَ الأرض وملءَ ما بينهم

. وملءَ ما شئت من شئٍ بعدُ ﴾ ويقنت في الصبح فى الركعة الثانية بالكلمات المأثورة *

﴿ السجود ﴾

ثم يهوى الى السجود مكبِّراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وكفيه مكشوفة ويكبّر عند الهوى ولا يرفع يديه مع غير الركوع ويجافي مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك ويفرج بين رجليه ولا تفعل المرأة ذلك ويرفع بطنه عن فخذيه ولا تفعل المرأة ذلك ويضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ولا يفترش ذراعيه على الأرض وأن يقول ﴿ سبحان ربّى الأعلى ﴾ ثلاثا فان زاد فحسن إلا أن يكون إماما ثم يرفع من السجود فيطمئنّ جالسا معتدلا فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكاف ضمها ولا تفريجها ويقول ـ ﴿ رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنّى ﴾ ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويصلى الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ في الإبتداء *

﴿ التشهّد ﴾

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول ثم يصلى على رسول الله ﷺ وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى الا المسبِّحة ويشير بها عند قوله ﴿ إلا الله ﴾ ويجلس فى هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدتين ـ وفى التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور بعد الصلاة على النبى ﷺ ويجلس فيه على وركه الأيسر لأنه ليس مستوفزاً للقيام بل هو مستقر ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ثم يقول ﴿ السلام عليكم ورحمة الله ﴾ ويلتفت يميناً بحيث يرى خدّه الأيمن وشمالا كذلك وينوى بالسلام مَنْ على يمينه من الملائكة والمسلمين فى الأولى وينوى مثل ذلك فى الثانية ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع روحه *

﴿ المنهيات ﴾

نهى رسول الله ﷺ عن صلاة الحاقن والحاقب والحازق وعن صلاة الجائع والمتلثم — فأما الحاقن فمن البول ، والحاقب من الغائط ، والحازق صاحب الخف الضيق فان كل ذلك يمنع الخشوع ، وفى معناه الجائع والمهتم ، وفهم نهى الجائع من قوله ﷺ ﴿ إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَابْدَؤُا بِالعَشَاءِ ﴾ والنهى عن التلثم من حديث نهى رسول الله ﷺ أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة ؛ وقال الحسن كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع ، ويكره أيضا أن ينفخ في الأرض عند السجود و أن يسوى الحصا بيده و أن يستند فى قيامه الى حائط ؛ وقال بعض السلف أربعة فى الصلاة من الجفاء الالتفات ومسح الوجه ، وتسوية الحصا ، وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك *

﴿ تمييز الفرائض والسنن ﴾

ما تقدم يشتمل على فرائض وسنن وهيئات — فالسنن من الأفعال رفع اليدين فى تكبيرة الإحرام وعند الهوى الى الركوع وعند الرفع منه والجلسة للتشهد الأول والتورك والإفتراش هيئات تابعة للجلسة ، وترك الالتفات هيئة للقيام وتحسين اصورته . والسنن من الأذكار دعاء الاستفتاح والتعوذ وقول آمين وقراءة السورة وتكبيرات الإنتقالات والذكر فى الركوع والسجود والإعتدال والتشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلوات الله عليه والدعاء فى التشهد الأخير والتسليمة الثانية — هذه السنن وما عداها فهو واجب ، واعلم أن الصلاة كالإنسان فروحها وحياتها أعنى الخشوع وحضور القلب والإخلاص كروح الإنسان وحياته وأركانها تجرى منها مجرى قلبه ورأسه وكبده اذ يفوت وجود الصلاة بفواتها كما ينعدم الانسان بعدمها والسنن تجرى منها مجرى اليدين والعينين والرجلين منه فهى لاتفوت الحياة بفواتها ولكن يصير المرء بفقدها مشوه الخلقة مذموماً ، والهيئات تجرى

مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون ونحوها فمن اقتصر على أقل ما يجزئ من الصلاة كان كمن أهدى الى ملك من الملوك عبداً مقطوع الأطراف — فالصلاة قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين اليهم — وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها ، فان أحسنت فلنفسك وان أسأت فعليها *

بيان الشروط الباطنة من أعمال القلب

﴿ اشتراط الخشوع وحضور القلب ﴾

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى ﴾ وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ نهى وظاهره التحريم وقوله تعالى ﴿ حَتَّى تَعلَمُوا ما تَقُولونَ ﴾ تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهمّ بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله ﷺ ﴿ إِنَّمَا الصَّلاَةُ تَمَسْكُن وَتَوَاضُعٌ ﴾ حصر بالألف واللام وكلمة انما للتحقيق والتوكيد ، وقوله ﷺ ﴿ مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صلاَتُهُ عَنْ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعداً ﴾ وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر ، وقال ﷺ ﴿ كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صَلاَتِهِ التَّعَبُ والنَّصَبُ ﴾ وما أراد به الا الغافل . وقال ﷺ ﴿ لَيْسَ لِلعبدِ من صَلاَتِهِ إلاَّ ما عَقَلَ منها ﴾ والتحقيق فيه أن المصلّى مناج ربه عزّ وجل — كما ورد به الخبر — والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ولو حلف الإنسان وقال لأتكرنّ فلاناً وأثنى عليه وأسأله حاجة ، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً فى يمينه اذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه ما لم يكن هو حاضراً فى قلبه فلو كان تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو

حاضر الا انه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهمّ بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد يوجّه الخطاب اليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه ـ ولاشك فى أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عزّ وجل والقلب بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب واللسان يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عزّ وجل ورسوخ عقد الأيمان به ، وبالجملة فحضور القلب هو روح الصلاة ومن عرف سرّ الصلاة علم أن الغفلة تضادّها *

﴿ بيان المعانى الباطنة التى بها تتميز حياة الصلاة ﴾

يجمع تلك المعانى على كثرتها ستة جمل ، حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم والهيبة ، والرجاء ، والحياء ـ فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها *

﴿ أما التفاصيل ﴾ فالأول حضور القلب ونعنى به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ، والتفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب وهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلّى فى أثناء الصلاة تمنعه عن الفحشاء والمنكر ، والتعظيم وراء الحضور والفهم زائد عليهما ، والهيبة زائدة على التعظيم وهى عبارة عن خوف منشؤه التعظيم والإجلال ، والرجاء الطمع بمثوبته تعالى ويقابله الخوف من عقابه تعالى بتقصيره ، والحياء استشعار تقصيره وتوهم ذنب *

﴿ وأما أسباب هذه المعانى الستة ﴾ فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فان قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه ـ والقلب اذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلا بل حائلا فيما الهمة مصروفة اليه من أمور الدنيا فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة والهمة لا تنصرف اليها ما لم يتميز أن

الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى — وأن الصلاة وسيلة اليها *

﴿ وأما التفهم ﴾ فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن الى إدراك المعنى وعلاجه ماتقدم مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر وعلاج دفعها قطع موادّها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التى تنجذب الخواطر اليها *

﴿ وأما التعظيم ﴾ فهى حالة للقلب تتولد من معرفتين ﴿ إحداهما ﴾ معرفة جلال الله عزّ وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان ﴿ الثانية ﴾ معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبدا مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الإستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبرعنه بالتعظيم *

﴿ وأما الهيبة والخوف ﴾ فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وإنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرّة — وكلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة *

﴿ وأما الرجاء ﴾ فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه فى وعده الجنة بالصلاة فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لامحالة *

﴿ وأما الحياء ﴾ فباستشعاره التقصير فى العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وميلها الى الحظ العاجل فى جميع أفعالها مع العلم بعظيم مايقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعثت منها بالضرورة حالة تسمى الحياء — فهذه أسباب هذه الصفات، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففى معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين

﴿ بيان الدواء النافع فى حضور القلب ﴾

إعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحيا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه فانفكاكه عنها فى الصلاة لاسبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ولا ينهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ـ فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه *

وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجا أو أمراً باطنا * أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه وينصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة الى غيره ويتسلسل ويكون الابصار سببا للإفتكار ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف لابد وأن يتفرق به فكره ـ وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أولا يترك بين يديه مايشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة ـ وأما الأسباب الباطنة فهى أشد فان من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لم ينحصر فكره فى فن واحد بل لايزال يطير من جانب الى جانب فهذا طريقه ان يرد النفس قهرا الى فهم مايقرأه فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك ان يستعد له قبل التحريم بان يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهول المُطّلَع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره *

فان كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه الا المسهل الذى يقمع مادة الداء من اعماق العروق وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة عن إحضار القلب ـ ولا شك أنها تعود الى مهماته ، وأنها انما صارت مهمات لشهواته ـ

فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق كما رُوى انه ﷺ لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبو جَهم وعليها علم وصلّى بها نزعها بعد صلاته وقال ﷺ ﴿ إِذهَبُوا بِها إِلى أَبى جَهْم فَانَّها أَلهَتْنى آنِفاً عَنْ صَلاَتِى وائتُونى بِأَنبِجانِيَّةِ أَبى جَهْمٍ ﴾

﴿بيان تفصيل ماينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة﴾

اذا سمعت نداء المؤذن فاحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ﴿ وأما الطهارة ﴾ فاذا أتيت بها فى مكانك وهو ظرفك الأبعد، ثم فى ثيابك وهو غلافك الأقرب ثم فى بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبّك الذى هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهراً بالتوبة والندم على ما فرّطت وتصميم العزم على الترك فى المستقبل فطهّر به باطنك فانه موقع نظر معبودك ﴿ وأما ستر العورة ﴾ فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك فى عورات باطنك وفضائح سرائرك التى لا يطّلع عليها إلا ربك عز وجل فاحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها — وتحقق أنه لا يستر هن عين الله سبحانه ساتر وانما يكفرّها الندم والحياء والخوف فتستفيد باحضارها فى قلبك انبعاث وجود الخوف والحياء من مكامنها فتذل به نفسك ويستكنّ تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدى الله عز وجل قيام العبد المجرم المسىء الآبق الذى ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف *

﴿ وأما الاستقبال ﴾ فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله تعالى أفترى أن صرف القلب من سائر الأمور إلى أمر الله عز وجل ليس مطلوباً منك هيهات . فلا مطلوب سواه . وانما هذه الظواهر تحريكات للبواطن

وضبط الجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها الى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل: فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك: فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب الى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه

﴿ وأما الاعتدال قائماً ﴾ فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله عز وجلّ تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرّؤ عن الترؤس والتكبر مع ذكر خطر القيام بين يدى الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال ، واعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله

﴿ وأما النية ﴾ فعزم على إجابة الله عز وجل فى امتثال أمره بالصلاة وإتمامها رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه بإذنه لك فى المناجاة مع كثرة عصيانك ، فعظّم في نفسك قدر مناجاته . وانظر مَنْ تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجى . وعند هذا ينبغى أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف

﴿ وأما التكبير ﴾ فاذا نطق به لسانك فينبغى أن لا يكذبه قلبك فان كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه أو كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل وأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيكون قولك ﴿ الله أكبر ﴾ كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه سبحانه وعفوه

﴿ وأما دعاء الاستفتاح ﴾ فأول كلماته قولك : وجّهتُ وجهي للذى فطر السموات والأرض ، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته الى جهة القبلة ، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه ، وإنما وجه القلب هو الذى تتوجه به الى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه

[illegible]

الى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات ،
و إياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب ولن ينصرف الوجه الى الله
تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد فى الحال في صرفه اليه و إن عجزت عنه على
الدوام فليكن قولك في الحال صادقا ، واذاقلت ﴿ حَنيفاً مسلماً ﴾ فينبغى أن يخطر
ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من لسانه و يده فان لم تكن كذلك كنت
كاذباً فاجتهد فى أن تعزم عليه فى الإستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال ،
واذا قلت ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ فاخطر ببالك الشرك الخفى كمن يقصد
بعبادته وجه الله وحمد الناس : فكن حذرا متقيا من هذا الشرك واستشعر الخجلة
فى قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا
الشرك فان اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه ، واذا قلت ﴿ محياى ومماتى
لله ﴾ فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وانه إن صدر ممن رضاه
وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته فى الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن
ملائما للحال ، و إذا قلت ﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ فاعلم أنه عدوك
و مترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل
وسجودك له مع أنه لُعِن بسبب سجدة واحدة تركها ، وان استعاذتك بالله سبحانه
منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك فان من قصده
سبع أو عدوّ ليفترسه أو ليقتله فقال أعوذ منك بهذا الحصن الحصين وهو ثابت
على مكانه ذلك لاينفعه بل لايفيده إلا بتبديل المكان فكذلك من يتبع
الشهوات التى هى محابّ الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول . و من اتخذ
إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا فى حصن الله تعالى : واعلم أن من مكايده
أن يشغلك فى صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ .
فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معانى قراءتك فهو وسواس فان حركة اللسان غير
مقصودة بل المقصود معانيها : فاذا قلت ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فانو به التبرك
لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه وافهم أن معناها إن الأمور كلها بالله سبحانه

واذا كانت الأمور به تعالى فلا جرم كان ﴿ الحمد لله ﴾ ومعناه أن الشكر لله اذ النعم من الله ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكره لا من حيث أنه مسخر من الله عز وجل ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله تعالى : فاذا قلت ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فاحضر فى قلبك جميع انواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث به رجاؤك ؛ ثم استخرج من قلبك التعظيم والخوف بقولك ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له ـ وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالكه : ثم جدد الإخلاص بقولك ﴿ اياك نعبد ﴾ وجدد العجز والإحتياج والتبرؤ من الحول والقوة بقولك ﴿ واياك نستعين ﴾ وتحقق انه ما تيسرت طاعتك الا باعانته وأن له المنة اذ وفقك لطاعته : ثم عين سؤالك ولا تطلب الا أهم حاجتك وقل ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الذى يسوقنا الى جوارك ويفضى بنا الى مرضاتك ؛ وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا واستشهادا بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين : ثم التمس الإجابة وقل ﴿ آمين ﴾ ولو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله فى جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ـ وكذلك ينبغى أن تفهم ما تقرأه من السور فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه ولكل واحد حق : فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهى والإتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق المنة ، والإعتبار حق اخبار الأنبياء ؛ وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم ويكون بحسب وفور العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر ، والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً ثم يراعى الهيبة فى القراءة فيرتل ولا يسرد فان ذلك أيسر للتأمل *

﴿ وأما دوام القيام ﴾ فانه تنبيه على اقامة القلب مع الله عز وجل على نعت [illegible] حضور [illegible] ﷺ ان الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت [illegible]

وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الألتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السرّ من الألتفات إلى غير الصلاة فاذا التفت إلى غيره فذكّره باطلاع الله عليك و بقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود اليه ، والزم الخشوع للقلب فان الخلاص عن الألتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال ﷺ وقد رأى رجلا مصليا يعبث بلحيته ﴿ أَمَا هَذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ فانّ الرعيّةَ بِحُكْمِ الرَّاعِى ﴾ ولهذا ورد فى الدعاء ﴿ اللهم اصلح الرّاعى والرّعية ﴾ وهو القلب والجوارح

﴿ وأما الركوع والسجود ﴾ فينبغى أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عزّ وجلّ من عقابه ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك ، وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعزّ مولاك واتضاعك وعلوّ ربك ؛ وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك فتسبّح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل شئ عظيم ؛ وتكرّر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار : ثم ترتفع من ركوعك مؤكدا للرجاء فى نفسك بقولك ﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ أى أجاب لمن شكره : ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد فتقول ﴿ ربنا لك الحمد ﴾ وتكثر الحمد بقولك ﴿ ملءَ السموات وملءَ الأرض ﴾ ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الإستكانة فتمكّن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب ؛ وان أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فانه أجلب للخشوع وأدلّ على الذل ، وإذا وضعت نفسك موضع الذلّ فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله وإنك من التراب خُلقت واليه تعود ، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل ﴿ سبحان ربّى الأعلى ﴾ وأكده بالتكرار فان الكرة الواحدة ضعيفة الآثار فاذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فان رحمته تسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبّراً وسائلا حاجتك وقائلا ﴿ ربِّ اغفرْ وارْحمْ ﴾ ثم أكد التواضع بالتكرار فعد فى السجود ثانيا كذلك.

﴿ وأما التشهد ﴾ فاذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ما تدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، واحضر في قلبك النبي ﷺ وقل ﴿ سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ﴾ وليصدق أملك فى أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى عباد الله الصالحين : ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين . ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد النبي ﷺ بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتى الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة . واشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين : واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين ؛ وانو ختم الصلاة به واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة : ثم اشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير فى الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك فى وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله

هذا تفصيل صلاة الخاشعين ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، والذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلوات فالقدر الذى يسر له منه ينبغى أن يفرح ؛ وعلى ما يفوته ينبغى أن يتحسر ، وفي مداواة ذلك ينبغى أن يجتهد ـ وأما صلاة الغافلين فهى مخطرة إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته . نسأله تعالى أن يتغمدنا برحمته ومغفرته اذ لا وسيلة لنا الا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته

ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهى المقرونة بالخشوع : ثم ختم وصف المفلحين بالصلاة أيضا فقال ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات ﴿ أولئك هم

الوارِثُونَ الذّينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُونَ ﴾ فوصفهم بالفلاح أولا وبوراثة الفردوس آخرا . وما عندى أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم ﴿ ما سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ قالُوا لم نكُ من المُصلّين ﴾ فالمصلّون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوّه من قلوبهم : فنسأل الله أن يجعلنا منهم

﴿ الإمامة ﴾

على الإمام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة وفى أركان الصلاة وبعد السلام أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة ﴿ أولها ﴾ أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه ، وأن لا يتقدم ووراءه من هو أفقه منه إلا اذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ـ ويكره عند ذلك المدافعة ﴿ ثانيها ﴾ أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصلّى فى أوائلها ليدرك رضوان الله تعالى ففضل أوّل الوقت على آخره كفضل الآخرة على الأولى ، ولا ينبغى أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجمع بل عليه المبادرة لحيازة فضيلة أوّل الوقت فهى أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة : وقد تأخر رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر وكانوا فى سفر وإنما تأخر للطهارة فلم يُنْتَظَر وقُدِّم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة فقام يقضيها فأشفقوا من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ قد أحسنتم هكذا فافعلوا ، وذهب مرة يصلح بين قوم فتأخر عن صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء صلوات الله عليه وهو في الصلاة فقام إلى جانبه ، وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام ﴿ ثالثها ﴾ أن يؤم مخلصاً لله عز وجل ويؤدى أمانة الله تعالى فى طهارته وجميع شروط صلاته ، أما الإخلاص فبأن لا يأخذ عليها أجرة . قال الشيخ (١) تقى الدين بن تيمية عليه الرحمة :

(١) ما بين هلالين من النقل عن الإمام ابن تيمية رحمه الله من زيادة [illegible]

ما يؤخذ من بيت فليس عوضاً وأجرة بل رزق للإعانة على الطاعة وكذلك المال الموقوف على أعمال البرّ والموصى به أو المنذور له ليس كالأجرة والجعل انتهى * قال الحارثى فالقائل بالمنع من أخذ الأجرة على نوع القرب لا يمنع من أخذ المشروط في الوقف ﴿ وأما الأمانة فهى الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر فالمترشح للإمامة ينبغى أن يحترز عن ذلك بجهده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغى أن يكون خير القوم ـ وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فانه لا يطلع عليه سواه فان تذكّر فى أثناء صلاته حدثا أو خرج منه ريح فلا ينبغى أن يستحى بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه ﴿ رابعها ﴾ أن لا يكبّر حتى تستوى الصفوف فليلتفت يميناً وشمالا فان رأى خللا أمر بالتسوية : قيل كانوا يتحاذون بالمناكب وينضامون بالكعاب، ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة ، والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس للصلاة ﴿ خامسها ﴾ أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبير الإمام فيبتدئ بعد فراغه.

﴿ وأما وظائف القراءة فثلاثة ﴾ أولها : أن يسرّ بدعاء الإستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها فى جميع الصبح وأولَيَ العشاء والمغرب وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين فى الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً ﴿ الثانية ﴾ أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات ﴿ أولاهن ﴾ إذا كبر لدعاء الإستفتاح ﴿ والثانية ﴾ إذا فرغ من الفاتحة ﴿الثالثة﴾ إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ماتنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن التعجيل فيه ، ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة ، وان لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أوكان فى السرية فلا بأس بقراءته السورة ﴿ الثالثة ﴾ التخفيف أولى سيما اذا كثر الجمع لقوله ﷺ ﴿ إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ للنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ وَإِذَا صَلَّى [illegible]

فليطوّل ما شاء ﴾ وقال صلوات الله عليه لمعاذ ﴿ اقرأ سورة سبّح والسماء والطارق والشمس وضحاها ﴾

﴿ وأما وظائف الأركان فثلاثة ﴾ أوّلها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث ﴿ الثانية ﴾ فى المأموم ينبغى أن لا يسابق الإمام فى الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود الا اذا وصلت جبهة الإمام الى الأرض ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راكعاً ﴿ الثالثة ﴾ لا يزيد فى دعاء التشهد على مقدار التشهد حذراً من التطويل ولا يخص نفسه بالدعاء بل يأتى بصيغة الجمع فيقول اللهم اغفر لنا

﴿ وأما وظائف التحلل فثلاثة ﴾ أولها : ان ينوى بالتسليمتين السلام على القوم وللملائكة ﴿ الثانية ﴾ أن يثبت عقب السلام سيما اذا كان خلفه نسوة فلايقوم حتى ينصرفن ﴿ الثالثة ﴾ اذا وثب فينبغى أن يقبل بوجهه على الناس

﴿ فضل الجمعة وآدابها ﴾

علم أن هذا يوم عظيم عظّم الله به الإسلام وخصّ به المسلمين قال الله تعالى ﴿ اذا نودىَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا الَى ذِكْرِ اللهِ وَذَروا البَيْعَ ﴾ فحرم الإشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعى الى الجمعة وقال ﷺ ﴿ خيرُ يومٍ طَلَعَت عليهِ الشمْسُ يومُ الجمعةِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ مَنْ تَرَكَ الجمعةَ ثلاثاً مِنَ غيرِ عُذرٍ طَبَعَ اللهُ على قَلبِهِ ﴾ والعذر مثل المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض اذا لم يكن للمريض قيم ونحوها ، ويستحب الغسل فيه ولا بأس من تقريبه من الرواح ليكون أقرب عهداً بالنظافة ، ويستحب فيه أخذ الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وتطييب الرائحة ولبس أحسن الثياب ، ويستحب البكور الى الجامع وأن يكون فى سعيه خاشعا متواضعا مبادرا الى ندائه تعالى الى الجمعة ، وينبغى أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم ، والبكور يسهل عليه ذلك فقد ورد وعيد شديد فى تخطى الرقاب ، ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى

رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا مواضع الفضيلة * قال الحسن البصرى ﴿ رضي الله عنه ﴾ تخطوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة فانه لاحرمة لهم ، واذا دخل المسجد فليركع ركعتين وان كان الإمام يخطب ولا يمر بين يدى الناس بل يجلس الى أقرب اسطوانة أوحائط حتى لايمروا بين يديه أعنى بين يدى المصلى فان ذلك منهى عنه ، ومن اجتاز به فينبغى أن يدفعه . فان لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيأ طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده ، ويندب طلب الصف الأول فان فضله كثير ، والقرب من الخطيب ليستمع الخطبة ، وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد ، وعليه أن يقطع الكلام عند خروج الخطيب بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة : وقال ﷺ ﴿ مَنْ قالَ لِصاحِبِهِ وَالإمامُ يَخْطُبُ أَنْصِتْ فَقَدْ لَغا وَمَنْ لَغا وَالإِمامُ يَخْطُبُ فَلا جُمُعَةَ لهُ ﴾ وهذا يدل على أن الإسكات ينبغى أن يكون باشارة أو رمى حصاة لا بالنطق : فاذا قضيت الصلاة فليرجع الى شأنه ذاكرا الله عز وجل مفكرا في آلائه شاكرا الله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره ، وكان ﷺ يصلى بعد الجمعة ركعتين فى بيته ، ويستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ في هذا اليوم وفي ليلته ، وأن يتصدق فيه الا على من سأل والإمام يخطب ، قال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لايعطى : يعنى هؤلاء السؤال فى الجامع الذين يتخطون رقاب الناس الا أن يسأل قائما أو قاعدا فى مكانه من غير تخطى ، وكره بعض السلف شراء الماء فى المسجد من السقاء ليشرب به أو يسبله حتى لايكون مبتاعا فى المسجد فان البيع والشراء فى المسجد مكروه ، وقالوا لابأس لو أعطى الفضة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد ، وينبغى أن يزيد في خدمة في أنواع خيراته فان الله سبحانه اذا أحب عبدا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال *

﴿ مسائل متفرقة يُحتاج الى معرفتها ﴾

﴿ مسئلة ﴾

الفعل القليل وإن كان لايبطل الصلاة فهو مكروه الا لحاجة ، وذلك فى دفع المارّ وقتل العقرب وحاجته الى الحكّ الذى يشوش عليه الخشوع ، ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه ، وإن عطس حمد الله عزّ وجل فى نفسه ولم يحرّك لسانه ، وان تجشى فينبغى أن لايرفع رأسه الى السماء *

﴿ مسئلة ﴾

يسنّ أن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلا ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام، فان كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهى خلف الرجل

﴿ مسئلة ﴾

المسبوق اذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أوّل صلاته فليوافق الإمام وليبن عليه ، وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها فان ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله عن الركوع فليتم فان عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق، وإن ركع الإمام وهو فى السورة فليقطعها وإن أدرك الإمام فى السجود أو التشهد كبّر للإحرام ، ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما اذا أدركه فى الركوع فانه يكبر ثانياً في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له ، ولا يكون مدركا للركعة ما لم يطمئن راكعاً فى الركوع والإمام بعدُ في حدّ الراكعين فان لم يتم طمأنينته الا بعد مجاوزة الإمام حدّ الراكعين فاتته الركعة

﴿ مسئلة ﴾

من فاتته [illegible] فليصلّ الظهر أولا ثم العصر . فى [illegible]

جماعة فليصلّ العصر ثم ليصلّ الظهر بعده فان الجماعة بالأداء أولى *

﴿ مسئلة ﴾

من صلّى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه ، ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم : وأصل هذا قصة خلع النعلين حيث أخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بأن عليهما نجاسة فخلعهما ولم يستأنف الصلاة *

﴿ مسئلة ﴾

من ترك التشهّد الأول أو شكّ فلم يدر أصلّى ثلاثاً أو أربعاً أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب *

﴿ مسئلة ﴾

الوسوسة فى نيّة الصلاة سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع ، لأن امتثال أمر الله عزّ وجل مثل امتثال أمر غيره، وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد ، ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال نويت أن أنتصب قائماً تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله متصلا بدخوله مقبلا عليه بوجهى كان سفيهاً عقله ، بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة واشتراط كون الصلاة ظهراً أداء فرضاً فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقروناً بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه وقصد التعظيم به ليكون تعظيما فانه لو قام مدبراً عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما ، ثم هذه الصفات لا بدّ وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة ، وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظاً باللسان وإما تفكراً بالقلب فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية ، فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض جهل *

﴿ مسئلة ﴾

لا ينبغى أن يتقدم المأموم على الإمام فى الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال، ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الإقتداء فان تقدم عليه ففى بطلان صلاته خلاف : وقد شدّد رسول الله ﷺ النكير فيه وقال ﴿ أَمَا يَخْشَى الَّذِى يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإمَام أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْس حِمَار ﴾ *

﴿ مسئلة ﴾

حقٌّ على من حضر الصلاة اذا رأى من غيره إساءة فى صلاته أن يغيره وينكر عليه ، وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه ، فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور ، وعن عمرَ رضى الله عنه قال تفقدوا إخوانكم فى الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم ، والعتاب انكار على من ترك الجماعة ، ولا ينبغى أن يتساهل فيه ، وقد كان الأولون يبالغون فيه *

﴿ بيان نوافل العبادات ﴾

اعلم أن ماعدا الفرائض من الصلوات يسمى نافلة وتطوعا ، فمنه ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء ، ومنه ما يتعلق بأوقات كرواتب الصلاة ونحوها فمن الثانى ﴿ راتبة الصبح ﴾ وهي ركعتان يدخل وقتها بطلوع الفجر فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فان رسول الله ﷺ قال ﴿ إذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فلاَ صلاةَ إلاّ المكتُوبَةَ ﴾ ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما، وصلاهما ﴿ وراتبة الظهر ﴾ أربع قبلها وأربع بعدها وله الاقتصار على ركعتين قبل وبعد ﴿ وراتبة العصر ﴾ وهى أربع ركعات قبلها ولم تكن مواظبته صلوات

الله عليه عليها كمواظبته على نافلة الظهر ﴿ وراتبة المغرب ﴾ وهما ركعتان بعد الفريضة وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامته على سبيل المبادرة فكان يفعله كثير من الصحب ، وصح أمر النبي صلوات الله عليه بها على سبيل التخيير ﴿ وراتبة العشاء ﴾ بعدها ركعتان أو أربع ﴿ وأما الوتر ﴾ فوقته بعد العشاء وأكثره إحدى عشرة ركعة ، وله أن يوتر بتسع وسبع وخمس وثلاث موصولة بتسليمة واحدة أو مفصولة بتسليمتين ، وجعله بعد التهجد في آخر الليل أفضل ﴿ وأما صلاة الضحى ﴾ فأكثر ما نقل في عدد ركعاتها ثمان ، وأقله ركعتان ، ووقتها بعد إشراق الشمس وارتفاعها ﴿ وأما صلاة العيدين ﴾ فهي سنّة مؤكدة وشعار من شعائر الدين، ويستحب يوم العيد الإغتسال والتزين والتطيب ﴿ وأما صلاة التراويح ﴾ فهي عشرون ركعة، وكيفيتها معروفة ﴿ وأما صلاة الخسوف ﴾ فركعتان ينادى لها ويصلّيهما الإمام بالناس جماعة في المسجد وفي كل منهما ركوعان وسجودان ثم يخطب بعدها ويأمر الناس بالصدقة والتوبة ، ووقتها عند ابتداء الخسوف الى تمام الإنجلاء ﴿ وأما صلاة الإستسقاء ﴾ فاذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ثم يخرج بهم يوم الرابع ، وبالعجائز والصبيان في ثياب بذلة واستكانة متواضعين ـ ولو خرج أهل الذمة أيضاً متميزين لم يمنعوا فاذا اجتمعوا في المصلّى الواسع من الصحراء نودى ﴿ الصلاة جامعة ﴾ فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ثم يخطب خطبتين ويكثر من الإستغفار والدعاء ﴿ وأما صلاة الجنائز ﴾ فكيفيتها معروفة وهي من فرائض الكفايات وإنما تصير نفلا في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ﴿ وأما تحية المسجد ﴾ فركعتان وهي سنة مؤكدة وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد ﴿ وأما ركعتا الوضوء ﴾ بعده فمستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة ﴿ وأما صلاة الإستخارة ﴾

فمن همّ بأمر فقد أمر النبيّ صلوات الله عليه أن يصلي ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الـكتاب وقل ياأيها الكافرون ؛ وفي الثانية الفاتحة وقل هوالله أحد . فاذا فرغ دعا وقال : اللهم إنى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب : اللهم إن كنتَ تعـلم أن هذا الأمر خير لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فقدّره لى وبارك لى فيه ثم يسّره لى ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفنى عنه واصرفه عنى واقْدِر لى الخيرَ حيث كان ثم رضّنى به : ويُسمّى حاجته *

﴿ الأوقات التي تـكره فيها الصلاة ﴾

هى خمسة بعد العصر ، و بعد الصبح ، و وقت الزوال ، و وقت الطلوع والغروب تكره فيها صلاة لاسبب لها ، أما ما له سبب كقضاء راتبة وكسوف وجنازة فلا تكره فيها ، وسرّ النهى التوقى من مضاهاة عبدة الشمس و بعث الداعية والنشاط فى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض و بعث على انتظار قضاء الوقت *

﴿ مايقضى من النّـوافل ﴾

رُوِى أن رسول الله ﷺ صلّى ركعتين بعد العصر فقيـل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلنى عنهما الوفد ، وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ اذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلّى من أوّل النهار اثنتى عشرة ركعة ، فمن كان له وِردٌ ففاته عن ذلك عـذر فينبغى أن لا يرخص لنفسه فى تركه بل يتداركه فى وقت آخر حتى لا تميـل نفسه الى الدعة والرفاهية فتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس فيقصد به أن لا يفتر فى دوام عبادته

كتاب أسرار الزكاة

جعل الله تعالى الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ شَهادةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ محمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقامِ الصَّلَاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ وَصَومِ رَمَضَانَ وَحجِّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وشدّد الوعيد على المقصرين فيها فقال ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة ، قال الأحنف بن قيس كنت فى نفر من قريش فمرّ أبو ذر فقال بشر الكانزين بكيّ فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكيّ في اقفائهم يخرج من جباههم ــ ولهذا التشديد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة ومعانيها الظاهرة والباطنة ــ وفي ذلك فصول *

﴿أداء الزكاة وشروطها﴾

علم أنه يجب على مؤدّى الزكاة مراعاة أمور ﴿الأول﴾ البدار عقيب الحول وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر ، ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان ، ووقت تعجيلها شهر رمضان كله، ومن أخّر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله ، وتمكنه بمصادفة المستحق ، وتعجيل الزكاة جائز ﴿ الثانى ﴾ أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فان أعين المساكين فى كل بلدة تمتدّ إلى أموالها ، وفى النقل تخييب للظنون فان فعل ذلك أجزأه فى قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة ثم لا بأس أن يصرف الى الغرباء في تلك البلدة ﴿ الثالث ﴾ أن يقسم ماله بعدد الموجودين من الأصناف الثمانية في بلده، ويوجد فى جميع البلاد أربعة

أصناف ﴿ الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ﴾ أعنى أبناء السبيل وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف *

﴿ سرّ كون الزكاة من مباني الإسلام ﴾

فى ذلك ثلاث معانى ﴿ الأول ﴾ أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بأفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لاتقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ـ ولذلك قال الله تعالى ﴿ إنّ اللهَ اشْتَرَى منَ المُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأموالَهم بِأَنّ لَهم الجَنّةَ ﴾ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عزّ وجل والمسامحة بالمال أهون ، ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام ، قسم صدقوا التوحيد ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدّخروا ديناراً ولا درهما كما جاءَ أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بجميع أمواله ، وقسم دون هؤلاء وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات . فيكون قصدهم فى الإدخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لايقتصرون على مقدار الزكاة : وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد : قال الشعبى بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة قال نعم أما سمعت قوله عزّ وجل ﴿ وَآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى ﴾ الآية : واستدلوا بقوله عزّ وجل ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فهو داخل فى حق المسلم على المسلم : ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة

والقسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينتقصون منه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم اليه وضعف حبهم للآخرة *

﴿ المعنى الثانى ﴾ التطهير من صفة البخل فانه من المهلكات : قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ وانما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال فحب الشيء لاينقطع الا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً ، والزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهّر صاحبها عن خبث البخل المهلك وانما طهارته بقدر بذله و بقدر فرحه باخراجه واستبشاره بصرفه الى الله تعالى *

﴿ المعنى الثالث ﴾ شكر النعمة ، فان لله عزّ وجل على عبده نعمة فى نفسه وماله فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال ، وما أخسّ من ينظر الى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج اليه ثم لاتسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره اليه بربع العشر أوالعشر من ماله *

﴿ وظائف المزكّى ﴾

﴿ الأولى ﴾ التعجيل عن وقت الوجوب اظهاراً للرغبة فى الإمتثال بايصال السرور الى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوّق عن الخيرات وعلما بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخرّ عن وقت الوجوب ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم فان ذلك لمة الملك وما أسرع تقلب المؤمن و﴿ الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الفقرَ وَيأْمُرُ بالفَحْشاءِ والمنكرِ ﴾ وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه *

﴿ الوظيفة الثانية ﴾ الأسرار فان ذلك أبعد عن الرياء والسمعة : قال تعالى ﴿ وإِن تُخْفُوها وتؤتوها الفقراءَ فَهُوَ خيرٌ لَكُمْ ﴾ وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لايعرف القابض المعطى فكان بعضهم يوصل الى يد الفقير على يد غيره بحيث لايعرف المعطى ، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن

لا يغشيه كل ذلك توصلا الى رضاء الرب واحترازا من الرياء والسمعة ، ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله *

﴿ الثالثة ﴾ أن يظهر حيث يعلم أن فى اظهاره ترغيبا للناس فى الإقتداء ويحرس سره من داعية الرياء : فقد قال تعالى ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للإقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ـ وهذا لأن فى الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير فانه ربما يتأذى بأن يُرى في صورة المحتاج : فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى اظهاره ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ندب الى العلانية أيضاً لما فيه من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال *

﴿ الرابعة ﴾ أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى : قال الله تعالى ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ والمن أن يذكرها ويتحدث بها أو يستخدمه بالعطاء أو يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن يظهرها ، أو يعيره بالفقر أو ينتهره أو يوبخه بالمسئلة : وأصل المن أن يرى نفسه محسناً إلى الفقير ومنعما عليه وحقه أن يرى الفقير محسناً اليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهناً به فحقه أن يتقلد منة الفقير ، ومهما عرف معانى الثلاثة التى ذكرها فى الفصل قبل ـ لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلباً لمزيد *

وأما الأذى فمنبعه رؤيته أنه خير من الفقير ـ وهذا جهل لأنه لو عرف

فضل الفقر وخطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تمنى درجته كيف ، وقدجعله الله تعالى متجرة له حتى يخلصه من عهدته بقبوله منه *

﴿ الخامسة ﴾ أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها ، والعجب من المهلكات وهو محبط الأعمال — قيل لايتم المعروف إلا بثلاث تصغيره وتعجيله وستره *

﴿ السادسة ﴾ أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه اليه وأجله وأطيبه فان الله تعالى طيّب ولا يتقبل إلا طيباً ، واذا لم يكن المخرَج من جيّد المال فهو من سوء الأدب ، إذ قد يمسك الجيدلنفسه أو لعبده أو أهله فيكون قد آثر على الله عزّ وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم اليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، وقد قال تعالى ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخرجْنا لكُمْ منَ الأَرْضِ ولاَ تيَمَّمُوا الخَبيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ولَسْتُمْ بآخذيهِ إلاّ أَنْ تغمِضُوا فيه ﴾ أى لا تأخذوه الا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض *

﴿ السابعة ﴾ أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فان في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوصهاوهي ستة ﴿ الأولى ﴾ أن يطلب الأتقياء لأنهم يستعينون بالمال على التقوى فيكون شريكا لهم فى طاعتهم بإعانته إياهم ﴿ الثانية ﴾ أن يكون من أهل العلم خاصةفان ذلك اعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان بن المبارك يخصّص بمعروفه أهلَ العلم فقيل له لو عممت فقال انى لا أعرف بعد مقام النبوّة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلّم فتفريغهم للعلم أفضل ﴿ الثالثة ﴾ أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد — وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عزّ وجل وشكره ورأى أن النعمة منه وأن الواسطة مسخر بتسخير الله إذ سلّط عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم

وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفى ، فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه ﴿ الرابعة ﴾ أن يكون مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ـ أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته و بقيت عادته فهو يتعيش فى جلباب التحمل : قال الله تعالى ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم ـ وهذا ينبغى أن يطلب بالفحص عن أهل الدين فى كل محلة ويستكشف عن بواطن احوال اهل الخير والتجمل ، فثواب صرف المعروف اليهم أضعاف مايصرف الى المجاهدين بالسؤال ﴿ الخامسة ﴾ أن يكون معيلا أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عزّ وجل ﴿ لِلفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أوضيق معيشة أو اصلاح قلب ﴿ لاَ يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً فى الأَرْضِ ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف ـ فبهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها : وكان ﷺ يعطى العطاء على مقدار العيلة ـ وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال ، وقلة المال ﴿ السادسة ﴾ أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، وفى صلة الرحم من الثواب ما لا يُحصى ـ قال علىّ رضى الله عنه لأن أَصِلَ أخا من اخوانى بدرهم أحبّ الىّ من أن أتصدّق بعشرين درهما ـ والأصدقاء واخوان الخير أيضاً يتقدّمون على المعارف كما يتقدّم الأقارب على الأجانب فليراع هذه الدقائق ـ فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغى أن يطلب أعلاها ، فان وُجد مَنْ جَمَعَ جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ✽

﴿ مصارف الزكاة وأصناف قابضيها ﴾

اعلم أنه لايستحق الزكاة الا مسلم اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله تعالى *

﴿ الصنف الأول الفقراء ﴾ والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة على الكسب : فمن قدر على كسب فان ذلك يخرجه عن الفقر ، وان كان متفقهاً ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وان كان متعبداً يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك *

﴿ الصنف الثانى المساكين ﴾ والمسكين هو الذى لا يفى دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لايملك إلا فأساً وحبلا وهو غنىّ والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدر حاله لا يسلبه اسمَ المسكين وكذا أساس البيت أعنى ما يحتاج اليه وذلك ما يليق به وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة فانه محتاج اليها *

﴿ الصنف الثالث العاملون ﴾ وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات ويدخل فيه الكاتب والمستوفى والحافظ والنقال *

﴿ الصنف الرابع المؤلّفة قلوبهم على الإسلام ﴾ وهو التشريف الذى أسلم وهو مطاع فى قومه ، وفى إعطائه تقريره على الإسلام وترغيب نظائره وأتباعه *

﴿ الصنف الخامس الأرقّاء ﴾ يدفع الى السيد ما يفك به رقبة العبد ويدفع للعبد أيضاً ما يفك به رقبته *

﴿ الصنف السادس الغارمون ﴾ والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض فى معصية فلا يعطى الا اذا تاب ـ وان كان غنياً لم يقض دينه إلا اذا كان قد استقرض لمصلحة واطفاء فتنة *

﴿ الصنف السابع الغزاة (١) الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف اليهم سهم وإن كانوا أغنياء اعانة لهم على الغزو *

﴿ الصنف الثامن ابن السبيل ﴾ وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز فيه فيُعطى ان كان فقيراً وان كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته *

﴿ وظائف القابض وهى — أربعة ﴾

﴿ الأولى ﴾ أن يفهم أن الله عزّ وجل أوجب صرفه اليه ليكفى همّه ويكون عونا له على الطاعة ، فان استعان به على المعصية كان كافراً لأنعم الله عزّ وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه *

﴿ الثانية ﴾ أن يشكر المعطى ويدعوله ويثنى عليه ـ ويكون شكره ودعاؤه بحيث لايخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه اليه ـ وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة وذلك لاينافي رؤية النعمة من

(١) هذا مما فسر به الفقهاء قوله تعالى (وفى سبيل الله) فجعلوا هذا الصنف للغزاة المجاهدين خاصة وقوفا مع آثار فى ذلك رويت عن السلف وعندى أن هذا القصر من حصر العام فى أهم أفرادها لامن حصره فى مدلوله وموضوعه اللغوى لأن سبيل الله ـ كما قال ابن الأثير فى النهاية كل عمل خالص سلك به طريق التقرب الى الله تعالى بأنواع التطوعات والقربات على أن سبيل الله ليس نصاً فى الجهاد ولا ظاهراً فيه كما لايخفى على من له إلمام بالأصول ولا يقدر أحد أن يأتى بنص من كتاب أو سنة أن سبيل الله هو الانفاق على المجاهدين دون غيرهم أبدا الا من آثار موقوفة على السلف مما ليس بحجة ولاقاطع : وقد تقرر أن العام يجب إبقاؤه على عمومه حتى يرد ما يخصصه واذلا مخصص فهو عام فى كل مايتقرب به الى الله ويؤيد دينه وشرعه كبناء مدرسة وشراء كتب للعلماء واعانة فى مشروع خير وموضوع بر مما لا تحصى أفراده فاحفظ هذه الفائدة اهـ جمال الدين *

الله سبحانه فقد قال ﷺ ﴿ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ ﴾ وقد أثنى الله عزّ وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إلى غير ذلك ، وقال ﷺ ﴿ مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَادْعُوا لَهُ حتى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ﴾ ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عنده نفسه وعند الناس صنيعه ، فوظيفة المعطى الإستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والإستعظام ، وعلى كل عبد القيام بحقه ، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عزّ وجل فان من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل ، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا *

﴿ الثالثة ﴾ أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حله تورّع عنه فلا يأخذ ممن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه ، وكان ما يسلم له لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة فان فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به — وذلك إذا عجز عن الحلال *

﴿ الرابعة ﴾ أن يتوقى مواقع الريبة والإشتباه فى مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الإستحقاق ثم اذا تحققت حاجته فلا يأخذنّ مالاً كثيراً بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه الى سنة فهذا أقصى ما رُخّص فيه من حيث أنّ رسول الله ﷺ ادّخر لعياله قوت سنة ومن العلماء من ذهب الى أن للفقير أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى لأن هذا هو الغنى ، وقد قال عمر رضى الله عنه إذا أعطيتم فاغنوا حتى ذهب قوم الى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به الى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، ولما تبرع أبو طلحة رضى الله عنه ببستانه قال له ﷺ ﴿ إجعَلْهُ فى قَرَابَتِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ﴾ فأعطاه حسّان وأبا قتادة : فحائط من نخل لرجلين كثير مغْنٍ *

﴿ صدقة التطوّع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها ﴾

﴿ فضيلة الصدقة ﴾

من الأخبار قوله ﷺ ﴿ تَصدّقُوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ ﴾ وفى رواية ﴿ إتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ فإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيّبَةٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ كُلُّ امْرِئٍ فى ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يَقْضِىَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ عزَّ وَجَلَّ ﴾ وسئل ﷺ أىّ الصدقة أفضل: قال ﴿ أن تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تأْمَلُ الغِنَى وَتَخشَى الفَاقَةَ وَلا تُمهِلُ حتَّى اذا بَلَغَتِ الحُلْقومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا ولِفلاَنٍ كَذَا وقدْ كانَ لِفُلاَنٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِى تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ واللُّقْمَةُ واللُّقْمَتَانِ إِنَّما المِسْكِينُ المُتَعَفِّفُ إِقْرَؤُا إِنْ شِئْتُمْ لا يَسأَلونَ النَّاسَ إِلحافاً ﴾ وقال ﷺ ﴿ ما مِنْ مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِماً إلاّ كانَ فى حِفْظِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ما دَامَتْ عليهِ منهُ رُقْعَةٌ ﴾

ومن الآثار قول عُروة لقد تصدّقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفاً وأن درعها لمرقع : وكان عمرُ رضى الله عنه يقول اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على أولى الحاجة منا : وقال ابن أبى الجعد إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفاً .

﴿ وجوب فضل اخفاء الصدقة ﴾

قال الله تعالى ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدقاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وإِنْ تُخْفُوها وتؤْتُوها الفُقَرَاءَ فهُوَ خيرٌ لكُمْ ﴾ وفى الإخفاء خمسة معان

﴿ الأول ﴾ أنه أبقى للستر على الآخذ ، فان أخذه ظاهراً هتك ستر المروءة وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف ، والتصوّن المحبوب الذى يحسب لجهل أهله أغنياء من التعفف .

﴿الثاني﴾ أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فانهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى: قال أيوب السختياني انى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيرانى حسد: وقال آخر خشية أن يقول إخوانى من أين له هذا *

﴿الثالث﴾ اعانة المعطى على أسرار العمل فان فضل السرّ على الجهر فى الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف: دفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهراً فردّه ودفع اليه آخر شيأ فى السر فقبله فقيل له فى ذلك فقال إن هذا عمل بالأدب فى إخفاء معروفه فقبلتهُ وذلك أساء أدبه فى عمله فرددتهُ عليه. وردّ بعضهم مادفع اليه علانية، وقال له إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددتُ عليك شركك.

﴿الرابع﴾ أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه *

﴿الخامس﴾ الاحتراز عن شبهة الشركة لحديث ﴿مَنْ أُهْدِيَ لهُ هَدِيّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيها﴾ والأعمال بالنيات فينبغى للمخلص أن يكون مراقباً لنفسه حتى لا يتدلّى بحبل الغرور ولا ينخدع بمكر الشيطان: نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق *

كتاب أسرار الصوم (١)

أعظم الله على عباده المنّة بما دفع عنهم كيد الشيطان وخيب ظنه إذ جعل

(١) قال حكيم صيام الأبد لا يطاق وجعله شهراً من السنة فى نهاية الحسن وأما كون هذا الشهر رمضان فلا يسأل عنه عند العقل لأنه لو لم يكن هو

الصوم حصنا لأوليائه وجنة ، وقد جاء عنه ﷺ ﴿ الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فقد جاز ثواب الصوم قانون التقدير والحساب ، وناهيك فى معرفة فضله قوله ﷺ ﴿ والَّذى نَفْسِي بِيَدِهِ لَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ ، يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ إِنَّمَا يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لأَجْلِى فالصَّوْمُ لِي وأنا الذى أَجْزِى بِهِ ﴾ وهو موعود بلقاء الله تعالى فى جزاء صومه : قال ﷺ ﴿ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ وفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ﴾ وقيل فى قوله تعالى ﴿ فلاَ تَعْلَمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بما كانوا يَعملونَ ﴾ كان عملهم الصيام لأنه قال ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حسابٍ ﴾ فيفرغ للصائم جزاؤه افراغا ويجازف جزافا ، فلا يدخل تحت وهم و تقدير — وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم انما كان له ومُشرَّفا بالنسبة اليه وان كانت العبادات كلها له لمعنيين ﴿أحدهما﴾ أن الصوم كفٌّ وتركٌ وهو فى نفسه سرٌّ ليس فيه عمل يشاهد، وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فانه عمل فى الباطن بالصبر المجرد ﴿والثانى﴾ أنه قهرٌ لعدو الله عز وجل فانَّ وسيلةَ الشيطان الشهوات وانما تقوى بالأكل والشرب، وفى قمع عدو الله نصرة الله سبحانه. ونصر الله تعالى موقوف على النصرة له: قال تعالى ﴿ إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقدَامَكُم ﴾ فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة ـ واذا عظمت فضيلته الى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ٭

لكان غيره ولو سئل فى غيره هذا السؤال لأدى الى معاجزة للفكر يفزع لمثلها السوفسطائية: ثم ان شكر المحسن الأعظم يجب أن لا نغفل عنه ولا يذكرنا به شيء مثل العبادات المرتبة فى الأوقات المعلومة على وجه موافق لطاقة وتتيسر به انطاعه ٭

﴿ الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده ﴾

﴿ أما الواجبات الظاهرة فستة ﴾

﴿ الأول ﴾ مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فان غمّ فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ، ونعنى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد ، ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة ، ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وان لم يقض القاضى به *

﴿ الثانى ﴾ النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة ينوى فريضة صوم رمضان لله تعالى *

﴿ الثالث ﴾ الأمساك عن ايصال شيء الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ، ولا يفسد بالفصد والحجامة والإكتحال وإدخال الميل فى الأذن والإحليل وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق الى جوفه ـ أو ما يسبق الى جوفه فى المضمضة فلا يفطر إلا اذا بالغ فى المضمضة فيفطر لأنه مقصّر ، وهو الذى أردنا بقولنا عمداً ـ فأما ذكر الصوم فأردنا به الإحتراز عن الناس فانه لا يفطر *

﴿ الرابع ﴾ الإمساك عن الجماع فان جامع ناسياً لم يفطر ، وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر *

﴿ الخامس ﴾ الأمساك عن الإستمناء وهو إخراج المنىّ قصداً بجماع أو بغير جماع فان ذلك يفطر ـ ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكا لإربه فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى *

﴿ السادس ﴾ الأمساك عن إخراج القيء فالأستقاء يفسد الصومَ وان ذرعه القيء لم يفسد صومه ، واذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله الى فيه فانه يفطر عند ذلك *

﴿ وأما لوازم الإفطار فأربعة ﴾

﴿ القضاء : والكفارة : والفدية : وامساك بقية النهار تشبهاً بالصائمين ﴾

أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد ، أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التتابع فى قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا ، وأما الكفارة فلا تجب إلا بالجماع ، وما عداه لا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة فان أعسر فصوم شهرين متتابعين ، وان عجز فاطعام ستين مسكينا مدًّا مدًّا *

وأما إمساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصّر فيه ويجب الإمساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم فى السفر أفضل من الفطر إلا اذا لم يطق *

وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع اذا أفطرتا خوفا على ولديهما لكل يوم مدُّ حنطة لمسكين واحد — مع القضاء ، والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مدًّا *

﴿ سنن الصيام ﴾

تأخير السحور تعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، الجود فى شهر رمضان مدارسة القرآن ، الاعتكاف في العشر الأخير ، ولا يخرج المعتكف إلا لحاجة لانسان ، ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح و بالأكل والنوم وغسل ليد فى الطشت فكل ذلك قد يحتاج اليه

﴿ أنواع الصوم ودرجاته ﴾

اعلم أن الصوم ثلاث درجات . صوم العموم . وصوم الخصوص . وصوم خصوص الخصوص — أما صوم العموم فهو كفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق — وأما صوم خصوص فهو كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن

الآثام وأماصوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ؛

﴿ أسرار الصوم وشروطه الباطنة ﴾

هي ستة أمور ﴿ الأول ﴾ غض البصر وكفه عن الإتساع في النظر الى كل ما يذم ويكره والى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى ؛

﴿ الثاني ﴾ حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء

﴿ الثالث ﴾ كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ماحرم قوله حرم الإصغاء اليه ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾

﴿ الرابع ﴾ كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل وعن المكاره وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار فلا معنى للصوم عن الطعام الحلال ثم الافطار على الحرام : فمثال هذا الصائم مثال مَنْ يبني قصرا ويهدم مصرا : وقد قال ﷺ ﴿ كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ ﴾ فقيل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام ؛

﴿ الخامس ﴾ أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال — وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة اذا تدارك الصائم عند فطره مافاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الطعام فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، واذا دفعت المعدة من ضحوة نهار الى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت

رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ماعساها كانت راكدة لو تركت على عادتها فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان فى العود الى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل ، ومن جعل بين قلبه و بين صدره مخلاة من الطعام فهو عن الملكوت محجوب *

﴿ السادس ﴾ أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها

﴿ التطوّع بالصيام ﴾

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة ، و بعضها يوجد في كل شهر ، و بعضها في كل أسبوع . أما السنة فبعد أيام رمضان فيوم عرفة و يوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة : وكان ﷺ يكثر صوم شعبان: وفى الخبر ﴿ أَفْضَلُ الصِّيَامِ بعد شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ الله المحرَّم ﴾ لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته : وفى الخبر ﴿ إذا كانَ النِّصْفُ مِنْ شَعْبَانَ فَلاَ صَوْمَ حتَّى رَمضانَ ﴾ ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فان وصل شعبان برمضان فجائز ، ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة الا أن يوافق ورداً له : وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان *

وأما ما يتكرر فى الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره ، ووسطه الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر *

وأما فى الأسبوع فالاثنين والخميس والجمعة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات *

واذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الانسان معنى الصوم وأن سره تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل *

كتاب أسرار الحج

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنًّا، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا * والحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وتمام الإسلام وكمال الدين، وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها:

﴿ فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة ﴾
﴿ وشد الرحال إلى المساجد ﴾

قال الله عزّ وجل ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ قال قتادة لما أمر الله عز وجل ابراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج نادى «يا أيها الناس إن الله عزّ وجل بنى بيتا فحجوه» وقال ﷺ ﴿ مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ﴾ ويروى: أن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة، وعن الحسن البصريّ رضي الله عنه أن صدقة درهم فيها بمائة ألف ـ وكذلك كل حسنة بمائة ألف، ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات: ولما عاد رسول الله ﷺ إلى مكه استقبل الكعبه وقال ﴿ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحَبُّ بِلَادِ اللهِ تَعَالَى إِلَيَّ وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ ﴾

وما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ. فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة: قال ﷺ ﴿ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ وبعد مدينته الأرض المقدسة فن الصلاة فيها بخمسمائة

صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فان المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم ـ ولذلك قال ﷺ ﴿ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى ﴾ لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ، ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر .

﴿ شروط وجوب الحج ﴾

﴿ وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته ﴾

﴿ أما الشرائط ﴾ فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام ، فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ، ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ، ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعي وغيره ـ وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر: فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهى عمرة ، وجميع السنة وقت العمرة . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فالبلوغ والعقل والوقت *

﴿ وأما شرط لزومه ﴾ فالإستطاعة ، وهى نوعان ﴿ أحدهما ﴾ المباشرة وذلك له أسباب إمّا فى نفسه فبالصحة ، وإما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدوّ قاهر ، وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة ، وأن يملك ما يقضى به ديونه ، وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة ﴿ وأما النوع الثانى ﴾ فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه ، ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر ، فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ، وإن مات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وان لم يوص كسائر ديونه ومن مات ولم يحج مع اليسر فأمره شديد عند الله تعالى : قال عمر رضى الله عنه لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع

اليه سبيلا ، وعن سعيد بن جبير و إبراهيم النخعى و مجاهد وطاووس : لو علمتُ رجلا غنياً وجب عليـه الحجّ ثم مات قبل أن يحج ما صلّيتُ عليه : و بعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصلّ عليه *

وأما الأركان التى لا يصح الحج دونها فخمسة . الإحرام . والطواف . والسعى بعده . والوقوف بعرفة . والحلق على قول ــ وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف *

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة ﴿ الأول ﴾ الإفراد وذلك أن يقدم الحج وحده فاذا فرغ خرج الى الحل فأحرم واعتمر *

﴿ الثانى ﴾ القِرانُ وهو أن يجمع فيقول لبّيك بحجة وعمرة فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج وعلى القارن دم شاة إلا المكّى

﴿ الثالث ﴾ التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة و يتحلل بمكة و يتمتع بمحظورات الإحرام الى وقت الحج ثم يحرم بالحج ، و يلزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة . وسبعة اذا رجع الى الوطن *

وأما محظورات الحج والعمرة فستة ﴿ الأول ﴾ اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغى أن يلبس إزارا ورداء ونعلين ، ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل ولكن لا ينبغى أن يغطّى رأسه ، والمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فان إحرامها في وجهها ﴿ الثانى ﴾ الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً ، فان تطيب أو لبس فعليه دم شاة ﴿ الثالث ﴾ الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ﴿ الرابع ﴾ الجماع ، وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه ، وان كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه ﴿ الخامس ﴾ مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة فهو محرّم وفيه شاة . ويحرم النكاح والانكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد ﴿ السادس ﴾ قتل صيد البرّ أعنى ما يؤكل فان قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب فى الخلقة . وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه *

﴿ ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع ﴾

﴿ وهى عشر جمل ﴾

﴿ الجملة الأولى فى السير ﴾ من أوّل الخروج إلى الإحرام . وفيها مسائل :

﴿ الأولى فى المال ﴾ ينبغى أن يبدأ بالتوبة وردّ المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته الى وقت الرجوع : ويردّ ما عنده من الودائع ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزّاد والرّفق بالضعفاء والفقراء ويتصدق بشيء قبل خروجه فان اكترى فليظهر للمكارى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ليحصل رضاه فيه *

﴿ الثانية فى الرفيق ﴾ ينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه إن نسى ذكّره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قوّاه وإن ضاق صدره صبره ، ويودع رفقاءه المقيمين واخوانه وجيرانه فيودّعهم ويلتمس أدعيتهم والسنّة فى الوداع أن يقول أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك : وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر ﴿ فى حِفظِ اللهِ وكنَفِهِ زَوَّدَكَ اللهُ التقْوَى وغَفرَ ذَنْبكَ وَوَجَّهكَ الخيرَ أينما كنت ﴾ *

﴿ الثالثة فى الخروج من الدار ﴾ ينبغي اذا همّ بالخروج أن يصلّى ركعتين فاذا فرغ رفع يديه ودعا الله عن إخلاص وقال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب إحفظنا واياهم من كل آفة وعاهة : اللهم انا نسألك في مسيرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ماترضي: اللهم انا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد *

﴿ الرابعة اذا حصل على باب الدار ﴾ قال بسم الله توكلت على الله لاحول ولاقوة الا بالله رب أعوذ بك أن أضلّ أو أُضل أو أذل أو أُذل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليّ : اللهم انى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة بل

خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتّباع سنة نبيّك *

﴿ الخامسة فى الركوب ﴾ فاذا ركب قال : سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين ، وانّا الى ربنّا لمنقلبون *

﴿ الجملة الثانية فى آداب الإحرام ﴾

﴿ من الميقات الى دخول مكة ﴾

﴿ الأدب الأول ﴾ أن يغتسل وينوى به غسل الإحرام أعنى اذا انتهى الى الميقات الذى يحرم الناس منه : ويتم غسله بالتنظيف، ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة *

﴿ الثانى ﴾ أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الإحرام فيرتدوى يتزر بثوبين أبيضين ، ويتطيب فى ثيابه و بدنه

﴿ الثالث ﴾ أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو أفرادا كما أراد ويقول : لبّيك اللّهم لبيك لاشريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك بحجة حقّا تعبداً ورقّا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد *

﴿ الرابع ﴾ يستحب تجديد التلبية فى دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعاً بها صوته بحيث لايبح حلقه فانه لاينادى أصمّ ولا غائبا — كما ورد فى الخبر — وكان ﷺ إذا أعجبه شىء قال ﴿ لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ ﴾ *

﴿ الجملة الثالثة فى آداب دخول مكة الى الطواف ﴾

يستحب أن يغتسل بذى طوى لدخول مكة ، واذ وقع بصره على البيت يقول لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام

تباركت ياذا الجلال والإكرام : اللهم إنّ هذا بيتك عظّمته وكرّمته وشرّفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفاوتكريما وزده مهابة وزد مَنْ حجّه برًّا وكرامة : اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك وأعذنى من الشيطان الرجيم : ثم لايعرج على شيء دون الطواف — وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلّى معهم ثم يطوف

﴿ الجملة الرابعة فى الطواف ﴾

فاذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة

﴿ الأول ﴾ أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمطاف وستر العورة ، فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخى طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره ، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية المروية *

﴿ الثانى ﴾ اذا فرغ من الإضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود ، وليتنحّ عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمرّ بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه ، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فانه أفضل .

﴿ الثالث ﴾ أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف بسم الله والله أكبر : اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنّة نبيك محمد ﷺ ويطوف

﴿ الرابع ﴾ أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى في الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة ، ومعنى الرمل الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا ، وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد ، والمقصود منه ومن الإضطباع اظهار الشطارة والجلادة والقوة — هكذا كان القصد أولا قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة ، والأفضل الرمل

مع الدنوّ من البيت فان لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل ، فليخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا : ثم ليقرب إلى البيت في المزدحم وليمش أربعا ، وان أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب ، وان منعه الزحمة أشار باليد وقبّل وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان *

﴿ الخامس ﴾ إذا تمّ الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدّعوة وليلزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خدّه الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه وليقل: اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار : اللهم هذا مقام العائذ بك من النار ، وليدع بحوائجه الخاصة ويستغفر من ذنوبه *

﴿ السادس ﴾ إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلّى خلف المقام ركعتين وهما ركعتا الطواف ، وليدع بعد ركعتى الطواف وليقل : اللّهم يسّر لى اليسرى وجنبنى العسرى واغفر لى فى الأخرى والأولى .

﴿ الجملة الخامسة فى السعى ﴾

فاذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا فاذا انتهى الى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجا فى حضيض الجبل ثم يسعى بينه وبين المروة سبع مرات ــ والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف *

﴿ الجملة السادسة فى الوقوف وماقبله ﴾

الحاج اذا انتهى يوم عرفة الى عرفات فلا يتفرّغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف ، واذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً الى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج الى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منها الى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال اذ وقت الوقوف من الزوال الى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر : فينبغى أن يخرج الى منى ملبيا ويمكث هذه الليلة

بمنى فاذا أصبح يوم عرفة صلّى الصبح فاذا طلعت الشمس على ثبير « جبل » سار الى عرفات ، وليغتسل للوقوف ويجمع بين الظهر والعصر بأذان واقامتين وقصر الصلاة : وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عزّ وجل والدعاء والتوبة : ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء : ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبي تارة ويكبّ على الدعاء أخرى : وليدع بما بداله : وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات : وليلحّ فى الدعاء : وليعظم المسئلة فان الله لا يتعاظمه شيء *

﴿ الجملة السابعة فى بقية أعمال الحج ﴾

إذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار : فاذا بلغ المزدلفة جمع بين المغرب والعشاء قاصراً لها بأذان وأقامتين ثم يمكث تلك الليلة بمزدلفة . ويتزود الحصا منها ففيها أحجار رخوة فيأخذ سبعين حصاة فانها بقدر الحاجة ثم ليغلس بصلاة الصبح وليأخذ فى المسير حتى اذا انتهى الى المشعر الحرام — وهو آخر المزدلفة — فيقف ويدعو الى الأسفار — ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهى الى موضع يقال له وادى محسّر فيستحب له ان يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادى — وإن كان راجلا أسرع فى المشي : ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبّي تارة ويكبر أخرى فينتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهى الى جمرة العقبة ، ويرمى بعد طلوع الشمس سبع حصيات رافعا يده مستقبلا القبلة أو الجمرة قائلا مع كل حصاة — الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك : ثم ليذبح الهَدْىَ ان كان معه — والأولى أن يذبح بنفسه وليقل — بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك واليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك ابراهيم — والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة والضأن أفضل من المعز والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء — وليأكل منه إن كان من هدى

التطوع ، ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء (١) والعجفاء (٢) ثم ليحلق بعد ذلك .
ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحلّ له كل المحظورات
إلا النساء والصيد . ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه ـ وهذا الطواف طواف
ركن في الحج ويُسمى طواف الزيارة : وأول وقته نصف الليل من ليلة النحر . وأفضل
وقته يوم النحر : ولا تحل له النساء إلى أن يطوف فاذا طاف تمّ التحلل وحل الجماع
وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى . وهي واجبات
بعد زوال الإحرام على سبيل الإتباع للحج *

وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى ، والحلق : والطواف الذى هو ركن ، ومهما أتى باثنين
من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين . ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه
الثلاث مع الذبح . ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف *

ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى .
فاذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجمرة الأولى
ورمى اليها بسبع حصيات . فاذا تعداها وقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلّل
وكبّر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح : ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى
كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى : ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمى سبعاً . ويرجع
إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى ويصبح فإذا صلّى الظهر فى اليوم الثانى من أيام
التشريق رمى فى هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله ـ ثم هو مخير
بين المقام بمنى وبين العودة إلى مكة ـ فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا
شيء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى يوم
النفر الثانى إحدى وعشرين حجراً كما سبق . وفى ترك المبيت والرمى إراقة دم
وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لايبيت إلا بمنى . ولا يتركن حضور
الفرائض مع الإمام فى مسجد الخيف فإن فضله عظيم *

---

(١) أى المقطوعة الأذن (٢) المهزولة

﴿ الجملة الثامنة في صفة العُمرة ومابعدها إلى طواف الوداع ﴾

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج — ويحرم بالعمرة من ميقاتها وينوى العمرة ويلبي ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء : ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام فاذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعاً وسعى سبعاً كما وصفنا فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته — والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف . وليكثر شرب ماء زمزم وليرتو منه حتى يتضلع *

﴿ الجملة التاسعة في طواف الوداع ﴾

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من اتمام الحج والعمرة فلينجز أولا أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم : ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع قائلا : اللهم أصبحني العافية في بدني والعصمة في ديني . وأحسن منقلبي ، وارزقني طاعتك أبدا ما أبقيتني ، واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير *

﴿ الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها ﴾

من قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طريقه كثيراً ، وليغتسل قبل الدخول ، وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه ، فاذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظما ويقصد المسجد ويصلي فيه بجنب المنبر ركعتين : ثم يأتي قبرَ النبي ﷺ فيقف عند وجهه ، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله فان المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود بل لوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول : السلام عليك يا رسولَ

الله : السلام عليك يا نبيّ الله : السلام عليك يا أمين الله : السلام عليك يا حبيبَ الله
السلام عليك يا صفوة الله : السلام عليك يا أبا القاسم : السلام عليك يا سيد المرسلين
السلام عليك يا خاتمَ النبيين : السلام عليك يا رسولَ ربّ العالمين : السلام عليك
يا قائدَ الخير : السلام عليك يا فاتح البر : السلام عليك يا نبيّ الرحمة : السلام عليك يا هادي
الأمة : السلام عليك وعلى أهل بيتك وأصحابك الطيبين ، جزاك الله عنا أفضل
ماجزى نبياً عن قومه ورسولا عن أمته وصلّى عليك أفضل وأكمل ماصلّى على
أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصّرنا بك من العماية وهدانا بك
من الجهالة: أشهد أنك بلّغت الرسالةَ وأدّيت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت
عدوّك وهديت أمتك وعبدتَ ربّك حتى أتاك اليقين فصلّى الله عليك وعلى
أهل بيتك الطيبين وسلّم وشرّف وكرّم وعظم : ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على
أبي بكر الصديق رضي الله عنه : ثم يتأخر قدر ذراع أيضاً ويسلم على الفاروق عمر رضي
الله عنه ، ويقول السلام عليكما ياوزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين
له على القيام بالدين مادام حياً والقائمين فى أمته بعده بأمور الدين تتبعان فى ذلك
آثاره، وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ماجزى وزيري نبيّ عن دينه، ثم يأتى الروضة
فيصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء مااستطاع ،ويستحب له أن يأتى أحداً ويزور
قبور الشهداء، وأن يأتى البقيع ويزور خياره ،وأن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى
فيه ،وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم، ثم إذا عزم على الخروج
من المدينة فيستحب أن يأتى القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة ويسأل الله تعالى
أن يرزقه العودة اليه ثم يصلّى ركعتين في الروضة فاذا خرج فليخرج رجله
اليسرى ثم اليمنى وليتصدّق على جيران رسول الله ﷺ بما قدر عليه

﴿سنن الرجوع من السفر﴾

يكبّر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: لا إله إلا الله
وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون
عابدون ساجدون لربنا حامدون ، فاذا أشرف على مدينته يحرك الدابة

ويرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة : ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلا ، واذا دخل البلد فليقصد المسجد أوّلا وليصلّ ركعتين ، واذا استقر فى منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة حرمه وقبر نبيه ﷺ فيكفر تلك النعمة بأن يعود الى الغفلة واللهو والخوض فى المعاصي فما ذلك علامة الحجّ المبرور بل علامته أن يعود راغبا فى الآخرة متأهبا للقاء ربّ البيت بعد لقاء البيت *

﴿ الباب الثالث فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة ﴾

﴿ دقائق الآداب ـ وهى سبعة ﴾

﴿ الأوّل ﴾ أن تكون النفقة حلالا والهمّ مجردا لله تعالى وتعظيم شعائره ومَنْ حجّ عن غيره فينبغي أنْ يكون قصده زيارة بيت الله تعالى ومعاونة أخيه المسلم باسقاط الفرض عنه لا أن يتخذذلك مكسبه ومتجره ليتوصل بالدين الى الدنيا فيطلب الدنيا بعمل الآخرة بل ليتوصل بالدنيا الى الدين أى التمكن من الحج والزيارة فيه *

﴿ الثانى ﴾ التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على الاقتصاد ، و بذل الزاد فى طريق الحج نفقة في سبيل الله عزّ وجل * قال ابن عمر مِنْ كَرَمِ الرجل طيبُ زاده في سفره *

﴿ الثالث ﴾ ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن ﴿ والرفث ﴾ اسم جامع لكل لغو وفحش من الكلام ، و يدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته فان ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى الى المحظور محظور ﴿ والفسق ﴾ اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عزّ وجل ﴿ والجدال ﴾ هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويناقض حسن الخلق ، فلا ينبغى أن يكون كثير الإعتراض على رفيقه وجمّاله وعلى غيرهم من أصحابه بل يلين جانبه و يخفض جناحه للسائرين الى بيت الله عزّ وجل ، و يلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق كفّ الأذى بل احتمال الأذى *

﴿ الرابع ﴾ أن يجتنب ذى المترفين المتكبرين فلا يميل الى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب في ديوان المتكبرين ويخرج عن حزب الصالحين : وفى الحديث ﴿ إنما الحاجُ الشَّعِثُ التَّفِثُ ﴾ يقول الله تعالى ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ والتفث الشعث والإغبرار ، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار *

﴿ الخامس ﴾ أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق ولا يقف عليها الوقوف الطويل ، وينزل أحياناً عنها إحسانا اليها *

﴿ السادس ﴾ أن يتقرب باراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه وليأكل منه إن كان تطوعا ، وليس المقصود اللحم انما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عزّ وجل ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لحومُها ولا دِماؤُها ولكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ﴾

﴿ السابع ﴾ أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهَدْى وبما أصابه من خسران ومصيبة فى مال أو بدن ان أصابه ذلك . فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شئ عند الله عز وجل : ويقال من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصى ، وأن يتبدّل بإخوانه البطالين اخوانا صالحين وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة *

﴿ طريق الإعتبار بأعمال الحجّ الباطنة ﴾
﴿ والتذكر لأسرارها ومعانيها ﴾

فى كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكّر وعبرة للمعتبر إذا انفتح بابها انكشف لكل خارج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وغزارة فهمه ، وقد شرّفَ الله البيتَ العتيق بالإضافة إلى نفسه ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فجّ عميق ، ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت خضوعا لجلاله ـ مع الإعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ـ ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم وأتم فى إذعانهم

وانقيادهم ، وفى الإحرام والتلبية اجابة نداء الله عزّ وجل ، وفي دخول مكة تذكر الانتهاء إلى حرم الله فليخش أن لا يكون أهلا للقرب وليرج الرحمة ، وفى مشاهدة البيت إحضار عظمة البيت فى القلب وتقدير مشاهدته لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وفى الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين الحافّين حول العرش الطائفين حوله وما القصد طواف الجسم بل طواف القلب بذكر الرب ، وفى التعلق بأستار الكعبة والإلتصاق بالملتزم طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة والإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب اليه المتضرّع اليه فى عفوه عنه المُظْهِر له أنه لا ملجأ له منه إلا اليه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو عنه ، وفى السعى بين الصفا والمروة مضاهاة تردد العبد بفناء الملك جائيا وذاهبا مرّة بعد أخرى إظهاراً للخلوص فى الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالذى دخل على الملك وخرج وهو لا يدرى ما الذى يقضي به الملك فى حقه من قبول أو ردّ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم فى الثانية إن لم يرحم فى الأولى ، وفى الوقوف بعرفة ورؤية ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات باختلاف اللغات تذكّر اجتماع الأمم في عرصات القيامة ، وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول ، وفى تذكر ذلك الزام القلب الضراعةَ والابتهال إلى الله عز وجل ، ورجاء الحشر فى زمرة الفائزين المرحومين وتحقيق الرجاء بالإجابة فالموقف شريف ، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب النقية ولا ينفك الموقف عن طبقات من الصالحين وأرباب القلوب فاذا اجتمعت هممهم وتجرّدت للضراعة وابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت اليه أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم ، وفي رمى الجمار انقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وقصد رمى وجه الشيطان وقصم ظهره وفي زيارة المدينة ومشاهدتها تذكّر أنها البلدة التى اختارها الله عزّ وجل لنبيه ﷺ وجعل اليها هجرته وأنها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسننه وجاهد

عدوّه وأظهر بها دينه الى ان توفاه الله عزّ وجل ، وانها العرصة التى اختارها الله سبحانه لنبيه ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة ، وأن فرائض الله سبحانه أول ماأقيمت في تلك العرصة ، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً ﷺ وشرف وكرم ٭

كتاب آداب تلاوة القرآن

قد امتن الله على عباده بنبيه المرسل ، وكتابه المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى اتسع على أهل الإفتكار طريق الإعتبار بما فيه من القصص والأخبار ، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم ، بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور ، وبه النجاة من الغرور ، وفيه شفاء لما في الصدور ، مَنْ تمسك به فقد هُدِى ، ومن عمل به فقد فاز : قال تعالى ﴿ إنا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظُون ﴾ ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه ، والمحافظة على مافيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة ، وذلك ما لابدّ من بيانه وتفصيله ـ

﴿ فضل القرآن وأهله وذم المقصّرين فى تلاوته ﴾

قال ﷺ ﴿ من قرأ القرآنَ ثمّ رأى أنّ أحداً أوتِىَ أفضلَ ممّا أوتِىَ فقدِ استصغرَ ما عظّمه اللهُ تعالى ﴾ وقال ﷺ ﴿ أفضلُ عِبادةِ أمّتى تلاوةُ القرآنِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ خيرُكم مَن تعلّمَ القرآنَ وعلّمَهُ ﴾ وقال بن مسعود : إذا أردتم لعلم فانثروا القرآن فان فيه علم الأولين و لآخرين ، وقال عمرو بن العاص : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لايوحى اليه ـ

وقد جاء فى ذم تلاوة الغافلين قوله ﷺ ﴿ ما آمَنَ بالقرآنِ مَنِ استحَلَّ محارِمَهُ ﴾ وقوله ﷺ ﴿ اقرَأِ القرآنَ ما نهَاكَ فإنْ لمْ ينهَكَ فَلستَ تقرَؤُهُ ﴾

وقال أنس ﴿ رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآن يلعنهُ ﴾ وقال ابن مسعود ﴿ أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا ان أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته الى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به ﴾ : وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لايعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو ظالم نفسه ﴿ ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم ٭

﴿ ظاهر آداب التلاوة ﴾

﴿ الأدب الأول فى حال القارئ ﴾ وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولامتكئ ولاجالساً على هيئة التكبر ، فان قرأ على غير وضوء أو كان مضطجعاً فى الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك : قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فأثنى على الكل ولكن قدّم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً ٭

﴿ الثانى في مقدار القراءة ﴾ وللقرّاء عادات مختلفة في الإستكثار والإختصار والمأثور عن عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبيّ بن كعب رضى الله عنهم انهم كانوا يختمون القرآن فى كل جمعة يقسمونه سبعة أحزاب ٭

﴿ الثالث الترتيل ﴾ هو المستحب فى هيئة القرآن لأنّا سنبيّن أن المقصود من القراءة التفكر ، والترتيل معين عليه ـ ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فاذا هى تنعت قراءته مفسرة حرفاً حرفاً : قال ابن عبّاس رضى الله عنهما لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحبّ الىّ من أن أقرأ القرآن كلّه هدرمة ، وجلىّ أن الترتيل والتؤدة أقرب الى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً فى القلب من الهدرمة والاستعجال ٭

﴿ الرابع البكاء ﴾ وهو مستحب مع القراءة ومنشؤه الحزن وذلك أن يتأمل مافيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لامحالة ويبكي ٭

﴿ الخامس ﴾ أن يراعي حق الآيات فاذا مرَّ بآية سجدة سجد ـ وكذلك اذا سمع من غيره سجدة سجد اذا سجد التالي ، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة : وقد قيل في كمالها إنه يكبّر رافعا يديه لتحريمه ثم يكبر للهويّ للسجود ثم يكبر للإرتفاع ثم يسلّم ٭

﴿ السادس ﴾ أن يقول في مبتدأ قراءته أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وفي اثناء القراءة إذا مرَّ بآية تسبيح سبَّح وكبَّر :واذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مرَّ بمرجوّ سأل أو بمخوف استعاذ يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه ٭

﴿ السابع ﴾ الأسرار بالقراءة أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فان لم يخف ولم يكن في الجهر مايشوش على مصلّ فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ويزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل ٭

﴿ الثامن ﴾ تحسين القراءة وترتيبها من غير تمطيط مفرط يغيّر النظم فذلك سنة : وفي الحديث ﴿ زَيِّنُوا القرآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ﴾ وفي آخر ﴿ ليس منَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقرآنِ ﴾ فقيل أراد به الإستغناء ، وقيل أراد به الترنّم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة ، واستمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى فقال: ﴿ لَقد أُوتِيَ هذا مِنْ مزامير آلِ داودَ ﴾ ويُروى أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن

﴿ أعمال الباطن في التلاوة — وهي سبعة ﴾

﴿ الأول ﴾ فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في إيصال كلامه إلى أفهام خلقه ٭

﴿ الثاني ﴾ التعظيم للمتكلم فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن

يحضر فى قلبه عظمةَ المتكلم ويعلم أن مايقرؤه ليس من كلام البشر ، ولن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فاذا حضر بباله العرش والكرسىّ والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، إن أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله ، فبالتفكر فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام *

﴿ الثالث ﴾ حضور القلب وترك حديث النفس والتجرّد له عند قراءته وصرف الهمّ اليه عن غيره : كان بعض السلف إذا قرأ السورة لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولّد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذى يتلوه ويستبشر به ويستأنس لا يغفل عنه ، وفى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره .

﴿ الرابع ﴾ التدبر وهو وراء حضور القلب فانه قد لا يتفكر فى غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القرآن التدّبر ـ ولذلك سنّ فيه الترتيل لأن الترتيل فى الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن قال علىّ رضى الله عنه « لاخير في عبادة لا فقه فيها ولا فى قراءة لاتدبر فيها » واذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام : وروى أن النبى ﷺ قام ليلة بآية يرددها *

﴿ الخامس ﴾ التفهم وهو أن يستوضح عن كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزّ وجل وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء وأحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره . وذكر الجنة والنار أما صفات الله عزّ وجلّ فكقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها : وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالى منه صفات الله

عزّ وجلّ إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته ، فينبغي أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل : فمن عرف الحق رآه فى كل شئ — ولهذا ينبغي إذا قرأ التالى قوله عزّ وجل ﴿ أفرأيتم ما تحرثون. أفرأيتم ماتمنون . أفرأيتم الماء الّذى تشربون . أفرأيتم النّارَ الّتى تورون ﴾فلا يقصر نظره على الماء و النار والحرث والمنىّ بل يتأمل في المنىّ وهو نطفة متشابهة الأجزاء: ثم ينظر فى كيفية إنقسامها الى اللحم و العظم و العروق والعصب و كيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس و اليد و الرجل والكبد والقلب وغيرها : ثم الى ماظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع و البصر والعقل و غيرها : ثم الى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب و الشهوة و الكبر و الجهل و التكذيب و المجادلة كماقال تعالى ﴿ أوَ لمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فاذا هوَ خصيمٌ مُبين ﴾ فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها الى أعجب العجائب و هو الصنعة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر الى الصنعة ويرى الصانع — وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام فاذا سمع منها أنهم كُذّبوا وضُربوا وقُتل بعضهم ثم سمع نصرتهم في آخر الأمر فهم قدرةَ الله عزّ وجل و إرادته لنصرة الحق ، وأما أحوال المكذّبين كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الإعتبار في نفسه *

﴿ السادس ﴾ التخلىّ عن موانع الفهم فان أكثرالناس مُنعوا عن فهم القرآن لأسباب وحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن ، ومن حجب الفهم أن يكون الهم منصرفا الى تحقيق الحروف باخراجها عن مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وُكّل بالقرّاء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عزّ وجل ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل اليهم أنه لم يخرج من مخرجه — فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعانى ، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس *

﴿السابع التخصيص﴾ وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهىّ و المأمور وان سمع وعداً أو وعيداً فكذلك وان سمع قصص الأوّلين والأنبياء وعلم أن السمر غير مقصود وانما المقصود أن تعتبر به وتأخذ من بضاعته ماتحتاج اليه ، فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبىّ ﷺ وأمته ـ ولذلك قال تعالى ﴿ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى . وكيف لايقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ـ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب : فقال تعالى ﴿واذكُرُوا نعمَةَ اللهِ عليكمْ وماأُنزِلَ عليكم منَ الكِتابِ والحكمَةِ يَعِظُكم بِهِ﴾ واذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد كما قال تعالى ﴿لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال محمد القرظى : من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله : واذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه ـ ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قِبَلِ ربّنا عزّ وجل بعهوده نتدبرها فى الصلوات وننفذها فى الطاعات *

﴿الثامن التأثر﴾ وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فان التضييق غالب على آيات القرآن ، فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عزّ وجل ﴿وإِنِّى لغفَّارٌ﴾ ثم اتبع ذلك بأربعة شروط ﴿لِمن تابَ وآمَنَ وعمِلَ صالحاً ثُمَّ اهتَدَى﴾ وقوله تعالى ﴿والعَصرِ إنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبرِ﴾ ذكر أربعة شروط ، وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً : فقال تعالى ﴿إنَّ رحْمَةَ اللهِ قريبٌ مِنَ المحسنين﴾ فالإحسان يجمع الكلّ ـ وهكذا من

يتصفّح القرآن من أوله إلى آخره : ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن ، والا كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه فى قوله تعالى ﴿ ألا لَعنَةُ الله على الظَّالِمينَ ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ كَبُرَ مَقتاً عِندَ الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وفى قوله ﴿ فأعرِضْ عَمّنْ تولّى عَن ذِكْرِنا ولم يُرِدْ إلاّ الحياةَ الدُّنيا ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ ومَن لم يَتُبْ فأُولئكَ هُمُ الظّالمونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات : فالقرآن يراد للعمل به — وأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى : وتلاوة القرآن حق تلاوته — هو أن يشترك فيه اللسانُ والعقل والقلب فحظّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل — وحظ العقل تفسير المعانى — وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتّل والعقل يترجم والقلب يتعظ *

كتاب الأذكار والدعوات

﴿ فضيلة الذكر ﴾

من الآيات قوله سبحانه وتعالى ﴿ فاذْكُرُونى أذكُرْكُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ اذْكُرُوا اللهَ ذِكراً كثيراً ﴾ وقال تعالى ﴿ الّذينَ يذكُرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلى جُنوبِهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فاذا قَضيتُمُ الصَّلاةَ فاذكُرُوا اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبِكم ﴾ وقال ابن عباس أى بالليل والنهار فى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسرّ والعلانية : وقال تعالى ﴿ واذكُرْ ربّكَ فى نفسِكَ تضرُّعاً وخيفةً ودونَ الجهرِ منَ القوْلِ بالغدُوّ والآصالِ ولا تكُنْ منَ الغافِلِين ﴾ وقال تعالى فى ذم المنافقين ﴿ ولا يَذكُرُون اللهَ إلاّ قليلا ﴾

ومن الأخبار قوله ﷺ « يقولُ اللهُ عزّ وجلّ أنا مَعَ عبدِى ما ذكرَنى وتحرّكتْ بى شفتاهُ » وقال ﷺ « مَنْ أحبّ أنْ يرتَعَ فى رياضِ الجنّةِ فليكثرْ ذِكرَ اللهِ عزّ وجلّ » وسئل ﷺ أىّ الأعمالِ أفضل فقال « أنْ تموتَ

وَلِسانُكَ رَطْبٌ بذِكر الله عزّ وجلّ ﴾ وقال ﷺ قال اللهُ تبارَكَ وتعالى ﴿ إذا ذكَرَني عَبْدِي في نفسه ذكرتُهُ في نَفسي وإذا ذكَرَني في ملأٍ ذكرتُهُ في مَلأٍ خيرٍ من مَلئِه وإذا تقرّبَ منّي شبراً تقرّبْتُ منه ذراعاً ﴾ الحديث ٭

ومن الآثار قول الحسن : الذكر ذكران ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عزّ وجل ما أحسنه وأعظم أجره — وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عزّ وجل ٭

﴿ فضيلة مجالس الذكر ﴾

قال رسول الله ﷺ ﴿ ما جَلسَ قومٌ مجلِساً يذكُرُونَ اللهَ عزّ وجلّ إلاّ حفَّتْ بهمْ الملائكةُ وغشِيَتهُمُ الرّحمةُ وذكَرَهُمُ اللهُ تعالى فيمنْ عندَهُ ﴾

﴿ فضيلة التهليل ﴾

قال ﷺ ﴿ أفضَلُ ما قلتُ أنا والنبيُّونَ مِنْ قبْلي لا إلهَ إلا اللهُ وَحدَهُ لاشريكَ لهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ منْ قالَ لا إله إلاّ اللهُ وَحدَهُ لاشريكَ لهُ له المُلكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلّ شيءٍ قديرٌ كلَّ يومٍ مائة مرّةٍ كانت لهُ عِدلَ عَشْرِ رِقابٍ وكُتبتْ لهُ مائةُ حسنةٍ ومُحيَتْ عنهُ مائةُ سيئةٍ ﴾ الحديث ٭

﴿ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار ﴾

قال صلّى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سبَّحَ دُبُرَ كلّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ وحَمِدَ ثلاثاً وثلاثينَ وكَبّرَ ثلاثاً وثلاثينَ وخَتَمَ المائةَ بلا إلهَ إلاّ اللهُ وحده لاشريكَ لهَ لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كلّ شيءٍ قديرٌ غُفرَتْ ذُنوبُهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ مَنْ قالَ سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في اليومِ مائةَ مرَّة حُطَّتْ خطاياهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ أحبُّ الكلامِ إلى الله تعالى أربعٌ : سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إله إلاّ اللهُ واللهُ أكبر لا يضرّكَ بأيّهنّ بدأت ﴾ وقال ﷺ ﴿ كلِمتانِ خفيفتانِ على اللّسانِ ثقيلَتانِ في الميزانِ حبيبتانِ إلى الرّحمنِ سبحانَ اللهِ وبحمده سبحانَ اللهِ العظيم ﴾

﴿سرّ فضيلة الذكر﴾

إن قلتَ مابال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقة فيها — فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة ، والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب — فأما الذكر باللسان والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدّم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية، وللذكر أول وآخر : فأوله يوجب الأنس والحب : وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب *

﴿فضيلة الدّعاء﴾

قال الله تعالى ﴿ وإذا سألَكَ عِبادى عنّى فإِنّى قريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدّاعِ إذا دعانِى فليستَجيبُوالى ﴾ وقال تعالى ﴿ أُدعُوا ربَّكُمْ تضرّعاً وخُفية انّهُ لا يُحِبُّ المُعتدينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال ربُّكُمُ ادْعونى أَسْتَجِبْ لكُمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحمنَ أيّاما تَدْعُوا فلهُ الأسماءُ الحُسنى ﴾ وقال ﷺ ﴿ الدُّعاء مُخُّ العبادَةِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ سَلُوا اللهَ تعالى منْ فَضْلِهِ فإِنهُ تعالى يحبُّ أنْ يُسألَ وأفضلُ العبادةِ انتظارُ الفرَجِ ﴾

﴿ آداب الدّعاء وهى عشرة ﴾

﴿ الأول ﴾ أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ووقت السَّحَرِ من ساعات الليل قال تعالى ﴿وبالأسحار هُمْ يَستغفِرون﴾ .

﴿ الثاني ﴾ أن يغتنم الأحوال الشريفة كحال زحف الصفوف في سبيل

الله تعالى وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة وخلف الصلوات و بين الأذان والإقامة وحالة السجود ، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السَّحَرِ وقت صفاء القلب و إخلاصه وفراغه من المشوشات . و يوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمّ وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عزّ وجل .

﴿ الثالث ﴾ أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يُرى بياضُ إبطيه ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء : قال عمر رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ اذا مدّ يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه ، وقال ابن عباس : كان ﷺ اذا دعا ضمّ كفّيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه ، فهذه هيآت اليد ، ولا يرفع بصره الى السماء *

﴿ الرابع ﴾ خفض الصوت بين المخافتة والجهر : قالت عائشة في قوله تعالى ﴿ ولا تَجهَرْ بِصلاتِكَ ولا تُخَافِتْ بِها ﴾ أى بدعائك : وقد أثنى تعالى على نبيه زكريّا عليه السلام حيث قال ﴿ إذْ نادَى رَبَّهُ نِداءً خفِيًّا ﴾ وقال تعالى ﴿ أدعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ *

﴿ الخامس ﴾ أن لا يتكلّف السجعَ في الدعاء : والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يعتدى فى دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته . فما كل أحد يحسن الدعاء *

﴿ السادس ﴾ التضرع والخشوع والرغبة والرهبة : قال تعالى ﴿ أُدعُوا رَبَّكُمْ تضَرُّعاً وخُفْيَةً ﴾ .

﴿ السابع ﴾ أن يجزمَ الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدّق رجاءه فيه قال ﷺ ﴿ لاَ يَقُلْ أحدُكم اذا دعا اللّهمَّ اغفِرْ لى إنْ شئْتَ اللّهمَّ ارحمنِي إنْ شئْتَ ليَعْزِم المسألةَ فانَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إذا دَعا أحدُكم فليُعظِمِ الرَّغبةَ فإنَّ اللهَ لا يتَعاظَمُهُ شىءٌ ﴾ وقال ﷺ ﴿ أُدعُوا اللهَ وأنتمْ موقِنونَ بالإجابةِ واعلموا أنَّ اللهَ عزّ وجلّ لا يستَجيبُ دعاءً منْ قلْبٍ غافلٍ ﴾ .

﴿ الثامن ﴾ أن يلحّ فى الدعاء ويكرّره ثلاثاً وأن لا يستبطئ الاجابة *

﴿ التاسع ﴾ أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى ﴿ ولا يبدأ بالسؤال ﴾ ثم يصلى على النبىّ ﷺ ويختم بها أيضاً *

﴿ العاشر ﴾ وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الإجابة ـ التوبة وردّ المظالم والإقبال على الله عزّ وجلّ بكنه الهمة ـ فذلك هو السبب القريب فى الإجابة *

﴿ فضيلة الصلاة على النبى ﷺ ﴾

قال الله تعالى ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبِيّ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا صَلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً ﴾ وقال ﷺ ﴿ مَنْ صلّى علَيَّ مِنْ أُمَّتِي كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حسنات ﴾ وقيل يارسول الله كيف نصلّى عليك فقال قولوا ﴿ اللهمَّ صلِّ على مُحمَّدٍ عبدِكَ وعلى آلِهِ وأزواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ كما صلَّيتَ على ابراهيمَ وآلِ ابراهيمَ وبارِكْ على محمّدٍ وأزْواجِهِ وذُرِّيته كما باركْتَ على ابراهيمَ وآلِ ابراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ ﴾ ورُوِى أنّ عمر رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله ﷺ يبكى ويقول : بأبى أنت وأمّى يارسولَ الله لقد بلغ من فضيلَتك عند ربّك أن جعل طاعتك طاعته : فقال عزّ وجلّ ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب : فقال تعالى ﴿ عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنْتَ لهمْ ﴾ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذّبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا : بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى أعطاه الله حجراً تتفجّر منه الأنهار ، فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلّى الله عليك : بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان أعطاه الله الريح غدوُّها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك : بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله احياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلّمتك وهى مشوية فقالت لك لا تأكلنى

فانى مسمومة : بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا في كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا القليل ، ولقد لبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ، ولعقت أصابعك تواضعا منك فصلى الله عليك وسلم *

﴿ فضيلة الإستغفار ﴾

قال الله عز وجل ﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ وقال تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ وقال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وقال تعالى ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وكان ﷺ يكثر أن يقول ﴿ سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم ﴾ وقال ﷺ ﴿ من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقال ﷺ ﴿ إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب اليه في اليوم سبعين مرة ﴾ وكان ﷺ يقول فى الإستغفار ﴿ اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت وماأسررت وماأعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير ﴾ وعن الفضيل رحمه الله : إستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين ° وعن رابعة العدوية رحمها الله : إستغفارنا يحتاج الى استغفار كثير *

وأما أوراد الصباح والمساء وخلف الصلوات وفى السحر فلنا فيها كتاب مستقل فليرجع اليه من أحب ذلك *

﴿ آداب النوم ﴾

﴿ الأول ﴾ الطهارة والسواك ﴿ الثانى ﴾ أن يعد طهوره وسواكه وينوى القيام

للعبادة عند التيقظ ﴿ الثالث ﴾ أن لايبيت من له وصية إلاّ ووصيته مكتوبة عند رأسه فانه لا يأمن القبض من النوم ﴿ الرابع ﴾ أن ينام تائبا من كل ذنب سليمَ القلب لجميع المسلمين لايحدّث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصية إن استيقظ ﴿ الخامس ﴾ أن يقتصد فى تمهيد الفرش الناعمة ﴿ السادس ﴾ أن لاينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلّف استجلابه إلا اذا قصد به الاستعانة على القيام فى آخر الليل ﴿ السابع ﴾ أن ينام مستقبل القبلة ﴿ الثامن ﴾ الدعاء عند النوم بما ورد ومنه قراءة الإخلاص والمعوّذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده وآية الكرسى والتسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك ﴿ التاسع ﴾ أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث وليتحقق أنه يتوفّى على ما هو الغالب عليه من حبّ الله وحبّ لقائه أو حبّ الدنيا ويحشر على مايتوفّى عليه ﴿ العاشر ﴾ الدعاء عند التنبه وليقل أوّلا : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور: ثم ليقرأ خواتم آل عمران ـ إنّ فى خلق السموات والأرض. الآيات : وليسبّح عشراً وليحمد كذلك وليكبّر كذلك وليهلّل كذلك ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان ﷺ اذا قام من الليل إفتتح صلاته قال ﴿ اللّهمَّ رَبَّ جِبرِيلَ وميكائيلَ وَإسرَافيلَ فاطر السّمٰوات والأرضِ عالمَ الغيْب والشّهادةِ أنت تَحكمُ بَينَ عِبادِكَ فيما كانوا فيهِ يَختلفُونَ إهْدِنى لِما اختُلِفَ فيهِ من الحقّ باذنِك انّكَ تَهدِى مَنْ تشاء الى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ ثم يفتتح الصلاة ويصلّى ركعتين خفيفتين ثم يصلّى مثنى مثنى ما تيسّر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلّى الوتر : وكان ربما جهر بالقراءة وربما أسرّ . وأكثر ما صح عنه في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة *

﴿ بيان أن الأوراد للمتجرد للعبادة ﴾

اعلم أن الأوراد والأذكار المروية والوظائف الليلية والنهارية انما تستحب للمتجرد للعبادة الذى لاشغل له غيرها أصلا بحيث لو ترك العبادة لجلس بطالا .

. وأما العالم الذى ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد فانه يحتاج الى المطالعة للكتب والى التصنيف والإفادة ويحتاج الى مدة لها لامحالة فان أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها ويدل على ذلك ماذكرناه فى فضيلة التعليم والتعلّم فى كتاب العلم وكيف لا يكون كذلك وفى العلم المواظبة على ذكر الله تعالى . وتأملُ ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهدايتهم الى طريق الآخرة ورُبّ مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا — وأما العامىّ والمتعلم فحضوره مجالس العلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد — وكذلك المحترف الذى يحتاج الى الكسب لعياله فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والإشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لاينسى ذكرَ الله تعالى في صناعته *

﴿ فضيلة قيام اللّيل ﴾

من الآيات قوله تعالى ﴿ تتجافَى جنوبُهُم عَنِ المَضاجِع يَدعُون ربّهم خوْفاً وطمعاً ومما رزَقناهم يُنفِقونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أمّنْ هو قانتٌ آناءَ الليل ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ والّذين يَبيتونَ لربّهمْ سُجّداً وقياماً ﴾ وقوله سبحانه ﴿ كانوا قليلاً من اللّيْل ما يَهْجَعونَ وبالأسحارِ هُم يَستغفِرُونَ وفى أموْالهم حَقٌّ معلومٌ للسَّائلِ والمحرُومِ ﴾ ومن الأخبار قوله ﷺ ﴿ ركعتان يَركعُهُما العبدُ فى جوْف اللّيْل خيرٌ له من الدُّنيا وما فيها ﴾ وقوله ﷺ ﴿ إنّ من اللّيْل ساعةً لا يُوافقُها عبد مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالى خيراً إلاّ أعطاهُ إيّاهُ ﴾ وقوله صلوات الله عليه ﴿ عليكُمْ بقيام الليل فانهُ دأبُ الصّالحين قبلكُمْ ﴾

﴿ الأسباب المسهلة لقيام اللّيل ﴾

منها أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيامُ

.ومنها أن لا يترك القيلولة بالنهار فانها سنة الإستعانة على قيام الليل ، ومنها أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه الى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان : ومنها وهو أشرف البواعث ـ الحبّ لله وقوة الإيمان بأنه فى قيامه لايتكلم بحرف الاّ وهو مناج به ربّه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه فاذا أحبّ الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام *

﴿ بيان لذة المناجاة عقلاً ونقلاً ﴾

لاينبغي أن تستبعد هذه اللذة اذ يشهد لها العقل والنقل ـ فأما العقل فليعتبر حال المحبّ لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله فإن قلت إن الجميل يتلذذ بالنظر اليه وأن الله تعالى لا يُرى فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه ، وكان يتنعم باظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوماً عنده فان قلت إنه ينتظر جوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت أيضاً لذة فى عرض أحواله عليه ورفع سريرته اليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذّذ به وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به في رجاء أنعامه ، والرجاء فى حق الله تعالى أصدق وما عند الله أبقى وأنفع مما عند غيره وكيف لايتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات ـ وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل : قال ماراعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته

بعد ، وقال علىّ بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر وقال الفضيل بن عياض إذا غربت الشمس فرحتُ بالظلام لخلوتى بربى و إذا طلعت حزنت لدخول الناس علىّ : وقال أبو سليمان أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا : وقال بعضهم ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة الاّ ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة ، وقال بعضهم لذة المناجاة ليست من الدنيا انما هى من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لايجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر مابقى من لذات الدنيا إلاّ ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة فى الجماعة - وقيل لبعضهم كيف الليل عليك فقال ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته اذا جاء وأغتم بفجره اذا طلع ماتم فرحى به قط(١)

﴿ طرق القسمة لأجزاء الليل ﴾

إحياء الليل له سبع مراتب ﴿الأولى﴾ احياء كل الليل وهو شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصارذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام الى النهار : اشتهر ذلك عن أربعين من التابعين. ﴿الثانية﴾ أن يقوم نصف الليل *

---

(١) ولتأييد هذا البحث الذى كان يتحدث به المؤلف فى دروسه العامة نذكر ماكان نقله المؤلف أيضا فى تأليف آخر عن الشمس ابن القيم الدمشقى في إغاثة اللهفان وصورته . قال ابن القيم حقيقة المرء قلبه وروحه ولاصلاح له الابتوحيد ربه وعبادته وخوفه ورجائه وفى ذلك أعظم لذة المرء وسعادته ونعيمه اذ ليس فى الكائنات شيء غير الله عز وجل يسكن القلب اليه ويطمئن به ويأنس به ويتنعم بالتوجه اليه فنفس الايمان به ومحبته وعبادته واجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما دلت عليه السنة والقرآن وشهدت به الفطرة لاكما يقوله من قل نصيبه من التحقيق ان عبادته وذكره

﴿الثالثة﴾ أن يقوم ثلث الليل من النصف الأخير ﴿الرابعة﴾ أن يقوم سدس الليل الأخير أو خمسه ﴿الخامسة﴾ أن لا يراعى التقدير فينام ويقوم فى أجزاء الليل مطلقا ﴿السادسة﴾ أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل القيام قبل الصبح وقت السحر ولايدركه الصبح نائما — وهذه هى الرتبة السابعة *

وأما قيام رسول الله ﷺ من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه يختلف ذلك في الليالى. ودلّ عليه قوله تعالى في الموضعين ﴿إنَّ ربَّك يَعلمُ أنك تقومُ أدنى من ثُلثَيِ اللّيل ونصفَهُ وثُلثُهُ﴾ فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصفه ونصف سدسه. فان كسر

تكليف ومشقه لمجرد الامتحان أو لأجل مجرد التعويض بالثواب أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الانسان وأفضل لذة الروح والجنان وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول وإن وقع ذلك ضمنا في بعضها لأسباب اقتضته لابد منها هى من لوازم هذه النشأة: فأوامره سبحانه وحقه الذى أوجبه على عباده وشرائعه لهم هى قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الأرواح وسرورها وبه سعادتها وفلاحها وكمالها فى معاشها ومعادها بل لاسرور لها ولا لذة فى الحقيقة الا بذلك كما قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال أبوسعيد الخدرى فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله وكذا قال غير واحد لايقال قد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله (لايكلف الله نفسا الاوسعها) لأن نقول انما جاء ذلك في جانب النفى ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط بل سماها روحا ونورا وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهدا ووصية ونحو هذا انتهى

قوله ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع . وإن نصب كان نصف الليل وثلثه : وقالت عائشة رضى الله عنها كان ﷺ يقوم اذا سمع الصارخ يعنى الديك ـ وهذا يكون السدس فما دونه *

كتاب آداب الأكل

﴿ والدعوة والضيافة ﴾

إن الله تعالى أحسن تدبير الكائنات ، فخلق الأرض والسموات وأنزل الماء الفرات من المعصرات ، فأخرج به الحبّ والنبات ، وقدّر الأرزاق والأقوات ، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات ، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات . فشكراً له على ممرّ الأوقات *

ولما كان مقصد ذوى الألباب لقاءَ الله تعالى فى دار الثواب ولا طريق الى الوصول للقائه الاّ بالعلم والعمل ولا يمكن المواظبة عليهما الاّ بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن الا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات فمن هذا الوجه قال بعض السلف : إن الأكل من الدين : وعليه نبه قوله تعالى ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً ﴾ وها نحن نرشد الى وظائف الدين فى الأكل فرائضها وسننها وآدابها *

﴿ بيان ما لابد للآكل من مراعاته — وهو ثلاثة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول في الآداب المتقدمة على الأكل — وهى خمسة ﴾

الأول أن يكون الطعام بعد كونه حلالا فى نفسه طيبا فى جهة مكسبه موافقاً للسنة [illegible] لم يكتسب بسبب مكروه فى الشرع ولا بحكم هوى

ومداهنة فى دين : وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال . وقدم النهى عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال : فقال تعالى . ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ الى قوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ فالأصل فى الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين ﴿ الثانى ﴾ غسل اليد لأنها لا تخلو عن لوث في تعاطى الأعمال فغسلها أقرب الى النظافة والنزاهة ﴿ الثالث ﴾ أن ينوى بأكله أن يتقوّى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل : ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد الى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد مالا بد من تقديمه على الأكل : ثم ينبغى أن يرفع اليد قبل الشبع ، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب ﴿ الرابع ﴾ أن يرضي بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ﴿ الخامس ﴾ أن يجتهد في تكثير الأيدى على الطعام ولو من أهله وولده فإن خير الطعام ما كثرت عليه الأيدى : وكان النبى ﷺ لا يأكل وحده *

﴿ القسم الثانى فى آدابه حالة الأكل ﴾

وهو أن يبدأ ببسم الله في أوّله ، وبالحمد لله فى آخره ، ويجهر به ليذكّر غيره ويأكل باليمنى ويصغّر اللقمة ويجوّد مضغها وما لم يبتلعها لا يمدّ اليد الى الأخرى . فإن ذلك عجلة فى الأكل ، وأن لا يذم مأكولا : كان ﷺ لا يعيب مأكولا كان اذا أعجبه أكله وإلاّ تركه ، وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فله أن يجيل يده فيها ولا يضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به ، ولا يمسح يده بالخبز ولا ، ينفخ فى الطعام الحارّ بل يصبر إلى أن يسهل أكله ، ولا يجمع بين التمر والنوى فى طبق ولا يجمع فى كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه . ثم يلقيها وكذا كل ما له عجم وثفل ، وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه فى القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله ، وأن لا يكثر الشرب فى أثناء الطعام الا اذا غصّ بلقمة أو صدق عطشه *

﴿ وأما الشرب ﴾ فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول ﴿بسم الله﴾ ويشربه مصًّا لا عبًّا ولا يشرب قائما ولا مضطجعا ، وينظر فى الكوز قبل الشرب ، ولا يتجشى ولا يتنفس فى الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية ، والكوز وكلّ ما يدار على القوم يدار يمنة : وقد شرب رسول الله ﷺ لبنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابىّ عن يمينه فناول الأعرابىّ وقال الأيمن فالأيمن ، ويشرب فى ثلاثة أنفاس يحمد الله فى أواخرها ويسمى الله في أوائلها *

﴿ القسم الثالث ما يستحبّ بعد الطعام ﴾

وهو أن يمسك قبل الشبع ثم يغسل يده ويتخلّل ويرمى المخرج بالخلال، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه : قال الله تعالى﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللهَ ﴾ فان أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللّهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته واجعلنا وإياه من الشاكرين ، وان أفطر عند قوم فليقل أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة ، وليكثر الإستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ، ويستحب عقيب الطعام أن يقول «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا ».

﴿ آداب الاجتماع على الأكل — وهى سبعة ﴾

﴿ الأول ﴾ أن لا يبتدىء بالطعام ومعه مَنْ يستحق التقديم بكبر سنّ أو زيدة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الإنتظار اذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له ﴿ الثانى ﴾ أن لا يسكتوا على الطعام ولكن يتكلّمون بالمعروف ﴿ الثالث ﴾ أن يرفق برفيقه فى القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقا لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركا بل ينبغى أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين في دفعة الا اذا فعلوا ذلك أو استأذنهم فإن قلّ أكل رفيقه نشّطه ورغّبه فى الأكل وقال له كل ولا يزيد فى قوله كل على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإضجار — فأما الحلف عليه

بالأكل فممنوع * قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه ﴿ الرابع ﴾ أن لايحوج رفيقه الى أن يقول له كل أو يتفقده في الأكل بل يحمل عن أخيه مؤنة ذلك . ولاينبغى أن يدع شيأ مما يشتهيه لأجل نظر الغير اليه فان ذلك تصنّع بل يجرى على المعتاد ولاينقص من عادته شيأفى الوحدة ولكن يعوّد نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لايحتاج الى التصنع عند الاجتماع * نعم لو قلّل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة الى ذلك فهو حسن، وان زاد فى الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فهو أحسن ﴿ الخامس ﴾ أن غسل اليد فى الطست لابأس به : قال أنس اذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولاتردها : روى أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصبّ الرشيد على يده فى الطست فلما فرغ قال ياأبا معاوية أتدرى من صب على يدك فقال لا . قال صبه أمير المؤمنين فقال ياأمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته فأجلّك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله وليصبّ صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه هكذا فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما في أول نزوله عليه، وقال لايروعك مارأيت منى فخدمة الضيف فرض ﴿ السادس ﴾ أن لاينظر الى أصحابه ولايراقب أكلهم فيستحيون بل يغضّ بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولايمسك قبل إخوانه اذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا الى أن يستوفوا فان امتنع لسبب فليعتذر اليهم دفعا للخجلة عنهم *

﴿ السابع ﴾ أن لايفعل مايستقذره غيره فلا ينفض يده في القصعة ولايقدم اليها رأسه عند وضع اللقمة فى فيه واذا أخرج شيأ من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة فى الخل ولا الخل فى الدسومة فقد يكرهه غيره، واللقمة التى قطعها بسنه لايغمس فى المرقة والخل، ولايتكلم بما يذكر من المستقذرات

﴿فضل تقديم الطعام الى الزائرين وآدابه﴾

تقديم الطعام الى الاخوان فيه فضل كثير: قال الحسن كل نفقة ينفقها الرجل يحاسب عليها الا نفقته على اخوانه فى الطعام فان الله أكرم من أن يسأله عن ذلك وقال علىّ رضى الله عنه لأن أجمع اخوانى على صاع من طعام أحب الىّ من أن أعتق رقبة: وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول من كرم المرء طيب زاده فى سفره وبذله لأصحابه، وكانوا رضى الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق.

﴿وأما آدابه﴾ فبعضها فى الدخول وبعضها فى تقديم الطعام ـ أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فان ذلك من المفاجأة، وقد نُهى عنه: قال الله تعالى ﴿لا تَدْخُلوا بُيوتَ النَّبِىّ إلاّ أنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ﴾ يعنى منتظرين حينه ونضجه ـ أما اذا كان جائعا فقصد بعض اخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به وفيه اعانة لأخيه على حيازة ثواب الاطعام وهى عادة السلف. فان دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقا بصداقته عالما بفرحه اذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه اذ المراد من الاذن الرضاء لاسيما فى الأطعمة وأمرها على السعة فرب رجل يصرّح بالاذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه. ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب، وقد قال تعالى ﴿أوْ صَديقِكُمْ﴾ قال الحسن الصديق من استروحتْ اليه النفسُ واطمأنَّ اليه القلب: كان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير اذن. فكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسرّ به ويقول هكذا كنا. ومتى قوم الى منزل سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثورى وجعل يقول ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا.

﴿وأما آداب التقديم﴾ فترك التكلف أولا وتقديم ما حضر: كان الفضيل

يقول انما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع اليه ، ومن التكلف أن يقدم جميع ماعنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم قال بعضهم دخلنا على جابر رضي الله عنه فقدم لنا خبزاً وخلا وقال : لولا انا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم *

﴿ الأدب الثاني ﴾ وهو للزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فان خيَّره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه فان علم أنه يسرّ باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الإقتراح . قال بعضهم الأكل على ثلاثة أنواع مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب *

﴿ الأدب الثالث ﴾ أن يشهّي المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل *

﴿ الأدب الرابع ﴾ أن لا يقول له هل أقدم لك طعاما بل ينبغي أن يقدم ان كان فان أكل والا فيرفعه

﴿ مسائل ﴾

﴿ الأولى ﴾ رفع الطعام على المائدة فيه تيسير للأكل فلا كراهة فيه بل هو مباح مالم ينته الى الكبر والتعاظم . وما يقال انه بدعة فجوابه أنه ليس كل ما أبدع منهيا بل المنهيّ بدعة تضادّ سنّة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته وليس في المائدة الا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل ونحوه مما لا كراهة فيه ﴿ الثانية ﴾ الأكل والشرب متكئا مكروه مضر للمعدة ومثله الأكل مضطجعا ومنبطحا ﴿ الثالثة ﴾ السنة البداءة بالطعام قبل الصلاة . وفي الحديث « اذا حضر العشاء والعشاء فابدؤا بالعشاء » وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الامام ولا يقوم من عشائه . مع

إن كانت النفس لا تتوق الى الطعام ولم يكن فى تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة *

﴿ بيان ما يخص الدعوة والضيافة ﴾

﴿ فضيلة الضيافة ﴾

قال ﷺ ﴿ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضيفَهُ ﴾ . وفي أثر : لا خير فيمن لا يضيف : وسئل رسول الله ﷺ ما الإيمان قال ﴿ إطْعامُ الطَّعامِ وَبذْلُ السَّلامِ ﴾ وقال ﷺ فى الكفارات والدرجات ﴿ إطْعامُ الطَّعام والصَّلاةُ بالليل والنَّاس نيامٌ ﴾

﴿ أما الدعوة ﴾ فينبغى للداعى أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق : قال ﷺ ﴿ أَكلَ طَعَامَكَ الأَبْرارُ ﴾ وفى أثر : لا تأكل إلاّ طعام تقىّ ولا يأكل طعامك إلا تقىّ : ولا يقتصر على الأغنياء خاصة بل يضم معهم الفقراء : قال ﷺ ﴿ شرُّ الطَّعامِ طَعامُ الوَليمَةِ يُدْعى اليها الأغنياءُ وَيُحرمُ منها الفقراءُ ﴾ ويبنغى أن لا يهمل أقاربه فى ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم ـ وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه فإن فى تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان وادخال السرور على قلوب المؤمنين ، وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة واذا حضر تأذّى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغى أن لا يدعو إلا من يحب إجابته *

﴿ وأما الإجابة ﴾ فهى سنة مؤكدة ، وقد قيل بوجوبها فى بعض المواضع ولها خمسة آداب ﴿ الأوّل ﴾ أن لا يميز الغنىّ بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه ﴿ الثانى ﴾ أن لا يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعى وعدم جاهه بل كل مسافة يمكن احتمالها فى العادة لا ينبغى أن يمتنع لأجلها ﴿ الثالث ﴾ أن لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر فإن كان يسرّ أخاه إفطاره

فليفطر ، وليحتسب في افطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه مايحتسب فى الصوم وأفضل ـ وذلك فى صوم التطوع ، وان تحقق أنه متكلف فليتعلل : وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار ، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق فثوابه فوق ثواب الصوم ، ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب *

﴿ الرابع ﴾ أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو كان يقام فى الموضع منكر (١) أو كان الداعى ظالماً أو فاسقاً أو متكلفا طلبا للمباهاة والفخر

﴿ الخامس ﴾ أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملا فى أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملا للآخرة فينوى الإقتداء بسنة رسول الله ﷺ وا كرام أخيه المؤمن وزيارته ليكون من المتحابين فى الله وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه و يطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو مايجرى مجراه : وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب . فان المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية *

(١) عد الغزالى من المنكر فرش الحرير والتصوير على الحيطان وسماع المزامير: وعندى أن المنكر الذى يحظر الحضور معه ويتعين انكاره هو ما اتفق على إنكاره وأجمع عليه فما لم يطبق الفقهاء على تحريمه فلا يكون منكرا ولا ينسب مقره الى الفسق: هذا فرش الحرير جوزه الحنفية الجلوس عليه والتصوير على الحيطان سوغه المالكية . وسماع المزامير ذهب إليه ابن حزم وكثير من أتباع الأئمة المشهورين وصنفت فيه مؤلفات معروفة فأنى يكون هذا من المنكر . فالذى أراه فى المنكر أنه المجمع على تحريمه حتى شرط الفقهاء فى إنكار المنكر أن يكون مجمعاً عليه : نعم التورع والاحتياط وترك ما يريبك الى ما لا يريبك باب آخر فيه حسم الشبهة اهـ جمال الدين

﴿ وأما الحضور ﴾ فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطوّل الانتظار عليهم ، ولا يعجّل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن اشار اليه صاحب المكان بموضع لايخالفه البتة فانه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه : و لايجلس فى مقابلة باب الحجرة الذى للنساء وسترهم ، و لايكثر النظر الى الموضع الذى يخرج منه الطعام فانه دليل على الشره ، ويخص بالتحية والسؤال مَنْ يقرب منه اذا جلس ، واذا دخل ضيف للمبيت فليعرّفه صاحبُ المنزل عندد خوله القبلةَ و بيت الماء وموضع الوضوء ، وأن يغسل صاحب المنزل يده قبل القوم وقبل الطعام لأنه يدعو الناس الى كرمه ، ويتأخر في آخر الطعام عنهم وعلى الضيف اذا دخل فرأى منكراً انْ يغيّره إن قدر والا أنكر بلسانه وانصرف *

﴿ وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة ﴾ ﴿ الأول تعجيل الطعام ﴾ فذلك من إكرام الضيف . ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضرين فى التعجيل أولى من حق أولئك فى التأخير . وأحَدُ المعنيين في قوله تعالى ﴿ هَلْ أتاكَ حديثُ ضيفِ ابراهيمَ المُكْرَمين ﴾ أنهم أكرموا بتعجيل الطعام اليهم ، ودل عليه قوله تعالى ﴿ فما لَبِثَ أنْ جاءَ بعِجلٍ حنيذٍ ﴾ وقوله ﴿ فراغَ الى أهله فجاءَ بعجلٍ سمينٍ ﴾ والروغان الذهاب بسرعة وقيل فى خفية . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا فى خمسة فانها من سنة رسول الله ﷺ إطعام الضيف : وتجهيز الميت . وتزويج البكر . وقضاء الدين . والتوبة من الذنب *

﴿ الثاني ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا إن كانت فذلك أوفق فى الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع فى أسفل المعدة . وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة فى قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ ثم

أفضل مايقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد . فان جمع اليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات ودلّ على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم اذا حضر العجل الحنيذ أى المحنوذ وهو الذى أجيد نضجه وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم : قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله . وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد ، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل : قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص الشكر . وقال بعضهم الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان . والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين — وتزيين المائدة بالبقول مستحبّ أيضا ﴿ الثالث ﴾ أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده : وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده وهو خلاف السنة فانه حيلة فى استكثار الأكل: ويستحب أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده ﴿ الرابع ﴾ أن لا يبادر الى رفع الألوان قبل تمكنهم من الإستيفاء حتى يرفعوا الأيدى عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة الى الأكل فيتنغّص عليه بالمبادرة .

﴿ الخامس ﴾ أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فان التقليل عن الكفاية نقص فى المروءة والزيادة عليه تصنّع : قال ابن مسعود رضى الله عنه نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه ، وكرّه جماعة من الصحابة أكلَ طعام المباهاة وينبغى أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة الى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم ، وتنطلق في الضيفان ألسنتهم *

﴿ فأما الإنصراف فله ثلاثة آداب ﴾ ﴿ الأول ﴾ أن يخرج مع الضيف الى باب الدار وهو سنة وذلك من اكرام الضيف . وتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة *

﴿ الثانى ﴾ أن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى فى حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع ﴿ الثالث ﴾ أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل واذنه، ويراعى قلبه فى قدر الإقامة : واذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج الى إخراجه : نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك : ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف ينزل به *

﴿ آداب متفرقة ﴾

﴿ الأول ﴾ حكي عن ابراهيم النخعي أنه قال الأكل فى السوق دناءة ونقل عن بعض السلف فعله ، ووجه الجمع أنه يختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلك به لحاله أو عادة بلاده كان شرها وقلة مروءة . ومن لا فلا حرج ﴿ الثانى ﴾ قال بعض الأطباء لا تنكح من النساء إلا فتاة ، ولا تأكل من اللحم الا فتيًّا، ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولا تشربن دواء إلا من علة ، ولا تأكل من الفاكهة الا نضيجها ، ولا تأكلن طعاما الا أجدت مضغه ، ولا تشربن فوق الطعام ، ولا تحبس البول والغائط : واذا أكلت بالنهار فنم ، واذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة ﴿ الثالث ﴾ يستحب أن يحمل الطعام الى أهل الميت : ولما جاء نعي جعفر بن أبى طالب قال عليه الصلاة والسلام ﴿ إن آلَ جعفرَ شغِلُوا بميّتهم عَنْ صُنعِ طَعَامِهمْ فَاحْمِلُوا اليهم ما يأكُلونَ ﴾ فذلك سنة واذا قدم ذلك الى الجمع حل الأكل منه ﴿ الرابع ﴾ لا ينبغى أن يحضر طعام ظالم فان أكره فليقلل الأكل *

﴿ تتمة ﴾

حُكي أن بعضهم كان يمتنع عن إجابة الدعوة ويقول انتظار المرقة ذلّ : وقال آخر إذا وضعتُ يدي في قصعة غيري فقد ذلّت له رقبتي ، وقد أُنكر بعضهم هذا الكلام وقال هذا خلاف السنة ☆ قال الغزالي وليس كذلك فانه ذلّ اذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلّد بها منة ، وكان يرى ذلك يداً له على المدعوّ ، ورسول الله ﷺ كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلّد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة ــ فهذا يختلف باختلاف الحال . فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وأنه يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته بل الأولى التعالل ــ ولذلك قال بعض الصوفية لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه سلم اليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه فاذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد ☆

كتاب آداب النكاح

﴿ الترغيب فيه ﴾

قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ وهذا أمر : وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ وهذا منع من العضل ونهي عنه : وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل : ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ الآية . وأما الأخبار فقوله ﷺ ﴿ النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني ﴾ وقال ﴿ من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء ﴾ وهذا يدل على أن

سبب الترغيب فيه خوف الفساد فى العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته فهو مستعار للضعف عن الوقاع بالصوم : وقال ﷺ ﴿اذا أتاكم مَنْ ترضَوْنَ دينَه وأمانتَه فزوّجوهُ الاّ تفعلوه تَكُنْ فتنةٌ فى الأرضِ وَفسادٌ كبير﴾ ﴿وهذا أيضا تعليل الترغيب لخوف الفساد : وقال ﷺ ﴾ ﴿كلّ عمل ابن آدمَ ينقطِعُ الاثلاثٌ ولدٌ صالحٌ يدعو له﴾ (١) الحديث ولا يوصل الى هذا الا بالنكاح *

﴿ وأما الآثار﴾ فقال ابن عباس رضى الله عنه لايتم نسك الناسك حتى يتزوّج يحتمل أنه جعله من النسك أوتتمة له أو أراد أنه لايسلم قلبه لغلبة الشهوة الابالتزوج ولايتم النسك الابفراغ القلب : وكان يجمع غلمانه لما أدركوا. ويقول ان أردتم النكاح أنكحتكم فان العبد اذا زنى نزع الإيمان من قلبه *

﴿ وأما فوائد النكاح ﴾ فخمسة الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهنّ *

﴿ مايراعى من أحوال المرأة ﴾

الخصال المطيبة للعيش التى لابد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين . والخلق . والحسن . وخفة المهر . والولادة . والبكارة والنسب، وأن لا تكون قرابة قريبة *

﴿ الأولى ﴾ أن تكون صالحة ذات دين فهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الإعتناء فانها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفرجها أزْرت بزوجها وسوّدت بين الناس وجهه وشوّشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه . فان سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل فى بلاء، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه

---

(١) قوله كل عمل لخ هكذا بالأصل والذي أحفظه أن نص الحديث هو (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الامن ثلاث علم ينتفع به أوصدقة جارية أو ولد صالح يدعو له) ه مصححه (محيي الدين صبري الكردي)

وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والأنفة . وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه فإن سكت ولم ينكره كان شريكا فى المعصية مخالفا لقوله تعالى ﴿قُوا أنفُسَكُمْ وأهلِيكُمْ ناراً﴾ وإن أنكر وخاصم تنغص العمر — ولهذا بالغ رسول الله ﷺ فى التحريض على ذات الدين فقال ﴿ تُنْكَحُ المرأةُ لمالِها وجَمالها وحَسَبِها ودينِها فعليك بذاتِ الدّين ترِبَتْ يداك ﴾

﴿ الثانية ﴾ حسن الخلق فإنها إذا كانت سليطة بذيئة اللسان كافرة للنعم كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء

﴿ الثالثة ﴾ حسن الوجه فذلك أيضا مطلوب إذ به يحصل التحصن ، والطبع لا يكتفى بالدّميمة غالبا ، وما نقلناه من الحث على الدين ليس زجراً عن رعاية الجمال بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد فى الدين فإن الجمال وحده فى غالب الأمر يرغب في النكاح ويهوّن أمر الدين ، ويدل على الالتفات الى معنى الجمال أن الإلف والمودة تحصل به غالبا : وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال ﴿إذَا أوْقَعَ اللهُ فى نَفْسِ أحدِكُم مِنْ امْرأةٍ فلينظر إليها فإنه أحْرى أن يُؤْدَمَ بينهما﴾ أى يؤلف بينهما : وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم الا بعد النظر احترازا من الغرور : وقال الأعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همّ وغمّ : وروى أن رجلا تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة الى عمر وقالوا حسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا ، وقال غررت القوم ، والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعا فيستحب ازالة الغرور في الجمال بالنظر ، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها الا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن لا يميل اليها فيفرط فى الثناء ، ولا يحسدها فيقصر . وقلّ من يصدق فيه بل الخداع والاغراء أغلب والاحتياط فيه مهم

﴿ الرابعة ﴾ أن تكون خفيفة المهر فقد نهى عن المغالاة فى المهر : وتزوج بعض الصحابة على نواة من ذهب يقال قيمتها خمس دراهم . وزوج سعيد

ابن المسيب ابنته من أبي هريرة رضي الله عنـه على درهمين ثم حملها هو اليـه ليلا فأدخلها من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعـد سبعة أيام فسلّم عليها: وفي خبر: من بركة المرأة سرعةُ تزويجها وسرعةُ رحمها أي الولادة ويُسرُ مهرها وكما تكره المغالاة فى المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل، ولا ينبغي أن ينكح طمعا فى المال، واذا أهدى اليهم فلا ينبغى أن يهدى ليضطرهم الى المقابلة باكثر منه ــ وكذلك اذا أهدوا اليه فنيّة طلب الزيادة نية فاسدة وداخل فى قوله تعالى ﴿ ولا تَمنُنْ تَستكثِرْ ﴾ أى تعطى لتطلب أكثر *

﴿ الخامسة ﴾ أن تكون المرأة ولوداً فان عُرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها

﴿ السادسة ﴾ أن تكون بكراً: قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيبا ﴿ هلاّ بِكراً تُلاَعِبها وتُلاَعبُك ﴾

﴿ السابعة ﴾ أن تكون نسيبهً أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فانها ستربّى بناتها وبنيها فاذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية: وفى خبر ﴿ تَخيّرُوا لِنُطَفِكُمْ فانَّ العرقَ نزّاع ﴾

﴿ الثامنة ﴾ أن لا تكون من القرابة القريبة فان ذلك يقلل الشهوة ــ فهذه هى الخصال المرغبة في النساء

﴿ ويجب ﴾ على الولىّ أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لم يكافئها فى نسبها، ومهما زوّج ابنته ظالما أو فاسقا أو مبتدعا أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرّض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار: قال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة فممن أزوجها قال ممن يتقى الله فان أحبها أكرمها وان أبغضها لم يظلمها *

﴿ آداب المعاشرة بعد العقد الى الفراق ﴾

﴿ والنظر فيها على الزوج والزوجة ﴾

﴿ أما الزوج ﴾ فعليه مراعاة الإعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً فى

الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب فى النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق *

﴿ الأدب الأول الوليمة ﴾ وهى مستحبة : قال أنس رضى الله عنه رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال ماهذا فقال تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب فقال بارك الله لك أولِمْ ولو بشاة : وأولم رسول الله ﷺ على صفية بتمر وسويق : وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير : ويستحب اظهار النكاح : قال عليه السلام ﴿ فَصلُ مابين الحلال والحرام الدّفُ والصّوتُ ﴾

﴿ الأدب الثانى حسن الخلق معهن ﴾ واحتمال الأذى منهن ترحمًا عليهن قال تعالى ﴿ وعاشرُوهُنّ بالمعروُف ﴾ وقال فى تعظيم حقهن ﴿ وأخذْنَ منكُمْ ميثاقاً غليظاً ﴾ وقال ﴿ والصّاحِبْ بالجَنْبِ ﴾ قيل هى المرأة . وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يوما الى الليل

﴿ الثالث ﴾ أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمدح والملاعبة فهى التى تطيب قلوب النساء : وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل الى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق . وأرى عائشة لعبَ الحبشة بالمسجد واستوقفته طويلا وهو يقول لها حسبك : وقال ﷺ ﴿ خَيرُكم خيرُكم لأهله وأنا خيرُكم لأهلى ﴾ وقال عمر رضى الله عنه . ينبغى الرجل أن يكون مع أهله مثل الصبى : وقال ﷺ لجابر ﴿ هلاّ بكراً تلاعِبها وتلاعِبُكَ ﴾ ووصفت اعرابية زوجها وقد مات فقالت والله لقد كان ضحوكا اذا ولج . سكيتاً اذا خرج . آكلا ما وجد . غير سائل عما فقد *

﴿ الرابع ﴾ أن لا ينبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها الى

حدّ يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها بل يراعى الإعتدال فيه: فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمّر وامتعض. فبالعدل قامت السموات والأرض فكل ما جاوز حده انعكس على ضده: فينبغي أن يسلك سبيل الإقتصاد فى المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك ليسلم من شرّهن فان الغالب عليهن سوء الخلق ولا يعتدل ذلك منهنّ إلاّ بنوع لطف ممزوج بسياسة . وعليه أن ينظر إلى أخلاقها أوّلا بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها *

﴿ الخامس ﴾ الإعتدال فى الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء: وفى رواية أن تبغت النساء : ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة ﴿ لاتَطرِقُوا النّساءَ ليْلا ﴾ فخالفه رجلان فسبقا فرأى كل واحد فى منزله ما يكره . وفى الحديث : إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عزّ وجل وهى : غيرة الرجل على أهله من غير ريبة لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه ـ وأما الغيرة فى محلها فلا بد منها وهي محمودة وذلك في الريبة . وكان قد أذن رسول الله ﷺ للنساء في حضور المسجد سيما في العيدين فالخروج للمسجد مباح للمرأة العفيفة مباح برضاء زوجها ولكن القعود أسلم ـ وينبغي أن لا تخرج إلاّ لمهم فإن الخروج للنظارات والأمور التى ليست مهمة تقدح فى المروءة وربما تفضى إلى الفساد فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال . ولسنا نقول أن وجه الرجل فى حقها عورة كوجه المرأة فى حقه بل هو كوجه الصبى الأمرد فى حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط فإن لم تكن فتنة فلا إذ لم يزل الرجال على ممرّ الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن متنقبات ولو كانت وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتنقيب أو منعن من الخروج إلا لضرورة

﴿ السادس ﴾ الإعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ولا ينبغي أن يسرف بل يقتصد: قال تعالى ﴿ كُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ﴾ . قال ابن سيرين : يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة حلاوة . وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك فهذا أقل درجات الخير . وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير تصريح إذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه فان ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته . وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال، ولا يدخل مداخل السوء لأجلها فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها *

﴿ السابع ﴾ أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب ويعلّم زوجته أحكام الصلاة ويخوفها من الله إن تساهلت في أمر الدين فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء ، وإن قصُر علمُ الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها الخروج فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها *

﴿ الثامن ﴾ إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن . فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها فإن القضاء واجب عليه . وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت : وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الإختيار : وكان ﷺ يطاف به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة فيبيت عند كل واحدة منهن . ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ثبت الحق لها

﴿ التاسع ﴾ التأديب في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على اصلاحها فلا بد من حكمين أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما

ويصلحا أمرها ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ وأما اذا كان النشوز من المرأة خاصة ﴿ فالرّجال قوّامون على النّساء ﴾ فله أن يؤدّبها ويحملها على الطاعة قهراً ولكن ينبغي أن يندرّج في تأديبها وهو أن يقدّم أولا الوعظ والتحذير والتخويف فأن لم ينجح ولاّها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال فان لم ينجع ذلك فيها ضربها ضربا غير مبرح، ولا يضرب وجهها فذلك منهيّ عنه *

﴿ العاشر في آداب الجماع ﴾ ويستحب أن يقدم عليه الحديث والمؤانسة وأن يغطّي رأسه ويغض صوته. ثم اذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضا نهمتها، ولا يأتيها في المحيض حتى تطهر . وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأتى اذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى والأذى في غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من اتيان الحائض . وقوله تعالى ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أي في أيّ وقت شئتم. وله أن يستمني بيديها وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي سوء الوقاع. وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في المضاجعة وغيرها، ومن الآداب أن لا يعزل فما من نسمة قدّر الله كونها الا وهي كائنة. فان عزل فمن العلماء من أباحه ومنهم من أحلّه برضاها وحرّمه بدون رضاها لئلا يؤذيها، والصحيح الأوّل : وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه قال: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل : وفي لفظ آخر كنا نعزل فبلغ ذلك نبيّ الله ﷺ فلم ينهنا . وقد يبعث على العزل استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر طلق أو الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة الى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء فان قلة الحرج معين على الدين *

﴿ الحادي عشر في آداب الولادة ﴾ وهي خمسة ﴿ الأول ﴾ أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فانه لا يدرى الخير له في أيهما. فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن تكون بنتا بل الثواب فيهن أكثر: قال أنس قال رسول الله ﷺ

﴿ مَنْ كانَتْ لهُ إبنتانِ أو أُختان فأحْسَنَ إليهما ماصحبتاه كُنتُ أنا وَهُوَ في الجنةِ كهاتَينِ ﴾

﴿ الثانى ﴾ أن يؤذّن فى أذُنِ المولودحين ولادته ﴿ الثالث ﴾ أن يسميه اسما حسناً . ومن كان له اسم مكروه يستحب تبديله ﴿ الرابع ﴾ العقيقة عن الذكر بشاتين وعن الأنثى بشاة وأن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ﴿ الخامس ﴾ أن يحنكه بتمرة أو حلاوة ـ روى ذلك من فعله ﷺ *

﴿ الثانى عشر فى الطلاق ﴾ وهو أبغض المباحات الى الله تعالى : وإنما يكون مباحا اذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل . ومهما طلقها فقد آذاها ولايباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه : قال تعالى ﴿ فإن أطَعْنَكم فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبيلا ﴾ أى لا تطلبوا حيلة للفراق . وإن كرهها أبوه لا لغرض فاسد فليطلقها براً به . ومهما آذت زوجها و بذت على أهله فهى جانية ـ وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال : ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى ﴿ لاجُناحَ عَليهِما فِيما افْتَدَتْ بِهِ ﴾ فرد ما أخذته فما دونه لائق بالفداء . فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهى آثمة. ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور ﴿ الأول ﴾ أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه فإن الطلاق فى الحيض أو الطهر الذى جامع فيه بدعىّ حرام وإن كان واقعاً لما فيه من تطويل العدة عليها فإن فعل ذلك فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ﴿ الثانى ﴾ أن يقتصر على طلقة واحدة لأنها تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم فى العدة . وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة وعقد المحلل منهىّ عنه ويكون هو الساعي فيه ﴿ الثالث ﴾ أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من [illegible]

الفراق : قال تعالى ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ وجّه الحسن بن علىّ رضى الله عنهما بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال قل لهما اعتدّا . وأمره أن يدفع الى كل واحدة عشرة آلاف درهم ﴿ الرابع ﴾ أن لا يفشي سرّها لا فى الطلاق ولا عند النكاح فقد ورد فى إفشاء سرّ النساء وعيد عظيم *

﴿ حقوق الزّوج على الزّوجة ﴾

على الزّوجة طاعة الزوج في كل ما طلب منها مما لا معصية فيه ـ وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال ﷺ ﴿ أيمَّا إمرأةٍ ماتتْ وَزوجُها عَنها رَاضٍ دَخلتِ الجنّةَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إذا صلّتِ المَرأةُ خَمسَها وصامتْ شهرَها وَحفِظَتْ فَرْجَها وأطاعَتْ زَوجَها دَخلتْ جَنَّةَ رَبِّها ﴾ قال ابن عباس أتت امرأة من خثعم الى رسول الله ﷺ فقالت إنى امرأة أيّم وأريد أن أتزوّج فما حق الزوج قال ﴿ إنّ مِنْ حَقِّ الزّوجِ عَلى الزّوجَةِ إذا أرادَها فَرَاوَدَها عَنْ نفسِها وَهِىَ على ظهرِ بعيرٍ لا تَمنعهُ ﴾ ومن حقه أن لا تعطى شيأ من بيته إلا بإذنه فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له . ومن حقه أن لا تصوم تطوّعا إلاّ بإذنه فإن فعلت ذلك جاعت وعطشت ولم يتقبل منها . وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع الى بيته أو تتوب : فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة وأهمها أمران : أحدهما الصيانة والستر : والآخر ترك المطالبة مما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراما . ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنته عند التزوج إنك خرجتِ من العش الذى فيه درجت فصرتِ الى فراش لم تعرفيه . وقرين لم تألفيه . فكونى له أرضاً يكن لكِ سماء . وكونى له مهاداً يكن لك عماداً . وكونى له أمة يكن لك عبداً . لا تلحفى به فيقلاك . ولا تباعدى عنه فينساك إن دنا منك فاقربى منه . وإن نأى فابعدى عنه . واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيباً ولا يسمع إلا حسناً ولا ينظر الا جميلا ،

فالقول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة فى قعر بيتها . لازمة لمغزلها . لا يكثر صعودها واطلاعها . قليلة الكلام لجيرانها . لا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول . تحفظ بعلها فى غيبته وحضرته . وتطلب مسرّته في جميع أمورها . ولا تخونه في نفسها وماله . ولا تخرج من بيتها إلا بأذنه فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها بل تتنكّر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه . همها صلاح شأنها وتدبير بيتها . مقبلة على صلاتها وصيامها . وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده فى الكلام غيرة على نفسها وبعلها . وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله وتقدّم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها متنظفة فى نفسها مستعدة فى الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء . مشفقة على أولادها . حافظة للستر عليهم . قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الأزواج ﴿ومن آدابها﴾ أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدرى زوجها لقبحه ﴿ومن آدابها﴾ ملازمة الصلاح والانقباض فى غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ﴿ومما يجب عليها﴾ من حقوق النكاح اذا مات عنها زوجها أن لا تحدّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة فى هذه المدة : وقال ﷺ ﴿لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً﴾ ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة *

﴿ومن آدابها﴾ أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها كما كان عليه نساء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين *

كتاب آداب الكسب والمعاش

﴿ فضل الكسب والحثّ عليه ﴾

أمّا من الكتاب فقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنا النَّهارَ معَاشاً ﴾ فذكره فى معرض الامتنان :وقال تعالى ﴿ وَجَعلنا لَكُمْ فيها معَايِشَ قَليلاً ما تَشكُرُونَ ﴾ فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها :وقال تعالى ﴿ فانتشِرُوا فى الأرض وابْتَغوا من فضل اللهِ ﴾ وأما الأخبار:فمنها قوله ﷺ ﴿ لأن يأخذ أحدكم حَبْله فيحتطِبَ على ظهرِهِ خيرٌ من أن يأتى رَجلاً أعطاهُ اللهُ من فَضلِهِ فَيسألُهُ أعطاهُ أو مَنَعَهُ ﴾ وكان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذى جَلَدٍ وقوة وقد بكّر يسعى فقالوا ويح: هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله تعالى: فقال ﷺ ﴿ لاتقولوا هذا فإنَّهُ إنْ كانَ خرَجَ يَسعَى على وَلَدِهِ صِغاراً فَهُوَ فى سَبيل اللهِ وَإنْ كانَ خرَجَ يسعَى على أبوَين شيْخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإنَّ كانَ خرَجَ يَسعى على نفسهِ يعفُّها فَهُو فى سبيل الله وإن كانَ خرجَ يسعى رِياء وَمُفَاخَرَةً فَهُو في سبيل الشَّيطان ﴾ وقيل يارسول الله أىُّ الكسب أطيب قال ﴿ عَمَلُ الرَّجُلِ بيدِهِ وكلُّ بيع مبرور ﴾ وقال ﷺ ﴿ خيرُ الكسبِ كَسبَ العاملِ إذا نَصَحَ ﴾ أى أتقن وتجنّب الغشّ وقام بحق الصنعة : وقال عمر رضى الله عنه لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة : وقال ابن مسعود رضي الله عنه إنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً لافى أمر دنياه ولا فى أمر آخرته ، وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تقول فيمن جلس فى بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزقى فقال أحمد هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي ﷺ إنّ الله جعل رزقى تحت ظل رمحى وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال تغدو خماصاً

وتروحُ بطاناً ﴾ فذكر أنها تغـدوا في طلب الرزق : وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون فى البرّ والبحر ويعملون فى نخيلهم ، والقدوة بهم . ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة ؛ نعم ترك الكسب أفضل لعالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به فى دينهم كالمفتى ـ أى الفقيـه والمفسّر والمحدث وأمثالهم ـ أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين كالسلطان والقاضى والشاهد فهؤلاء اذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أوالأوقاف المسبّلة على الفقراء أو العلماء فاقبالهم على ماهو فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب ـ ولهـذا أشار الصحابة على أبى بكر رضى الله عنهم بترك التجارة لمّا ولىّ الخلافـة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح وكان يأخـذ كفايته من مال المصالح ورأى ذلك أولى ثم لما توفى أوصى برده الى بيت المال ولكنه رآه فى الابتداء أولى *

﴿ بيان العدل واجتناب الظلم فى المعاملة ﴾

إعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يشتمل على ظلم يتعرّض به المعامل لسخط الله تعالى . وهذا الظلم يُعنى به ما استضرّ به الغـير وهو منقسم الى ما يعمّ ضرره والى ما يخصّ المعامل .

﴿ القسم الأول فيما يعمّ ضرره — وهو أنواع ﴾

﴿ الأول الاحتكار ﴾ فادّخار بائع الطعام له ينتظر به غلاء الأسعار هو ظلم عام صاحبه مذموم في الشرع ـ وذلك فى وقت قلة الأطعمة وحاجة الناس اليه حتى يكون فى تأخير بيعه ضرر ما ـ أما اذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها الا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطاً فليس فى هذا إضرار ـ وإذا كان الزمان زمان قحط كان فى [illegible] إضرار ولا ريب في تحريمه

[illegible] لا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية [illegible]

الضرار وهو إرتفاع الأسعار . وانتظار مبادىء الضرار محذور كانتظار عين الضرار ولكنه دونه وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم .

﴿ الثانى ﴾ ترويج الزيّف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم اذ يستضر به المعامل إن لم يعرف وإن عرف فسيروجه على غيره فيتردّد في الأيدى ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعا اليه لأنه هو الذى فتح هذا الباب * قال بعضهم إنفاق درهم زيّف أشد من سرقة مائة درهم لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت ومعصية انفاق الزيّف قد يكون عليه وزرها بعد موته الى مائة سنة أو مائتى سنة الى أن يفنى ذلك الدرهم ويكون عليه ما فسد من نقص أموال الناس ـ وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة أو أكثر يُعذّب بها في قبره ويسأل عنها الى آخر انقراضها : قال تعالى ﴿ وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُمْ ﴾ أى نكتب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه . وفى مثله قوله تعالى ﴿ يُنَبَّأُ الإنسانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وأَخَّرَ ﴾ وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وفى الزيف أمور : منها أنه اذا رد عليه شيء منه فينبغى أن يطرحه فى بئر بحيث لا تمتد اليه اليد وإياه أن يروّجه فى بيع آخر فإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل جاز ، ومنها أنه يجب على التاجر تعلم النقد لئلا يسلم الى أحد زيّفا وهو لا يدرى فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم . فلكل عمل علمٌ به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله ومنها أن من كان فى يده قطعة نقرة ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر بها معامله وأن لا يعامل بها إلا من لا يستحل الترويج فى جملة النقد طريق التدليس فأما من يستحل ذلك فتسليمه اليه تسليط له على الفساد فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه وسلوك طريق الحق بمثل هذا فى التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلى لها .

﴿ القسم الثانى ما يخص ضرره المعامل ﴾

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم وانما العدل بأن لايضر بأخيه المسلم والضابط الكلى فيه أن لايحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه ، فكل ما عومل به وشق عليه وثقل على قلبه فينبغى أن لايعامل غيره به بل ينبغى أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره — هذه جملته ، وأما تفصيله ففى أربعة أمور *

﴿ الأول ﴾ أن لايثنى على السلعة بما ليس فيها لأنه كذب فان قبل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم وإن لم يقبل فهو كذب واسقاط مروءة — وأما الثناء على السلعة بذكر القدر الموجود فيها من غير مبالغة وأطناب فلا بأس به . ولا ينبغى أن يحلف عليها البتة فانه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهى من الكبائر وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه وقد أساء فيه اذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفى الخبر ﴿ وَيلٌ لِلتَّاجِرِ من بلى والله ولا والله وَوَيلٌ للصَّانِعِ من غَدٍ وبعدَ غدٍ ﴾ وفى الخبر ﴿ اليمينُ الكاذِبَةُ منفِقَةٌ للسِّلعة مُمحِقَةٌ للكَسبِ ﴾ ﴿ الثانى ﴾ أن يظهر جميع عُيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئاً فذلك واجب فان اخفاه كان ظالما غاشاً والغش حرام . وكان تاركا للنصح فى المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشا — وكذلك اذا عرض الثياب في المواضع المظلمة وكذلك اذا عرض أحسن فردى الخف أو النعل وأمثاله . ويدل على تحريم الغش ما روى أنه مر عليه السلام برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال ما هذا قال أصابته السماء فقال ﴿ فَهلاَّ جعلتَهُ فوقَ الطَّعامِ حتَّى يراهُ الناسُ مَن غَشَّنا فليسَ مِنَّا ﴾ ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي ﷺ لما بايع جريرَ على الإسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم وكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بَصَّر عيوبها ثم خَيَّره وقال إن

[illegible]

فقال إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم « وكان واثلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقة له بثلثمائة درهم فغفل واثلة وقد ذهب الرجل بالناقة فسعى وراءه وجعل يصيح به ياهذا اشتريتها للحم أو للظهر فقال بل للظهر فقال ان بخفها نقبا قد رأيته وأنها لا تتابع السير فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم « وقال لواثلة رحمك الله أفسدت علي بيعي فقال إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم « وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لأحد يبيع بيعاً الا أن يبين آفته ولا يحل لمن يعلم ذلك الا تبيينه » فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه الا ما يرضاه لنفسه ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم وهذا الأمر وإن كان يشق على النفس الا أنه يتيسر على العبد باعتقاد أمرين « أحدهما » أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه بل يمحقه ويذهب ببركته . وقد يهلك الله ما يجمعه من التلبيسات دفعة واحدة « فقد حكي أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل فغرق البقرة فقال بعض أولاده ان تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة كيف وقد قال ﷺ « البايعان اذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما وإذا كتما وكذبا نزعت بركة بيعهما » وفي الحديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا فإذا تخاونا رفع يده عنهما » [illegible] لا يزيد مال من خيانة كما لا ينقص من صدقة « والمعنى الثاني » الذي لا بد من [illegible] ليتم له النصح ويتيسر عليه أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا [illegible] الدنيا تنقضي [illegible] العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستخير [illegible] الذي هو أدنى بالذي هو خير والخير كله في سلامة الدين . وفي حديث [illegible] من سحق محارمه » ومن علم أن هذه الأمور [illegible] ماله في تجارته في الآخرة يصيم رأس ماله [illegible] [illegible] وعن بعض التابعين أنه قال

لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لى مَنْ خير هؤلاء ومن شرّهم لقلت خيرهم أنصحهم وشرهم أغشهم لهم . والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً . ولا ينبغى أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه بل ينبغى أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب فبذلك يتخلص * وسأل رجل حذاءٌ ابنَ سالم فقال كيف لى أن أسلم فى بيع النعال فقال . اجعل الوجهين سواء . ولا تفضل اليمنى على الأخرى . وجوّد الحشو . وليكن شيأ واحداً تاماً . وقارب بين الخُرُز . ولا تطبق احدى النعلين على الأخرى . ومن ذلك ماسئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين قال لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه وانما يحل للرفاء اذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريدها للبيع فان قلت فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع : فأقول ليس كذلك إذ شرط التاجر أن لا يشترى للبيع الا الجيد الذى يرتضيه لنفسه لو أمسكه ولا يحتاج الى تلبيس فمن تعود هذا لم يشتر المعيب فان وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته : باع ابن سيرين شاة فقال للمشترى أبرأ اليك من عيب فيها أنها تقلّب العلفَ برجلها فهكذا كانت سيرة أهل الدين ﴿ الثالث ﴾ أن لا يكتم فى المعيار وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل . فينبغى أن يكيل كما يكتال : قال الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى وينقص إذا أخذ إذ العدل الحقيقى قلّما يتصور فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان فان من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه : وكان بعضهم يقول لا أشترى الويل من الله بحبة ، وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظما لم تجر العادة بمثله فهو من المطففين فى الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات حتى فى الذرع الذى يتعاطاه البزاز فانه اذا اشترى أرسل ، وفي وقت البيع يمده مداً

وإذا باعه مدّه في الذرع ليظهر تفاوتاً في القدر ، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبَه للويل ﴿ الرابع ﴾ أن يصدق في سعر الوقت ولايخفى منه شيئاً فقد نهى رسول الله ﷺ عن تلقي الركبان ونهى عن النجش — أما تلقي الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد فقد قال ﷺ ﴿ لا تتلقَّوا الرُّكبانَ ﴾ ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدِم السوق ﴿ ونهى أيضا ﴾ أن يبيع حاضر لباد وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع الى بيعه فيقول له الحضري أتركه عندي حتى أغالي في ثمنه وأنتظر إرتفاع سعره ﴿ ونهى أيضاً ﴾ عن النجش وهو أن يتقدم الى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها — فهذه المناهي تدل على أنه لايجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد ففعل هذا من الغشّ الحرام المضادّ للنصح الواجب ، ومن ذلك أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار فان فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مرابحة بأن يقول بعت بما قام عليّ أو بما اشتريته فعليه أن يصدق ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان

﴿ الإحسان في المعاملة ﴾

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعا ، والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة مجرى سلامة رأس المال ، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة وهو يجري من التجارة مجرى الربح ولا يعد من العقلاء مَنْ قنع في معاملات الدنيا برأس ماله فكذا في معاملات الآخرة ، ولا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله تعالى ﴿ وأَحسِنْ كما أَحسنَ الله

إليكَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ إِنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعدْلِ والإِحسان﴾ وقال سبحانه﴿ انَّ رَحمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحسِنِينَ ﴾ وينال المعامل رتبة الإِحسان بواحد من ستة أمور ﴿ الأَول ﴾ فى المغابنة فينبغى أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة فأما أصل المغابنة فمأذون فيه لأن البيع للربح ولا يمكن ذلك الا بغبن ما ولكن يراعى فيه التقريب: ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربحا كثيراً و به تظهر البركة ﴿ الثانى ﴾ فى احتمال الغبن والمشترى إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيأ من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا وداخلا فى قوله عليه السلام ﴿ رَحِمَ اللهُ سهْلَ البَيعِ وسهَلَ الشّرَاء ﴾ وأما إحتمال الغبن من الغنىّ فليس محموداً بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد وكان كثير من السلف يستقصون في الشراء ويهبون مع ذلك الجزيل من المال. فقيل لبعضهم فى ذلك فقال إن الواهب يعطى فضله، وان المغبون يغبن عقله ﴿ الثالث ﴾ فى استيفاء الثمن وسائر الديون والإِحسان فيه مرة بالمسامحة وحط البعض ومرة بالإِمهال والتأخير ومرة بالمساهلة فى طلب جودة النقد وكل ذلك مندوب اليه ومحثوث عليه: وفي الخبر ﴿ مَنْ أقرَضَ ديناراً إلى أجَلٍ فَلهُ بِكلِّ يومٍ صدَقَةٌ إلى أجلِهِ فإِذا حلّ الأجلُ فأنظَرَهُ بَعدَهُ فلهُ بكلِّ يومٍ مثلُ ذلك الدَّينِ صدَقَةً ﴾ ونظر النبى صلى الله عليه وسلم الى رجل يلازم رجلا بدين فأومأ الى صاحب الدين بيده أى ضع الشطر ففعل فقال المديون قم فاعطه ﴿ الرابع فى توفية الدين ﴾ ومن الإِحسان فيه حسن القضاء وذلك بأن يمشى الى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى اليه يتقاضاه فقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ خيرُكمْ أحسنُكمْ قضاء ﴾ ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر اليه ولو قبل وقته وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم لما ردد عليه كلامه صاحب الدين هم به أصحابه فقال دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ومن الإحسان أن يميل الحكم الى من عليه الدين مهما جرى بين خصمين

أن يقيل من يستقيله فانه لايستقيل الا متندم مستضر بالبيع ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : وفى الخبر ﴿ مَنْ أقالَ نادماً صَفقَتَهُ أقالَ اللهُ عَثرتَهُ يومَ القيامةِ ﴾ ﴿ السادس ﴾ أن يقصد فى معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لايطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة : وكان من السلف مَنْ يقول لفقير خذ ما تريد فان يسر لك فاقض وإلا فأنت فى حلّ منه وسعة ـ فهذه طرق تجارات السلف * وبالجملة فالتجارة محكّ الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه ٭

﴿ شفقة التاجر على دينه ﴾

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة ؛ وما يفوته من الربح في الآخرة لايفي به ماينال في الدنيا ، فيكون ممن شترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه : وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله ورأس ماله دينه وتجارته فيه وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة سبعة أمور ﴿ الأول ﴾ حسن النية فى ابتداء التجارة فلينو بها الإستعفاف عن السؤال وكفّ الطمع عن الناس إستغناء بالحلال عنهم واستعانة بما يكسبه على لدين وقياما بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به . ولينو النصح للمسلمين وأن يحب لسائر الخلق مايحب لنفسه ، ولينو إتباع طريق العدل والاحسان فى معاملته كما ذكرناه . ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى كل مايراه فى السوق فاذا أضمر هذه النيات كان عملا فى طريق الآخرة فان استفاد مالا فهو مزيد وان [illegible] في [illegible] في الآخرة ﴿ الثاني ﴾ أن يقصد القيام فى صنعته أو [illegible] فروض [illegible] فان الصناعات والتجارات لو تركت [illegible] أكثر [illegible] . وانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل [illegible] صنعات ما هى مهمة ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها الى [illegible] بصناعة مهمة [illegible] قيامه بها كافياً عن

المسلمين مهما فى الدين ﴿ الثالث ﴾ أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة وأسواق الآخرة المساجد : قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ لا تُلهيهِم تِجارَةٌ ولا بَيعٌ عَن ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ﴾ وكان السلف يبتدرون عند الأذان ، ويخلون الأسواق لأهل الذمة والصبيان *

﴿ الرابع ﴾ أن لا يقتصر على هذا بل يلازم ذكر الله سبحانه فى السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح فذكر الله فى السوق بين الغافلين أفضل *

﴿ الخامس ﴾ أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج ﴿ السادس ﴾ أن لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ، ويستفتى قلبه فاذا وجد فيه حزازة اجتنبه واذا حمل اليها سلعة رابه أمرها سأل عنها ، وكل منسوب الى ظلم أوخيانة أوسرقة أو ربا فلا يعامله ﴿ السابع ﴾ ينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه فانه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب

كتاب الحلال والحرام

﴿ فضيلة الحلال ومذمة الحرام ﴾

قال الله تعالى ﴿ كلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعمَلُوا صالِحاً ﴾ أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل : وقيل إن المراد به الحلال: وقال تعالى ﴿ ولا تأكلُوا أموالَكُم بينَكُم بالباطِلِ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنَّ الذين يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلونَ في بُطونِهِم ناراً وسيَصلَونَ سعيراً ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَروا ما بقيَ من الربا إن كنتُم مؤمنين ﴾ ثم قال ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من اللهِ ورسولِهِ ﴾ ثم قال ﴿ وإن تبتُم فلكُم رؤوسُ أموالِكُم ﴾ ثم قال [illegible]

[illegible]

يحارب الله وفي آخره متعرضاً للنار: والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى *

وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ﴿ طلبُ الحلالِ فريضةٌ على كل مُسلمٍ ﴾ وقال بعض العلماء في قوله ﷺ ﴿ طلبُ العلمِ فريضةٌ على كل مُسلمٍ ﴾ المراد به طلب علم الحلال والحرام وجعل المراد بالحديثين واحدا ولما ذكر ﷺ الحريص على الدنيا قال ﴿ رُبَّ أشعثَ أغبرَ مُشرَّدٍ في الأسفار مَطعمُهُ حرامٌ وملبسُهُ حرامٌ وغُذِيَ بالحرام يَرفعُ يَديهِ فيقول يا ربِّ يا ربِّ فأنَّى يُستجابُ لذلكَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ كلُّ لحمٍ نبتَ مِنْ حرامٍ فالنَّارُ أَولَى بهِ ﴾ وأما الآثار فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ثم قال: اللهم اني أعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء . وكذلك شرب عمرُ رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطا فأدخل أصابعه وتقيأ ، وقال سهل التستري لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يكون فيه أربع خصال أداء الفرائض بالسنة. وأكل الحلال بالورع. واجتناب النهي ظاهراً وباطنا. والصبر على ذلك إلى الموت: وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين فقيل له من أين تأكل فقال من حيث تأكلون ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك، وقال يدٌ أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة . وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات *

﴿ أصناف الحلال ومداخله ﴾

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام انما يتولى بيانه كتب الفقه، ويستغني المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها وكان لا يأكل من غيرها . فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله . ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم وذلك أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه . أو لخلل في جهة اكتسابه *

﴿ القسم الاول ﴾ الحرام لصفة فى عينه كالخمر والخنزير وغيرهما . وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لاتعدو ثلاثة أقسام فانها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما . أو من النبات . أو من الحيوانات : فأما المعادن فهى أجزاء الأرض وجميع مايخرج منها فلا يحرم أكله إلا من حيث أنه يضر بالآكل أو فى بعضها مايجرى مجرى السم : والخبز لو كان مضراً لحرم أكله . والطين الذى يعتاد أكله لايحرم الا من حيث الضرر *

﴿ وأما النبات ﴾ فلا يحرم منه إلا مايزيل العقل ويزيل الحياة أو الصحة: فمزيل العقل البنج والخمر وسائر المسكرات . ومزيل الحياة السموم . ومزيل الصحة الأدوية فى غير وقتها وكأن مجموع هذا يرجع الى الضرر الا الخمر والمسكرات فان الذى لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته

﴿ وأما الحيوانات ﴾ فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى مالا يؤكل . وتفصيله فى كتب الفقه ومايحل أكله فانما يحل اذا ذبح ذبحا شرعيا روعى فيه شروط الذابح والآلة والمذبح على مايذكر في كتب الفقه ومالم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام ولا يحل الا ميتتان السمك والجراد

﴿ القسم الثانى ﴾ ما يحرم لخلل فى جهة إثبات اليد عليه . ويتحصل منه أقسام ﴿ الاول ﴾ ما يؤخذ من غير مالك كنيل المعادن واحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار والاحتشاش فهذا حلال: وشرطه أن لايكون المأخوذ مختصا بذى حرمة من الآدميين *

﴿ الثانى ﴾ المأخوذ قهراً ممن لاحرمة له وهو الفىء والغنيمة وسائر أموال الكفار المحاربين وذلك حلال للمسلمين اذا أخرجوا منه الخمس وقسموه بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوه من كافر له حرمة وأمان وعهد *

﴿ الثالث ﴾ ما يؤخذ تراضيا بمعاوضة وذلك حلال اذا روعى فيه الشروط المصححة مع تعبد الشرع من اجتناب الشروط المفسدة *

﴿ الرابع ﴾ ما يحصل من غير اختيار كالميراث وهو حلال اذا كان المورث [illegible]

قد اكتسب من وجه حلال : ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الحج والزكاة والكفارة إن كان واجبا وبقي أقسام أخر ونحن أشرنا الى جملتها ليعلم المريد أن كل ما يأ كلها من جهتها ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل فإنه كما يقال للعالم لِمَ خالفت علمك يقال للجاهل لِمَ لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك ﴿ طَلَبُ العِلمِ فَرِيضةٌ على كلّ مسلم ﴾ *

﴿ درجات الحلال والحرام ﴾

اعلم أن الحرام كلّه خبيث لكن بعضه أخبث من بعض . والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض . وأصفى من بعض . ولذا كان الورع عن الحرام على درجات . فمنه الورع عن كل ما تحرّمه فتاوى الفقهاء . ومنه الورع عما يتطارق اليه احتمال التحريم . ومنه مالا شبهة في حلّه ولكن يخاف منه أداؤه الى محرّم وهو ترك مالا بأس مخافة مما به بأس . ومنه مالا يخاف منه أن يؤدى إلى ما به بأس ولكنه يتناول لغير الله ولا على نية التقوى به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهّلة له كراهية أومعصية *

وقد حكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريكه أربعة آلاف درهم لأنه حاك فى قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به . وكان لبعضهم مائة درهم على إنسان فحملها اليه فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحرى فكلّ ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبّة وما يعطيه يزنه بزيادة حبّة ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس فإن ذلك حلال فى الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجرّ إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع كما تورع بعضهم عن أخذ تراب من حائط بيت كان يسكنه بكراء . وكما روى أن عمر [illegible] كان يوزن بين يديه مسك المسلمين فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال [illegible] ذلك منه وهل ينتفع منه إلا بريحه وسئل عن [illegible]

كان عند محتضر فمات ليلا فقال اطفئوا السراج فقد حدث للورثة حق فى الدهن وأخذ الحسن رضى الله عنه تمرة من تمر الصدقة وكان صغيراً فقال ﷺ ﴿ كخ كخ ﴾ أى ألقها : وتقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن الذى سقاه إياه رفيقه وكان تكهن فأعطى اللبن أجرة له ـ وذلك خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جهل وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأبعد عن أن تترجح كفة سيآته على كفة حسناته : وإذا علمتَ حقيقة الأمر فإليك الخيار فإن شئت فاستكثر من الاحتيـاط وإن شئت فرخص فلنفسك تحتـاط وعلى نفسك ترخص والسلام *

﴿ مراتب الشبهات ﴾

قال ﷺ ﴿ الحَلَالُ بيِّنٌ وَالحَرَامُ بيِّنٌ وَبينهُما أُمُورٌ مُشْتبِهاتٌ لاَ يعلمُها كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتقى الشُّبهات فقَدِ استَبرأَ لِعرْضِهِ ودينهِ ومَنْ وقَعَ فى الشُّبُهاتِ وقَعَ فى الحَرَام كالرَّاعِى حَوْلَ الحِمى يُوشكُ أنْ يقَعَ فِيهِ ﴾ فهذا الحديث نصٌّ فى اثبات الأقسام الثلاثة . والمشكلُ منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة فلا بد من بيانها فان مالا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل فنقول ﴿ الحلال المطلق ﴾ ماخلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه وانحلّ عن أسبابه تحريم أو كراهة *

﴿ والحرام المحض ﴾ هو ما فيه صفة محرّمة لا يشك فيها كالخمر شدته المطربة والبول لنجاسته أو حصل بسبب منهىّ عنه قطعاً كالمحصل بالظلم والربا ونظائره . وهذان طرفان ظاهران ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدلّ عليه . والاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم في نفسه . وأما الشبهة فما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين : وللشبهة مثارات . مثار الأول الشك في سبب المحلل والمحرم فان تعادل الاحتمالان كان الحكم ما عرف قبله فيستصحب

ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب . ولا يتبين هـذا إلا بالأمثال والشواهد فلنقسمه الى أقسام أربعة ﴿القسم الأول﴾ أن يكون التحريم معلوما من قبل ثم يقع الشك فى المحلل فهذه شبهة يجب إجتنابها ويحرم الإقدام عليها ﴿القسم الثانى﴾ أن يعرف الحلّ ويشك فى المحرم فالأصل الحل وله الحكم ﴿القسم الثالث﴾ أن يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله فهذا ينظر فيه فان استند غلبة الظن الى سبب معتبر شرعا فالذى يختار فيه أنه يحل وان اجتنابه من الورع : مثاله أن يرمى الى صيد فيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثر سوى سهمه ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر فالمختار أنه حلال لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق والأصل أنه لم يطرأ عليه غيره فطريانه مشكوك فيه فلا يدفع اليقين بالشك .

﴿القسم الرابع﴾ أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر فى غلبة الظن شرعا فيرفع الإستصحاب ويقضى بالتحريم : مثاله أن يؤدى اجتهاده الى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما توجب منع الوضوء به *

﴿ المثار الثانى للشبهة شك منشؤه الاختلاط ﴾

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز : والخلط أنواع نوع يقع بعدد محصور كما لو اختلطت ميتة بذكية أو بعشر مذكاة أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع لأنه لا مجال للإجتهاد والعلامات في هذا : وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشىء الواحد فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل فضعف الإستصحاب وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع فوجب ترجيحه *

ونوع يقع فيه حرام محصور بحلال غير محصور كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح مَنْ شاء منهن ، وذلك لغلبة الحلّ والحاجة جميعاً اذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح ـ و كذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعا لا يلزمه ترك الشراء والأكل فان ذلك حرج ﴿ وما في الدّين من حرج ﴾ ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله ﷺ مِجَنّ وغل واحد في الغنيمة عباءة لم يمتنع أحد من شراء المجن والعباءة في الدنيا وكذلك كل ما سرق وكذلك كان يعرف أن في الناس من يرابي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله ﷺ ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية ـ وأما اذا اختلط حرام ولا يحصر بحلال لا يحصر كحكم الأموال في زماننا هذا فإنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال إلاّ أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام : وقول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط منشؤه إستكثار النفوس الفساد و إستعظامها له و إن كان نادراً حتى ربما يظن أن الزناة وشرّاب الخمر قد شاعوا كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون و إن كان فيهم كثرة : و بالجملة فالأصل الحل ، ولا يرفع إلا بعلامة معينة ـ

﴿ المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلّل معصية ﴾

كالبيع في وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة و البيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل نهي ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع لأن تناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم ، ومنه كل تصرف يفضي في سياقه الى معصية كبيع العنب من الخمار وبيع السلاح من قطاع الطريق : وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه ، ولا بأس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما

يعصى بالذبح بالسكين المغصوب والذبيحة حلال فانه يعصى عصيان الإعانة على المعصية ولايتعلق ذلك بعين العقد والمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهمّ *

تنبيه

لاينبغى للانسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فانه اذا جاوز مارُسم له وتصرّف بذهنه من غير سماع كان مايفسده أكثر ممايصلحه والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنهمْ يُحْسِنُونَ صُنعا ﴾ ولهذا قال ﷺ ﴿ فَضلُ العالِمِ عَلى العابِدِ كفَضلِي عَلى أدنى رجُلٍ مِن أصحابى ﴾ *

﴿ البحث والسؤال فى الحرام والحلال ﴾

اعلم أن كلَّ من قدّم اليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشترى منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول هذا مما لا أتحقق حلّه فلا آخذه بل أفتش عنه وليس لك أيضاً أن تترك البحث مطلقاً بل السؤال لا بد منه فى مواقع الريبة : ومنشأ الريبة بالنسبة لصاحب المال أن يكون مشكوكا فيه أو معلوما بنوع ظن يستند الى دلالة . وبالنسبة للمال أن يختلط حرامه بحلاله ويكون الحرام أكثر مع يقين وجوده . فاذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجوداً في الحال لم يكن الأكل حراما ولكن السؤال احتياط والامتناع عنه ورع — وانما يُسئل عن صاحب اليد إذا لم يكن متهما فان كان متهما بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال أو بأنه لا ثقة فى خبره بأمانته فيسأل من غيره فاذا أخبره عدل واحد قبله وان أخبره فاسق عرف من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن

المطلوب ثقة النفس والمفتى هو القلب فى مثل هذا الموضع . وللقلب التفاتات الى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه فاذا أطمأن القلب كان الإحتراز حتما واجبا *

﴿ كيفية خروج التائب من المظالم المالية ﴾

إعلم أن كل من تاب وفى يده مال مختلط فعليه وظيفة فى تمييز الحرام واخراجه ، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما *

﴿ النظر الأوّل ﴾ فى كيفية التمييز والإخراج : من تاب وفي يده ماهو حرام معلوم العين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل فعليه تمييز الحرام وإن كان ملتبسا مختلطا فإما أن يكون من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان أو يكون فى أعيان متمايزة كالدور والثياب فان كان فى المتماثلات أو كان شائعا فى المال كله كمن اكتسب المال بتجارة كذَبَ فى بعضها وكمن غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه وفعل ذلك في الحبوب أو الدراهم والدنانير فان كان معلوم القدر مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف ، وإن أشكل فله طريقان الأخذ باليقين والأخرى الأخذ بغالب الظن والورع فى الطريقَ الأولى فلا يستبقى الا القدر الذى يتيقن أنه حلال *

فأما اذا اشتبه دار أو ثوب بأمثالها وكان فيها تفاوت أخذ الحاكم من طالب بيعها قيمة الأنفس وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويوقف قدر التفاوت الى البيان والإصطلاح

﴿ متشبة ﴾

من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة فهو حلال باتفاق العلماء ، وإن علم أن فيه حراما وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحرى وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه اخراج ذلك القدر بالاجتهاد : وقال بعض العلماء لا يلزمه والإثم على المورّث *

﴿ النظر الثانى فى المصرف ﴾ فاذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال إما أن يكون

له مالك معين فيجب الصرف اليه أو الى وارثه ، وان كان غائبا فينتظر حضوره أو الايصال اليه ، وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده الى وقت حضوره واما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عينه ولا يدرى أنه مات عن وارث أم لا فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه وربما لايمكن الرد لكثرة الملاّك فهذا ينبغي أن يتصدق به لئلا يضيع وتفوت المنفعة على المالك وعلى غيره ، وله أن يتصدق على نفسه وعياله اذا كان فقيراً *

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

﴿فضيلة الألفة والأخوة﴾

اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق والتفرّق ثمرة سوء الخلق : فحسن الخلق يوجب التحابّ والتآلف والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر : وحسن الخلق لايخفى في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام اذ قال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وقال النبي ﷺ ﴿أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق﴾ وقال ﷺ ﴿بعثت لأتمم محاسن الأخلاق﴾ . ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة : وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيما اذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع : قال الله تعالى مظهراً عظيم منته على المؤمنين ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ أي بالألفة — وذم التفرقة وزجر عنها فقال تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقال ﷺ ﴿إنّ أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون﴾ وقال ﷺ ﴿المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف﴾ وقال ﷺ ﴿من

أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه ﴾ وعنه ﴿ ما تحابّ إثنان في الله إلاّ كان أحبّهما إلى الله أشدّهما حبّاً لصاحبه ﴾ وعنه ﷺ ﴿ انّ الله تعالى يقول حقّت محبّتي للذين يتزاورون من أجلي وحقّت محبتي للذين يتحابّون من أجلي وحقّت محبّتي للذين يتباذلون من أجلي وحقّت محبّتي للذين يتناصرون من أجلي ﴾ وعنه ﷺ ﴿ إن أحبّكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإنّ أبغضكم إلى الله المشّاؤن بالنّميمة المفرّقون بين الإخوان ﴾ ومن الآثار ما روى عن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال : هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بأىّ عمل عملته ، بأى شهوة تركتها ، بأىّ غيظ كظمته ، بأىّ رحم وصلتها ، بأىّ زلة لأخيك غفرتها ، بأىّ قريب باعدته فى الله ، بأىّ بعيد قاربته فى الله « وقال أيضاً » نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودّة والرحمة عبادة *

﴿ تحقيق المحبة فى الله ﴾

هو أن يحبّ امرء لا يحبه لذاته بل إلى حظوظه الأخروية منه كمن يحب أستاذه لأنه يتوسل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة ـ فهذا من جملة المحبين في الله : وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم فهو محب في الله ، بل الذى يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقرباً إلى الله فأحبّ طباخاً لحسن صنعته فى الطبخ فهو من جملة المحبين فى الله ، وكذلك لو أحبّ من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله ، ولو أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه فى هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله ، ولو أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التى يقصدها فى دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو

محب فى الله — فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسى والمواسّى جميعاً من المتحابين فى الله ، وكذا من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه أو ليولد له منها ولد صالح أو أحب زوجته لأنها آلة الى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله ، وكذا اذا اجتمع في قلبه محبة الله والدنيا كمن أحب من يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال فهو محب في الله . وليس من شرط حب الله أن لا يُحَبّ فى العاجل حظ البتة اذ الدعاء الذى أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ﴿ ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً ﴾ وفى المأثور ﴿ اللّهم انّى أسألك رحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتك فى الدّنيا والآخرة ﴾ ثم اذا قوى الحب فى الله حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل الا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس. وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظا الا فيما هو حظ المحبوب وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كما تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو فى ثلثه أو فى عشره فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا يُعرف درجةُ المحبوب إلا بمحبوب يُترك في مقابلته فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئا مثل أبى بكر الصديق رضي الله عنه فانه سلم ابنته التى هى قرة عينه وبذل جميع ماله: فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عابدا أو أحب شخصاً راغبا في علم أوفى عبادة أوفي خير فانما أحبه فى الله ولله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه *

﴿ بيان البغض فى الله ﴾

اعلم أن كل من يحب فى الله لابد أن يبغض فى الله فانك إن أحببت انسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فان عصاه فلابد أن تبغضه لأنه عاص لله وممقوت عند الله . ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده . وإظهار البغض يكون

بكف اللسان عن مكالمته ومحادثته والإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات اليه أو بالاستخفاف والتغليظ في القول وذلك بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه ـ أما مايجرى مجرى الهفوة التى يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها فالأولى فيه الستر والإغماض ☼

﴿ الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ﴾

إعلم أنه لايصلح للصحبة كل انسان: قال ﷺ ﴿ المرء على دين خليله فلينظر أحدكم مَنْ يُخالِلُ ﴾ ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها فى صحبته . وجملتها أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا حريص على الدنيا ـ أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فالى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتهما وان طالت وقد قيل مقاطعة الأحمق قربان الى الله — وأما حسن الخلق فلابد منه فان من غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن وأطاع هواه فلا خير فى صحبته ـ وأما الفاسق المصر على فسقه فلا فائدة في صحبته بل مشاهدته تهون أمر المعصية على النفس وتبطل نفرة القلب عنها ولأن من لا يخاف الله لاتؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأعراض: قال الله تعالى ﴿ ولاَ تُطِعْ مَنْ أغفَلنا قَلبَهُ عنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَواهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعْرِضْ عَمَّن تولّى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنيا ﴾ وقال تعالى ﴿ واتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أنابَ إِلىَّ ﴾ وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق : وأوصى علقمة ابنه فقال : « يا بُنىَّ اذا عرَضَتْ لكَ إلى صُحبة الرِّجال حاجةٌ فاْصحَبْ مَنْ إِذا خَدَمتَهُ صانك وان صحبتَهُ زانكَ وإن قعدَتْ بك مؤونةٌ مانك إِصحَبْ مَنْ اذا مَددتَ يدك بخير مدَّها وإنْ رأى منك حسنة عدَّها وان رأى سيئةً سدَّها إِصحَبْ مَنْ اذا سألته أعطاك وان سكتَّ ابتداك وان نزلتْ بك نازلةٌ واساك إِصحَبْ مَنْ اذا قلت صدَّق قولك وان حاولتما أمراً آمرك وان تنازعتما آثرك » قال على رضى الله عنه

إنّ أخاك الحق مَنْ كان معك ... ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن اذا ريب الزمان صدَّعك ... شتَّت فيه شمله ليجمعك

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : لاتصحبْ إلا أحد رجلين رجلا ترتفق به في أمر دنياك أو رجلا تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك والإشتغال بغير هذين حمق كبير : وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدري صاحبه فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا ، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا وتطلب صحبة العلماء والحكماء : قال لقمان لابنه : يا بُنيّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر

﴿ حقوق الأخوة والصحبة ﴾

اعلم أن لأخيك عليك حقاً في المال ، وفي الإعانة بالنفس ، وفي اللسان والقلب وفي العفو ، وفي الدعاء ، وفي الوفاء والإخلاص ، وفي التخفيف وفي ترك التكلف والتكاليف ، وذلك يجعلها ثمانية جمل *

﴿ الحق الأول في المال ﴾

روى أن ﴿ مثل الأخوين مثل اليدين تغسل احداهما الأخرى ﴾ وذلك لأنهما يتعاونان على غرض واحد وكذلك الاخوان انما تتم اخوتهما اذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المآل والحال وارتفاع الإختصاص والإستئثار : والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب . أدناها أن تنزله منزلة خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك فاذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه الى السؤال فان أحوجته الى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة الثانية أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته اياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال

والثالثة وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك

وهذه رتبة الصديقين ومنتهى رتبة المتحابين: ومنتهى هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا فان لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن ، وانما الجاري بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها في العقل والدين فقد قال ميمون بن مهران من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور وأما الدرجة الأولى فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين : روى أن عتبة الغلام رحمه الله جاء الى منزل رجل كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك الى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه، وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا . وأما الرتبة العليا فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله ﴿وأَمْرُهُمْ شُورَى بينهم ومِمّا رزقناهم يُنفِقون﴾ أي كانوا خلطاء في الأموال لايميز بعضهم رحله عن بعض، وكان منهم من لايصحب مَنْ قال نعلي لأنه أضافه الى نفسه . ومنهم من كان يعتق أمته اذا حدثته بمجيء أخيه وأخذه من ماله حاجته في غيبته سروراً بما فعل . وقال زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه مايريد بغير اذن قال لا قال فلستم باخوان : وقال ابن عمر رضى الله عنهما أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال أخي فلان أحوج مني اليه فبعث به اليه فبعثه ذلك الإنسان الى آخر فلم يزل يبعث به واحد الى آخر حتى رجع الى الأول بعد أن تداوله سبعة. وقال أبو سليمان الداراني لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من اخواني لاستقللتها له — ولما كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء: قال على رضى الله عنه لعشرون درهما أعطيها أخي في الله أحب الي من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين * ومن أحسن الأخوة الانبساط في بيوت الإخوان كما كان عليه كثير من السلف: وقد قال الله تعالى ﴿أو صديقكم﴾ وقال ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته الى أخيه ويفوض اليه التصرف كما يريد وكان يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

﴿الحق الثانى فى الإعانة بالنفس﴾

وكذلك فى قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة — وهذه أيضا لها درجات فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والإستبشار واظهار الفرح وقبول المنة : قال بعضهم اذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى فان لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية ﴿والموتى يبعثهم الله﴾ وكان فى السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم يتردد كل يوم اليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من ابيهم الا عينه بل كانوا يرون منهم ما لم يروا من أبيهم فى حياته وكان احدهم يتردد الى باب دار أخيه يقوم بحاجته من حيث لا يعرفه أخوه وبهذا تظهر الشفقة والأخوة اذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها : قال ميمون بن مهران من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته : وبالجملة فينبغى أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك وتغنيه عن السؤال الى الإستعانة ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتقلد منه بقبوله سعيك فى حقه وقيامك بأمره : وقال عطاء تفقدوا اخوانكم بعد ثلاث فان كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم ، وقال سعيد بن العاص لجليسي علىّ ثلاث اذا دنا رحبت به واذا حدّث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى ﴿رحماء بينهم﴾ اشارة الى الشفقة والإكرام ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور فى مسرة دونه بل يتنغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه *

﴿الحق الثالث على اللسان﴾

وذلك بالسكوت مرة وبالنطق أخرى ـ أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه فى غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما

يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله واذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأل فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن يكذب فيه . وليسكت عن أسراره التى بثها اليه ولا يبثها الى غيره البتة ولا الى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة والوحشة فان ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن . وأن يسكت عن القدح فى أحبابه وأهله وولده وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه فان الذى سبك من بلغك . ولا ينبغى أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه فان السرور أولا به يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل واخفاء ذلك من الحسد * وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلا الا اذا وجب عليه النطق فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة فى السكوت فاذ ذاك لا يبالى بكراهته فان ذلك احسان اليه فى التحقيق وان كان يظن أنها اساءة فى الظاهر . أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ؛ ويزجرك عنه أمران ﴿ أحدهما ﴾ أن تطالع أحوال نفسك فان وجدت فيها شيئا واحداً مذموماً فهون على نفسك ما تراه من أخيك وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه فى تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ﴿ والأمر الثانى ﴾ أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوىء فاذا غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمنتهى . فالمؤمن الكريم أبداً يحضر فى نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام . وأما المنافق اللئيم فانه أبداً يلاحظ المساوىء والعيوب : قال ابن المبارك « المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات » وقال الفضيل « الفتوة العفو عن زلات الاخوان » . ولذلك قال عليه السلام « استعيذوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره » وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك اساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو

منهى عنه أيضاً ، وحدّه أن لاتحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن يحمل على وجه خير ـ فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فاحمله على سهو ونسيان إن أمكن ، وسوء الظن يدعو الى التجسّس والتحسّس وقد قال ﷺ ﴿ لا تحسّسُوا ولا تجسّسُوا ولا تقاطعُوا ولاتدابرُوا وكُونوا عبادَ الله إخواناً ﴾ والتجسس فى تطلّع الأخبار ، والتحسس بالمراقبة بالعين ، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين. واعلمْ أنه لايتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ؛ ومنشأ التقصير فى ستر العورة أو السعى في كشفها الداء الدفين وهو الحقد والحسد ، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف . وأمره مخطر ، وقلبه خبيث لايصلح للقاء الله ﴿ ومن ذلك ﴾ أن يسكت عن افشاء سره الذى استودعه وله أن ينكره وان كان كاذبا فليس الصدق واجبا فى كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب فله أن يفعل ذلك فى حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لايختلفان الا بالبدن هذا حقيقة الأخوة : وقد قال عليه السلام ﴿ مَنْ سترَ عورةَ أخيه ستره اللهُ تعالى فى الدُّنيا والآخرة ﴾ وقال عليه السلام ﴿ إذا حدَّث الرَّجلُ بحديث ثمَّ التفت فهُو أمانةٌ ﴾ وقال ﴿ المجالس بالأمانة ﴾ وفى رواية ﴿ إنما يتجالسُ المُتجالسان بالأمانة ولا يحلُّ لأحدهما أن يُفشىَ على صاحبه ما يكرهُ ﴾ قيل لبعضهم كيف حفظك للسرّ قال أنا قبره فان صدور الأحرار قبور الأسرار ، وأفشى بعضهم سرّا له الى أخيه ثم قال له حفظت فقال بل نسيتُ ، وقال العباس لابنه عبد الله انى أرى هذا الرجل ـ يعنى عمر رضى الله عنه ـ يقدمك على الأشياخ فاحفظ مني خمساً « لا تفشينَّ له سرّاً ، ولا تغتابنَّ عنده أحداً ولا يجربنَّ عليك كذباً ، ولا تعصينَّ له أمراً ، ولا يطلعنَّ منك على خيانة » فقال الشعبي كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف ﴿ ومن ذلك ﴾ السكوت عن المماراة والمدافعة فى كل ما يتكلم به أخوك : قال ابن عباس لاتمار سفيها فيؤذيك ولا حليما فيقليك وقال ﷺ « مَنْ ترك المراء وهو مبطل بنى له بيتٌ فى

ربض الجنة . ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ﴾ هذا مع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت على الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل ، وانما الأجر على قدر النصب ، وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمناقشة فانها عين التدابر والتقاطع فان التقاطع يقع أولا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان : وقال عليه السلام ﴿ لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا ﴾ وقد قال ﷺ ﴿ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ﴾ وأشد الاحتقار المماراة فان من رد على غيره كلاما فقد نسبه الى الجهل أو الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه ، وكل ذلك استحقار وايغار للصدر وايحاش : وفي حديث أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى فغضب وقال ﴿ ذروا المراء لقلة خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان ﴾ وقال بعض السلف من لاحى الاخوان وماراهم قلت مروءته ، وذهبت كرامته : وقال غيره اياك ومماراة الرجال فانك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم ، قال الحسن : لاتشترى عداوة رجل بمودة ألف رجل — وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا اظهار التميز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه باظهار جهله وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والايذاء والشتم بالحمق والجهل ولا معنى للمعاداة الا هذا فكيف تضام الأخوة والمصافاة : فقد روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ انه قال ﴿ لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ﴾ وقد قال عليه السلام ﴿ إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق ﴾ والمماراة مضادة لحسن الخلق — واعلم أن قوام الاخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة ✱

﴿ الحق الرابع على اللسان بالنطق ﴾

الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضا النطق بالمحاب بل هو

أخص ّ بالأ خوة لأ ن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور وانما يراد بالأخوة ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم ، والسكوت معناه كف ّ الأ ذى فعليه أن يتودد اليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله التى يحب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض واظهار شغل القلب بسببه ، واستبطاء العافية عنه وكذا جملة أحواله التى يكرهها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها وجملة أحواله التى يسر ّ بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له فى السرور بها : فمعنى الأ خوة المساهمة فى السر ّاء والضر ّاء : وقد قال عليه السلام ﴿ إِذا أَحَبّ أَحَدُ كُمْ أَخاهُ فلْيخبرْهُ ﴾ وإِنما أمر بالأخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإِن عرف انك تحبه أحبك بالطبع لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب فى الدين ـ ولذلك علّم النبى ﷺ فيه الطريق فقال ﴿ تَهادُوا تَحابُّوا ﴾ ومن ذلك أن تدعوه بأحب أسمائه اليه فى غيبته وحضوره * قال عمر رضى الله عنه « ثلاث يصفين لك ود ّ أخيك أن تسلّم عليه اذا لقيته أولا وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه اليه » ومن ذلك أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأ سباب في جلب المحبة وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد ّ منه ، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه فى حقك بل على نيته وان لم يتم ذلك وأعظم من ذلك تأثيراً فى جلب المحبة الذبّ عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، فحق الأخوة التشمير فى الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير فى حق الأخوة ... وتمزيق عرضه كالمهاله تمزيق لحمه ... فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع

عنك ، وتمزيق الأعراض أشدّ على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال ﴿ أيحبّ أحدُكم أن يأكُلَ لَحمَ أخيه مَيْتاً ﴾ فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة : وقال بعضهم ماذُكر أخ لي بغيب الا تصورته جالساً فقلت فيه مايحب أن يسمع لو حضر * ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيه الى العلم بأقلّ من حاجته الى المال فان كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وارشاده الى كل ما ينفعه في الدين والدنيا . فان علّمته وارشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوّفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه . ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سرّ لايطلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو فضيحة ، وما كان في السرّ فهو شفقة ونصيحة ، قال ذو النون « لاتصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة » *

ولا تظنن أن في نصح أخيك ايحاشاً لقلبه فان في تنبيهه على ملا يعلمه عين الشفقة وهو استمالة القلوب ـ أعني قلوب العقلاء ـ وأما الحمقى فلا يلتفت اليهم فان من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همّت باهلاكك فان كنت تكره ذلك فما أشد حمقك : والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فانها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشدّ مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة وملك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من أخوانه ويقول رحم الله امرأ أهدى الى أخيه عيوبه ومن كتب بعض [illegible] لأخيه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الايحاش فان علمت أن النصح غير مؤثر فيه وانه مضطر من طبعه الى الاصرار عليه فالسكوت عنه أولى . وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه أمّا مايتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامى عنه . والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء : نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه الى القطيعة فالعتاب فى السرّ خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح . والمكاتبة خير من المشافهة . والاحتمال خير من الكل

﴿ الحق الخامس العفو عن الزلات والهفوات ﴾

هفوة الصديق إن كانت فى دينه فلا بد من التلطف فى نصحه كما قدمنا فن أصرّ فمن السلف من رأى مقاطعته ، ومنهم من رأى إدامة حق مودته و بغض عمله — وأمّا زلته فى حقه مما يوجب ايحاشه فلا خلاف فى أن الأولى العفو والاحتمال بل كل مايحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة: فقد قيل ينبغى أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً فان لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك ما أقساك يعتذر اليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك — وقال الأحنف «حق الصديق أن تحتمل منه ثلاث ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة» ومهما اعتذر اليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فقبل عذره فالمؤمن إن غضب فهو سريع الرضاء * وينبغى أن لا يبالغ فى البغضة عند الوقيعة: قال تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة ﴾ وقال عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . وهو أن تحب [illegible]

﴿ الحق السادس الدعاء للأخ ﴾

[illegible] فى حياته و[illegible] بكل مايحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به كما تدعو [illegible] : [illegible] الرجل لأخيه فى ظهر الغيب قال الملك ولك مثل [illegible] : [illegible] لأخيه فى ظهر الغيب لا ترد : [illegible]

أبو الدرداء يقول: انى لأدعو لسبعين من اخوانى فى سجودى أسميهم بأسمائهم: وكان محمد بن يوسف الأصفهانى يقول: وأين مثل الأخ الصالح أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعّمون بما خلفت وهو منفرد بحزنك مهتمّ مما قدمت وماصرت اليه يدعو لك فى ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى: وعن بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء *

﴿ الحق السابع الوفاء والاخلاص ﴾

ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته الى الموت معه و بعد الموت مع أولاده وأصدقائه فان الحب انما يراد للآخرة فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى: وروى أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه فقيل له فى ذلك فقال ﴿ إِنَّها كانَتْ تأتينا أيَّامَ خَدِيجَةَ وَإِنَّ كَرَمَ العْهد مِنَ الدِّين ﴾ فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه فان فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر لدلالته على قوة الشفقة والحب: ومن ثمرات المودّة فى الله أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا وكيف يحسده وكل ماهو لأخيه فاليه ترجع فائدته و به وصف الله تعالى المحبين فى الله تعالى فقال ﴿ ولا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حاجَةً مما أُوتُوا ويؤثِرُونَ عَلى أنْفسِهِم ﴾ ووجود الحاجة هو الحسد

ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه، والترفع على الاخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم قال الشاعر

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم بالمنزل الخشن

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين [illegible]

[illegible]

وجدتُ مصيبات الزّمان جميعها سوى فرقة الأحباب هيّنة الخطب

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال: لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي :

﴿ ومن الوفاء ﴾ أن لايسمع بلاغات الناس على صديقه -

﴿ ومن الوفاء ﴾ أن لايصادق عدوّ صديقه : قال الشافعى رحمه الله اذا أطاع صديقك عدوّك فقد اشتركا فى عداوتك (١) :

﴿ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف والتكليف ﴾

وذلك بأن لايكلف أخاه مايشق عليه بل يروح سرّه من مهماته وحاجاته ويرفه على أن يحمّله شيئا من أعبائه ، فلا يكلفه القيام بحقوقه بل لايقصد بمحبته الا الله تعالى إستعانة به على دينه واستئناساً بلقائه وتقرباً الى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمّل مؤنته — قال بعضهم من اقتضى من اخوانه مالا يقتضونه منه فقد ظلمهم . ومن اقتضى منهم مثل مايقتضونه فقد أتعبهم . ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم وتمام التخفيف بطىّ بساط التكليف حتى لايستحى منه فيما لايستحى من نفسه : وقال علىّ رضى الله عنه « شرّ الأصدقاء مَنْ تكلّف لك ومَنْ أحوجك الى مداراة وألجأك الى اعتذار » وقال الفضل . انما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه : وكان جعفر بن محمد الصادق رضى الله

(١) أقول ما ألطف ماقاله ابن المقفع في الدرة اليتيمة فى باب الصديق [illegible] : إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما [illegible] إن كان رجلا من اخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من [illegible] وغائبة يطلع عليها لك فأما [illegible] دون ثقتك وإن كان رجلا من غير خاصة اخوانك [illegible] لايصحب ولا يجالس [illegible]

[illegible]

عنهما يقول . أثقل اخوانى علىّ مَنْ يتكلّف لى وأتحفظ منه. وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدى ؛

﴿ ومن التخفيف وترك التكلف ﴾ أن لا يعترض فى نوافل العبادات: كان طائفة من الصوفية يصطحبون على أن أحدهم إن أكل النهار كله لم يقل له صاحبه صُمْ . وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطرْ . وإن نام الليل كله لم يقل له قُمْ . وإن صلّى الليل كله لم يقل له نَمْ . وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان . وقد قيل « مَنْ سقطتْ كُلفتُهُ دامت أُلفتُهُ . ومن خفّتْ مؤنتُهُ دامت مودّتُه » وقال بعضهم . اذا عمل الرجل فى بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به اذا أكل عنده ودخل الخلاء وصلّى ونام. فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هذه الأمور الخمس وإلا فالمساجد أروح لصلاة المتعبّدين فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الأخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط . وقول العرب فى تسليمهم يشير إلى ذلك إذ يقول أحدهم لصاحبه ﴿ مرحباً وأهلاً وسهلا ﴾ أى لك عندنا مَرْحَبٌ وهو السعة في القلب والمكان. ولك عندنا أهلٌ تأنس بهم بلا وحشة لك منا ؛ ولك عندنا سهولةٌ فى ذلك كله أى لا يشتدّ علينا شيء مما تريد. ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه ولا خير فى صحبة مَنْ لا يرى لك مثل ما ترى له. فهذه أقلّ الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال فى رؤية الفضل للأخ : ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا فى عموم المسلمين مذموم: قال ﷺ ﴿ بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشرِّ أنْ يحقِرَ أخاهُ المسلمَ ﴾ ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه فى كل ما يقصده ويقبل إشارتهم : فقد قال تعالى ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ فهذا جامع حقوق الصحبة ، ولا يتم ذلك إلا أن تنزل نفسك منزلة خدمهم فتقيد بحقوقهم جميعَ جوارحك ، أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودّة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت تكلمهم

عليك وكلامهم معك ، وروى أن رسول الله ﷺ كان يعطى كلّ من جلس اليه نصيباً من وجهه لا يظن جليسه إلاّ أنه أكرم الناس عليه : وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجباً مما يحدثونه به ﴿وأمّا السمع﴾ فبأن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه ومصدّقا به ومظهراً للإستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرهقك عارض اعتذرت اليهم *

﴿ وأما اللسان ﴾ فقد ذكرنا حقوقه :ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلاّ بما يفقهون ﴿ وأمّا اليدان ﴾ فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد ﴿ وأمّا الرجلان ﴾ فبأن لا يتقدمهم إلا بقدر مايقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر مايقربونه، ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد *

﴿ خاتمة فى جملة من آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ﴾

قال بعض الحكماء إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا وتوقّر من غير كبر وتواضع فى غير مذلة : وكن في جميع أمورك فى أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم * ولا تنظر في عطفيك ،ولا تكثر الإلتفات ، ولا تقف على الجماعات ، وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وكثرة التمطي والتثاؤب فى وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً .واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته.واسكت عن المضاحك ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا شعرك ولا تصانيفك وسائر مايخصك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل تبذل العبد ولا تلحّ في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم

إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم وخوفهم من غير عنف ولِن لهم من غير ضعف. واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر فى حجتك ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى مَنْ وراءك وإذا هدأ غيظك فتكلم ولا تجعل مالك أكرم من عرضك — واذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطى لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب الى التواضع ، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ولا تجلس على الطريق فإن جلست فأدبه : غض البصر. ونصرة المظلوم .واغاثة الملهوف. وعون الضعيف وارشاد الضال. ورد السلام. واعطاء السائل. والأمر بالمعروف .والنهى عن المنكر والارتياد لموضع البصاق. ولا تبصق فى جهة القبلة : وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك. ومن بُلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه : قال النبى ﷺ ﴿ مَنْ جَلَسَ فى مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فيه لَغَطُهُ فقالَ قبلَ أنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذلكَ : سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحمدِكَ أشهد أنْ لا إلهَ إلاَّ أنت أسْتَغْفِرُكَ وأتُوبُ إليْكَ إلاّ غُفِرَ لَهُ ما كانَ فى مَجْلِسِهِ ذلكَ ﴾ *

﴿ بيان حق المسلم والرحم والجوار ﴾

إعلم أن الإنسان لحاجته لمخالطة مَنْ هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة .وكل مخالط فى مخالطته أدب، و الأدب على قدر حقه وحقه على قدر رابطته ـ إما القرابة وهى أخصها أو أخوة الإسلام وهى أعمها. وينطوى فى معنى الإخوة الصداقة والصحبة : وإما الجوار وإما صحبة السفر والمكتب والمدرس والصداقة أو الأخوة ولكل واحد من هذه الروابط درجات : فللقرابة حق ولكن حق الرحم المحرم آكد : وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد وكذلك حق الجار . ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده . ويظهر التفاوت عند النسبة حتى أن البلدى فى بلاد الغربة يجرى مجرى القريب فى الوطن لاختصاصه بحق الجوار فى البلد وكذلك حق مسلم يتأكد بتأكد المعرفة والاختلاط

﴿حقوق المسلم﴾

﴿هي أن تُسلِّمَ عليه إذا لقيتَهُ﴾ وتجيبه إذا دعاك وتشمته إذا عطس وتعوده إذا مرض وتشهد جنازته إذا مات وتبرّ قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك: ومنها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك: قال ﷺ ﴿مَثلُ المُؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم كمثَلِ الجَسَدِ إذا اشتكي عضوٌ منهُ تداعَى سائِرُهُ بالحُمّى والسَّهَر﴾ وعنه ﷺ ﴿المُؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنْيَانِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضاً﴾ ومنها أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول: قال ﷺ ﴿المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسلمُونَ من لسانهِ ويَدِهِ * والمُؤمنُ مَن أمِنَهُ المُؤمنُونَ على أنفُسِهم وأموالِهم والمُهاجرُ مَنْ هَجَرَ السوءَ واجتَنَبهُ﴾ وعنه ﷺ ﴿لا يحلُّ لمُسلِمٍ أن يُروِّعَ مُسلماً﴾ ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه: قال ﷺ ﴿إنَّ اللهَ أوحَى إليَّ أن تواضعُوا حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ﴾ ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلّغ بعضهم ما يسمع من بعض: ففي الحديث ﴿لا يَدخُلُ الجنَّةَ قتَّاتٌ﴾ ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه: قال ﷺ ﴿لا يحلُّ لمُسلمٍ أنْ يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ يلتقيان فيعرِضُ هذا ويُعرِضُ هذا وخيرُهما الّذي يبدأُ بالسَّلامِ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله. وفي الحديث ﴿ما زَادَ اللهُ رجُلاً بعفوٍ إلاّ عزّاً﴾ ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل. وفي أثر: اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فان أصبتَ أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله. وفي آخر «رأس العقل بعد الدين التودّد الى الناس واصطناع المعروف الى كل برّ وفاجر» ولم يكن أحد يكلم رسول الله ﷺ الاّ أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه — ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا باذنه بأن

يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف — ومنها أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعامله بحسب طريقته — ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان : وفى الحديث ﴿ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لم يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا ولم يَرْحَمْ صغِيرَنَا ﴾ والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفره تلقى بالصبيان ثم يأمر بهم فيرفعون اليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه. ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم : وكان يؤتى بالصبى الصغير ليدعوله بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبى ثم يغسل ثوبه ﷺ بعد — ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً:قال ﷺ ﴿ أَتدرُونَ عَلى مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ ﴾ قالوا ألله ورسوله أعلم : قال﴿ عَلى اللّينِ الهيّنِ السَّهْلِ القَرِيبِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ اتّقوا النَّارَ ولو بشقِّ تمْرَةٍ فمنْ لمْ يجدْ فبكلمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ومنها أن لايعد مسلماً بوعد الاّ ويفى به: وقال رسول الله ﷺ ﴿ الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ ﴾ وقال﴿ الْعِدَةُ دَيْنٌ ﴾ وقال ﴿ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهُوَ مُنافِقٌ وإنْ صامَ وصلَّى. مَنْ إذا حدَّثَ كَذَبَ وإذا وعَدَ أخلفَ وإذا اؤْتُمِنَ خانَ ﴾ .

﴿ ومنها ﴾ أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتى الا بما يحب أن يؤتى اليه قال ﷺ ﴿ يا أبا الدَّرداء أحسِنْ مُجاوَرة مَنْ جاوَرَكَ تكُنْ مؤمناً وأحبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنفسك تكنْ مُسلماً ﴾

﴿ ومنها ﴾ أن يزيد فى توقير من تدلّ هيئته وثيابه على علوّ منزلته فينزل الناس منازلهم *

﴿ ومنها ﴾ أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد اليه سبيلا : قال ﷺ ﴿ أفضلُ الصَّدَقة إصْلاحُ ذاتِ البينِ ﴾ وفى الحديث ﴿ ليس بكذّاب مَنْ أصلَحَ بينَ إثنَينِ فقال خيراً ﴾ وهذا يدل على وجوب الاصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب . ولا يسقط الواجب الا بواجب آكد منه : وقال ﷺ ﴿ كلّ الكذب مكتوبٌ إلاّ أنْ يكذِبَ الرّجلُ في الحَرْبِ فإنّ الحَربَ

خُدعةٌ ، أو يَكذبَ بين اثنين فيُصلحَ بينهما ، أو يَكذبَ لامرأته ليُرضيها ﴾ *

﴿ ومنها ﴾ أن يستر عورات المسلمين كلّهم : وقال ﷺ ﴿ مَنْ ستَرَ على مُسلم ستَرهُ اللهُ تعالى في الدُّنيا والآخرةِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يرَى المؤمنُ مِن أخيهِ عورةً فيسترُها عليهِ إلاّ دخلَ الجنّةَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ يامعشرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ ولم يَدخُلِ الإيمانُ في قلبهِ لا تغتابوا الناسَ ولا تتّبعوا عوراتهم فانّهُ مَنْ يَتّبعِ عورةَ أخيه المُسلمِ يتّبعِ اللهُ عورتَهُ ومنْ يتّبعِ اللهُ عورتَه يَفضحْهُ ولوْ كانَ في جوْفِ بيتهِ ﴾ وروى عن بعض الخلفاء أنه كان يعس من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى ، فتسوّر عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر . فقال ياعدوّ الله أظننتَ أن الله يسترك وأنت على معصيته فقال وأنت أيها الأمير لا تعجل فان كنتُ عصيتُ الله واحدة فقد عصيتَ الله فيّ ثلاثا : قال الله تعالى ﴿ ولا تجسّسُوا ﴾ وقد تجسّستَ وقال الله تعالى ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيُوتَ مِنْ ظهُورِها ﴾ وقد تسوّرتَ عليّ : وقد قال الله تعالى ﴿ لا تدخلُوا بيُوتاً غيرَ بيُوتِكُمْ ﴾ الآية وقد دخلتَ بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال الأمير هل عندك من خير إن عفوت عنك . قال نعم والله لئن عفوت عنّي لا أعود الى مثلها أبداً فعفا عنه وخرج وتركه وقد قال ﷺ ﴿ كُلُّ أُمّتي مُعافاً إلاّ المجاهِرين وإنّ مِنْ المجاهرةِ أن يعملَ الرّجلُ السوءَ سِرًّا ثمّ يُخبِرَ بهِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ من أسمعَ خبر قوم وهم له كارهونَ صُبَّ في أذنه الآنُكُ يومَ القيامة ﴾

﴿ ومنها ﴾ أن يتّقي مواضع التُّهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة فانهم اذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا : قال الله تعالى ﴿ ولا تَسبّوا الّذينَ يدعُونَ من دُونِ اللهِ فيَسبّوا اللهَ عَدْواً بغير علم ﴾ وقال ﷺ ﴿ كيفَ ترَوْنَ مَنْ سبّ أبويهِ ﴾ فقالوا وهل من أحد يسب أبويه فقال ﴿ نعم يَسُبُّ أبويْ غيرهِ فيَسبّونَ أبويْهِ ﴾ وقال عمر رضي الله عنه من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومنّ من أساء به الظن ،

﴿ ومنها ﴾ أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر : قال ﷺ ﴿ إشفعوا تؤجروا ﴾ ×

﴿ ومنها ﴾ أن يبدأ من يلقى بالسلام قبل الكلام . ويصافحه عند السلام قال الله تعالى ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال ﷺ ﴿ والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا دلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ﴾ قالوا : بلى يارسول الله : قال ﴿ أفشوا السلام بينكم ﴾ وعنه ﷺ ﴿ يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم عن القوم واحد أجزأ عنهم ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم : ويروى عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك : وروى أنه ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام : وقال ﷺ ﴿ إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فان بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخيرة ﴾ وروى أن من تمام التحية المصافحة : وقال الحسن ﴿ المصافحه تزيد في الود ﴾ ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به وتوقيراً له : وروى أنه ﷺ أذن في تقبيل يده ورأسه ، والانحناء عند السلام منهى عنه والالتزام والتقبيل قد ورد عند القدوم من السفر ، والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ذلك إبن عباس بركاب زيد بن ثابت : وقال ﷺ ﴿ لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا ﴾ ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف : كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر : فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها : وأما الثانى فجلس خلفهم : وأما الآخر فأدبر ذاهبا : فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لهم ﴿ ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه ﴾ وسلمت أم هانئ على النبى ﷺ فقال ﴿ من هذه ﴾ فقيل له أم هانئ فقال عليه السلام ﴿ مرحباً يا أم هانئ ﴾ ×

﴿ ومنها ﴾ أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر و يرد عنه و يناضل دونه و ينصره فان ذلك يجب عليه بمقتضي أخوة الاسلام : وفى الحديث عن رسول الله ﷺ ﴿ ما مِن امرِئٍ مُسلِمٍ ينصُرُ مسلماً في موضعٍ ينتَهكُ فيه عِرضهُ ويُستحلُّ حرمته الاّ نصرهُ اللهُ فى موطنٍ يُحب فيه نصرهُ ومامن امرئٍ خذَلَ مُسلماً فى موطن تُنتَهكُ فيه حُرمتهُ الاّ خذله اللهُ في موضعٍ يحبُّ فيه نُصْرتهُ ﴾

﴿ ومنها ﴾ تشميت العاطس : قال عليه السلام في العاطس ﴿ يقول الحمد لله على كلّ حال : ويقول الذى يشمته يرحمكم الله ويردُّ عليه العاطس فيقول يهديكم اللهُ ويُصلحُ بالكم ﴾ ويستحب اذا عطس أن يغضّ صوته و يخمر وجهه واذا تثاءب أن يضع يده على فيه *

﴿ومنها ﴾ أنه اذا ُبلى بذى شرّ فينبغى أن يجامله ويتقيه : قال بعضهم خالص المؤمن مخالصة: وخالق الفاجر مخالقةً فإنْ الفاجر يرضي بالخلق الحسن فى الظاهر : وقال أبو الدرداء « إنَّا لَنبشُّ فى وجوه أقوام وأن قلوبنا لتلعنهم » وهذا معنى المداراة وهو مع من يخاف شرّه : قال الله تعالى ﴿ إِدْفعْ بالّتِى هى أحْسن ﴾ قال ابن عباس فى فى معنى قوله تعالى ﴿ ويَدْرؤُون بالحسنة السيئةَ ﴾ أى الفحش والأذى بالسلام والمداراة : وقال فى قوله تعالى ﴿ ولولا دفعُ الله النّاس بَعْضَهُمْ ببعضٍ ﴾ قال بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة : وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال ﴿ إئذَنوا لهُ فبئْسَ رجلُ العشيرة هُو ﴾ فلما دخل ألان له القول حتى ظننتُ أن له عنده منزلة : فلما خرج قلتُ له لما دخل قلتَ الذى قلت ثم ألنتَ له القولَ فقال ﴿ ياعائشةُ إنّ شرّ النّاس منزلةً عندَ الله يومَ القيامة مَن تركه النّاسُ إتّقاءَ فُحْشهِ ﴾ وفى الخبر ﴿ ماوقَى الرّجلُ به عِرْضهُ فهو له صدَقة ﴾ وقال محمد بن الحنفيه : ليس بحكيم من لايعاشر بالمعروف مَنْ لايجد من معاشرته بُدًّا حتّى يجعلَ الله له فرجاً *

﴿ ومنها ﴾ أن يختلط بالمساكين ويحسن الى الأيتام: كان النبى ﷺ يقول ﴿ اللهمّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشُرني فى زمرة المساكين ﴾ وقد روى أن سليمان عليه السلام فى ملكه كان اذا دخل المسجد فرأى مسكيناً جلس اليه وقال مسكينٌ جالسَ مسكيناً : وفى الخبر ﴿ لا تَغبطنّ فاجراً بنعمة فانّك لاتدرى إلامَ يصيرُ بعد الموْت فإنّ منْ ورائه طالبا حثيثا ﴾

﴿ وأما اليتيم ﴾ فقال ﷺ ﴿ من ضمّ يتيما حتىّ يستغنى فقد وجَبتْ لهُ الجنّةُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ أنا وكافِلُ اليتيم كهاتين ﴾ وهو يشيرُ بأصبعيه: وقال ﷺ ﴿ مَنْ وَضعَ يَدهُ على رأس يتيم ترحماً كانتْ لهُ بكلّ شعرة تمرُّ عليها يدهُ حسنةٌ ﴾ وقال ﷺ ﴿ خيرُ بيتٍ من المُسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسنُ اليه وشرُّ بيت من المسلمين بيت فيه يتيمٌ يُساء اليه ﴾

﴿ ومنها ﴾ النصيحة لكل مسلم والجهد فى إدخال السرور على قلبه قال ﷺ ﴿ لا يُؤْمنُ أحدُكم حتّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه ﴾ وعنه مَنْ أقرَّ عين مؤمنٍ أقرَّ اللهُ عينهُ يوم القيامة ﴾ وعنه ﴿ مَنْ فرَّج عنْ مؤمن مغمُوم أو أعان مظلوما غُفر لهُ ﴾ وعنه ﴿ إنّ مِنْ أحب الأعمال الى الله إدخالَ السّرور على قلب المؤمن وأن يُفرِّج عنهُ غمًّا أو يقضى عنهُ دينًا أو يطعمهُ من جُوع ﴾

﴿ ومنها ﴾ أن يعود مرضاهم ، وأدب العائد خفّة الجلسة وقلة السؤال واظهار الرقة والدعاء بالعافية . وغضُّ البصر عن عوارت الموضع . وعند الإستئذان لايقابل الباب . ويدقّ برفق . ولا يقول أنا اذا قيل له مَن : وفي الحديث عنه ﷺ ﴿ اذا عاد المسلمُ أخاهُ أوزارهُ قال اللهُ تعالى طِبْتَ وطاب ممشاكَ وتبوأتَ منزلا فى الجنّة ﴾ وعن عثمان رضى اللهُ عنه قال مرضت فعادنى رسول الله ﷺ فقال ﴿ بسم الله الرّحمن الرّحيم ٭ أعيذُك بالله الأحد الصّمد الّذى لم يلد ولمْ يولد ولم يكنْ له كفواً أحد من شرّ ما تجدُ [illegible] ويستحبّ [illegible]

أن يقول أعوذ بعزة الله وقدرته من شرّ ما أجد : وقال طاووس : أفضل العيادة أخفّها : وجملة أدب المريض حسن الصبر ، وقلة الشكوى والضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء *

﴿ ومنها ﴾ أن يشيّع جنائزهم .قال ﷺ ﴿ منْ شيّع جنازةً فلهُ قيراطٌ من الأجر فإن وقف حتّى دُفن فلهُ قيراطان والقيراط مثلُ أحدٍ ﴾ — جبل عظيم في المدينة المنورة — والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والإعتبار

﴿ ومنها ﴾ أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والإعتبار وترقيق القلب قال ﷺ ﴿ما رأيتُ منظراً إلاّ والقبرُ أفظعُ منه ﴾ وعن حاتم الأصم : من مرّ بالمقابر فلم يتفكر ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم : وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلمّا نظر إلى القبور بكى وقال : ياميمونُ هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم أماتراهم صرعى قد خلّت بهم المثلات . وأصاب الهوام من أبدانهم ثم بكى ، وقال والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله *

﴿و آداب المعزّى﴾ خفض الجناح .و إظهار الحزن . و قلّة الحديث . و ترك التبسم *

﴿وآداب تشييع الجنازة﴾ لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكر في الموت والاستعداد له . والاسراع بالجنازة سنة — فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق ﴿ والجملة الجامعة فيه ﴾ أن لا تستصغر منهم أحداً حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدرى لعله خير منك فإنه وإن كان فسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويُختم له بالصلاح : ولا تنظر اليهم في حال دنياهم بعين التعظيم فان الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم ولا تعادهم بحيث تظهر المعاداة إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادى أفعالهم القبيحة ولا تسكن اليهم في مناتهم

عليك فى وجهك وحسن بشرهم لك فقد لا يكون لذلك حقيقة باطنا ، ولا تشك اليهم أحوالك فيكلك الله اليهم ولا تطمع أن يكونوا لك فى الغيب والسرّ كما فى العلانية فذلك طمع كاذب: ولا تطمع فيما فى أيديهم فتستعجل الذل ، وإذا سألت أخا منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد ، وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته: ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك : وليكن وعظه عرضا واسترسالا من غير تنصيص على الشخص : وإذا بلغك منهم غيبة أو رأيت منهم شراً فكِلْ أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم: ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر وكن فيهم سميعاً لحقهم أصمّ عن باطلهم نطوقا بحقهم : واحذر صحبة أكثر الناس فانهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير. ولا تعوّل على مودة من لم تخبره حق الخبرة بأن تصحبه مدة فتجربه في أحواله أو تعامله بالدينار والدرهم أو تقع فى شدة فتحتاج اليه أو تسافر معه فان رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أبا لك إن كان كبيراً ، وإبنا لك إن كان صغيراً ، أو أخا إن كان مثلا لك ـ فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق *

﴿ حقوق الجوار ﴾

إعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كلّ مسلم وزيادة إذ قال النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ الجيرانُ ثلاثةٌ جارٌ لهُ حق واحدٌ وجارٌ لهُ حقّانِ وجارٌ لهُ ثلاثةُ حُقوق فالجارُ الذى لهُ ثلاثةُ حقوق جارُ المسلمُ ذو الرّحِمِ فله حقُّ الجِوَارِ وحقُّ الإسلام وحقُّ الرّحِم وأمّا الذى لهُ حقّان فالجارُ المسلمُ لهُ حقُّ الجوار وحقُّ الإسلام وأمّا الذى لهُ حقٌّ واحدٌ فالجارُ المشركُ ﴾ فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار : وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أحسنْ مجاورةَ مَنْ جاورك تكنْ مسلماً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ مازالَ جبريلُ يوصّيني بالجارِ حتّى ظننت

أنه سيورثه ﴾ وقال ﷺ ﴿ من كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرم جارَهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يُؤمنُ عبدٌ حتى يأمنَ جارُهُ بوائقه ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يمنعنَّ أحدُكم جارَهُ أن يغرزَ خشبةً في جداره ﴾ وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمينّها بين أكتافكم : وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك : وقيل لرسول الله ﷺ إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها : فقال ﷺ ﴿ هي في النّار ﴾ وعن النبي ﷺ ﴿ أربعون داراً جارٌ ﴾ قال الزهري يعني أربعين عن يمينه ويساره وخلفه وبين يديه : واعلم أنه ليس حق الجوار كفّ الأذى فقط بل احتمال الأذى بل لابد فوقه من الرفق وإسداء الخير والمعروف : وحكي أن ابن المقفع بلغه أن جاراً له يبيع داره في دين ركبه وكان يجلس في ظل داره فقال ماقمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً فدفع اليه ثمن الدار وقال لاتبعها : وجملة حق الجار أن يبدأ بالسلام . ولا يكثر عن حاله السؤال . ويعوده في المرض . ويعزّيه في المصيبة . ويقوم معه في العزاء . ويهنئه في الفرح . ويظهر الشركة في السرور معه . ويصفح عن زلاته . ولا يطلع من السطح الى عوراته . ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره . ولا يضيق طريقه الى الدار . ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ويستر ماينكشف له من عوراته . وينعشه من صرعته اذا نابته نائبة ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته . ولا يسمع عليه كلاما . ويغضّ بصره عن حرمته ولا يديم النظر الى خادمته . ويتلطف لولده في كلمته ويرشده الى مايجهله من أمر دينه ودنياه — هذه جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين

﴿ حقوق الأقارب والرّحم ﴾

قال رسول الله ﷺ ﴿ يقولُ اللهُ تعالى أنا الرّحمنُ وهذه الرّحِمُ شققتُ لها اسماً من اسمي فمَنْ وصلَها وصلتُه ومَنْ قطعها قطعتُه ﴾ وقيل لرسول الله ﷺ أيّ الناس أفضل . قال ﴿ أتقاهم للهِ وأوصلُهم لِرحِمهِ وآمرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ﴾ وقال ﷺ ﴿ الصدقة على المسكين صدقةٌ وهي على ذي الرّحم ثنتان صدقةٌ وصلة ﴾

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملا بقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال يارسول الله هي في سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام ﴿ وجب أجرك على الله واقسمه في أقاربك ﴾ *

﴿ حقوق الوالدين والولد ﴾

لايخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها : قال ﷺ ﴿ بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك ﴾ وقال رجل يارسول الله هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما قال ﴿ نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما ﴾ وقال ﷺ ﴿ إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب ﴾ وعنه ﷺ ﴿ رحم الله والداً أعان ولده على بره ﴾ أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله وعنه ﷺ ﴿ ساووا بين أولادكم في العطية ﴾ وعنه أيضا ﴿ من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه ﴾ ويستحب الرفق بالولد ، رأى الأقرع بن حابس رسول الله ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم : فقال عليه السلام ﴿ إن من لايرحم لايرحم ﴾ وقال معاوية للأحنف بن قيس : ماتقول في الولد : قال يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن طلبوا فاعطهم ، وإن غضبوا فارضهم يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم قفلا ثقيلا فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك ، فقال معاوية لله أنت ياأحنف لقد أرضيتني عمن سخطت عليه من ولدي . ووصله بعطية عظمى .

واعلم أن أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض . وليس للولد أن يسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما : وقال ﷺ ﴿ حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده ﴾

كتاب العزلة والمخالطة

إعلم أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها كالمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم. والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع الأخلاق الرّديئةَ والأعمالَ الخبيثةَ من جلساءِ السوء إلى غير ذلك — وأما أكثر السلف فذهبوا إلى إستحباب المخالطة وإستكثار المعارف والإخوان والتآلف والتحبب إلى المؤمنين والإستعانة بهم فى الدين تعاونا على البرّ والتقوى ، وإن فوائد العزلة المتقدمة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة ومغالبة النفس : وبالجملة فللمخالطة فوائد عظيمة تفوت بالعزلة: فإن قلت ماهي فوائد المخالطة والدواعي اليها فاعلم: أنها هى التعليم والتعلّم . والنفع والانتفاع. والتأديب والتأدب . والاستئناس والإيناس ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق . أو إعتياد التواضع . أو إستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والإعتبار بها *

﴿ فأما العلم والتعليم ﴾ فهما أعظم العبادات فى الدنيا ولايتصور ذلك إلا بالمخالطة والمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة. ومن كان يقدر على التبرّز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره : تفقه ثم اعتزل . ومن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ولاينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور ويكونُ فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العبّاد . فالعلم هو أصل الدين ولا خير فى عزلة العوام والجهال ﴿ وأما التعليم ﴾ ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم *

﴿ وأما الانتفاع بالناس ﴾ فبالكسب والمعاملة إذ لا يتأتى إلا بالمخالطة. ومن اكتسب من وجهه وتصدق منه كان أفضل من المعتزل المشتغل بالنافلة *

﴿ وأما النفع ﴾ فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة فى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليه مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل له من العزلة *

﴿ وأما التأديب بنصح الغير والتأدب ﴾ ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات فهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة *

﴿ وأما الإستئناس والايناس ﴾ فهو مستحب لأمر الدين وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين. وقد يتعلق بحظ النفس. ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعى النشاط فى العبادة فإن القلوب إذا كربت عميت. والنفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح وفى تكليفها الملازمة راعية للفترة: وقد قال ابن عباس «لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس» فلا يستغنى المعتزل إذن عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة فليجتهد في طلب مَنْ لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائرَ ساعاته. فقد قال ﷺ ﴿ المَرء على دين خليله فلينظُرْ أحدُكم مَنْ يُخالِلُ ﴾ وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين والقصور عن الثبات على الحق: ففى ذلك متروّح للنفس وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه *

﴿ وأما نيل الثواب ﴾ فبحضور الجنائز وعيادة المرضي وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضاً لا رخصة فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نادراً. وكذلك في حضور الإملاك والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم *

﴿ وأما إنالة الثواب ﴾ فهو أن يأذن بعيادته وتعزيته فى المصائب وتهنئته بالنعم فإنهم ينالون بذلك ثواباً. فينبغي أن يزن ثواب هذه الآفات التى ذكرناها وعند ذلك قد تُرَجِّحُ العزلة وقد ترجح المخالطة

﴿ وأما التواضع ﴾ فإنه من أفضل المقامات ولايقدر عليه في الوحدة وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة أو مخافة أن لا يوقَّر في المحافل أو لايُقدَّم أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى على اعتقاد الناس في تعبده وزهده وعلامة هؤلاء انهم يحبون أن يزاروا ولايحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والأمراء اليهم ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغض اليه المخالطة وزيارة الناس لبغض اليه زياراتهم له ولكن اعتزاله سببه شدة اشتغاله بالناس لأن قلبه متجرد للإلتفات الى نظرهم اليه بعين الوقار والإحترام والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ﴿ أحدها ﴾ ان التواضع والمخالطة لا تنقص عن منصب مَنْ هو متكبر بعلمه أو دينه ﴿ الثانى ﴾ ان الذى شغل نفسه بطلب رضاء الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا وأن ضرره ونفعه بيد الله بل رضاء الناس غاية لاتنال. فرضاء الله أولى بالطلب ولذلك قال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى . والله ما أقول لك الا نصحا انه ليس الى السلامة من الناس من سبيل فانظر ما ذا يصلحك فافعله فاذن من حبس نفسه فى البيت لتحسن اعتقادات الناس فيه فهو فى عناء حاضر فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . وبالجملة فلا تستحب العزلة الا لمستغرق الأوقات فى علم بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته أو كثرت آفاته .

﴿ وأما التجارب ﴾ فانها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم. والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا وانما تفيدها التجربة والممارسة ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب: فالصبى اذا اعتزل بقى غمراً جاهلا بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج اليه من التجارب ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال وبالجهل يحبط العمل الكثير . وبالعلم يزكو العمل [illegible] ذالك ما فضل العالم على ال[illegible] ى التمرة [illegible] بل العالم [illegible]

العابد حتى قال ﷺ ﴿ فضلُ العالِمِ على العابِدِ كفضلي على أدنى رجلٍ مِنْ أصحابي ﴾ اذا عرفت ما تقدم من الفوائد والآفات يتبين لك الأفضل من المخالطة والعزلة . وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال*

كتاب آداب السفر

إعلم أن كل من سافر وكان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة . وكان له في سفره شروط وآداب ان أهملها كان من عمّال الدنيا وأتباع الشيطان.وإن واظب عليها لم يخل سفرُه عن فوائد تلحقه بأعمال الآخرة . واليك جملة من أقسام الأسفار

﴿ القسم الأول ﴾ السفر في طلب العلم وهو إمّا واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك العلم إما علم بأمور دينية أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه . وقد قال عليه السلام « مَن خرجَ مِنْ بيته في طلب العلْم فهوْ في سبيل الله حتّى يرْجعَ » ورَحلَ جابر بن عبد الله من المدينة مسيرةَ شهر في حديث عن رسول الله ﷺ بلغه عن عبد الله بن أنيس حتى سمعه عنه:وقال الشعبي لو سافر رجل من الشام الى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا ـ وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك مهم فان مَنْ لايطلع على خبائث صفاته لايقدر على تطهير القلب منها. والنفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات واذا امتحنت بمشاق الغربة وقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعيوبها ـ وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر ففيها قِطَعٌ متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار . وأنواع الحيوان والنبات.وما من شيء منها الا وهو شاهد لله بالوحدانية*

﴿ القسم الثانى ﴾ أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد ، وفى الحديث ﴿ لا تُشدُّ الرِّحالُ الاّ الى ثلاثةِ مساجدَ مسجدى هذا والمسْجدِ الحرام والمسجد الأقصى ﴾

﴿ القسم الثالث ﴾ أن يكون السفر للهرب من سبب مشوّش للدين وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين . وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن — وروى أن بعضهم قيل له الى أين قال بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها فقيل له وتفعل هذا قال نعم اذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فانه أسلم لدينك وأقلّ لهمك . وهذا هرب من غلاء السعر

﴿ القسم الرابع ﴾ السفر هربا مما يقدح فى البدن كالطاعون أوفى المال كغلاء السعر أو ما يجرى مجراه. ولا حرج فى ذلك بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد أو استحبابه ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغى أن يفرّ منه لورود النهى فيه ﴿ وبالجملة ﴾ فالسفر ينقسم إلى مذموم ومحمود ومباح. والمذموم منه حرام كالسفر للعاقّ لوالديه. ومنه مكروه كالخروج من بلد الطاعون والمحمود منه واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم

ومنه مندوب كزيارة العلماء للتخلق بأخلاقهم وآدابهم وتحريك الرغبة للإقتداء بهم واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم — وأما المباح فمرجعه إلى النية فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفّف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة : ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة خرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ ﴿ الأعمالُ بالنيّات ﴾

﴿ آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه ﴾

﴿ الأدب الأول ﴾ أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته وبردّ الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب. وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه. ولا بد فى السفر من طيب الكلام. وإطعام الطعام. ومن إظهار مكارم الأخلاق والسفر من أسباب الضجر ومن أحسن خلقه فى الضجر فهو الحسن الخلق. وتمام حسن خلق المسافر بالإحسان إلى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن وإعانة المنقطع بمركوب أو زاد وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة فى بعض الأوقات من غير فحش ومعصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه

﴿ الثانى ﴾ أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده « فالرفيق ثم الطريق » وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسى ويعينه ويساعده إذا ذكر فان المرأ على دين خليله. ولا يعرف الرجل إلا برفيقه. وقد نهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده: وقال ﴿ إذا كُنتمْ ثلاثةً فى السَّفر فأمِّرُوا أحدَكم ﴾ وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم الى الإيثار وطلب الموافقة. وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف فى مصالح السفر ولا نظام الا فى الوحدة ولا فساد إلا من الكثرة. وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ ولو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفَسدتَا ﴾

﴿ الثالث ﴾ أن يودّع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء. وليدع عند الوداع بقوله لمودعه: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيمَ عملك وليدع المقيم له بقوله: زوّدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت. وليصلّ المسافر قبل سفره ركعتين صلاة الاستخارة: وإذا حصل على باب الدار فليقل « بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلاّ بالله ربّ أعوذ بك أن أَضِلّ أو أُضَلّ أو أَزِلّ أو أُزَلّ أو أَظلم أو أُظلم أو أَجهل أو يُجهل علىَّ » فاذا ركب فليقل ﴿ سبحان الذّى سخّر لنا هذا وما كنّا له مُقرِنين وإنّا الى ربّنا لمنقلبون ﴾

﴿ الرابع ﴾ أن يرفق بالدابة إن كان راكباً فلا يحملها ما لا تطيق ولا يضربها فى

وجهها فانه منهى عنه . ويستحب أن ينزل عن الدابة أحياناً يروحها بذلك ويدخل السرور على المكارى ويروض بدنه حذراً من خدر الأعضاء بطول الركوب . وليحذر أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف فإن القليل يجر الى الكثير : قال رجل لابن المبارك وهو على دابة احمل لى هذه الرقعة الى فلان فقال حتى استأذن المكارى فانى لم أشارطه على هذه الرقعة ، فانظر كيف لم يلتفت الى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن سلك طريق الورع ﴿ الخامس ﴾ أن يحتاط ان كان في قافلة فلا يمشي منفرداً لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم. وينبغي أن يتناوب الرفقاء فى الحراسة بالليل وأن يستصحب مرآة ومقراضاً ومسواكا ومشطاً: وليحذر التنطع فى الطهارة فقد كان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء ولا يبالون بالوضوء من الغدران . ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضأ عمر رضى الله عنه من ماء فى جرة نصرانية ﴿ السادس ﴾ فى آداب الرجوع من السفر: كان النبى ﷺ اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات. ويقول ﴿ لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له لهُ الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق اللهُ وعدهُ ونصر عبدهُ وهزم الأحزابَ وحدهُ ﴾ ثم يرسل الى المدينة من يبشر بقدومه .وكان ﷺ ينهى أن يطرق المرء أهله ليلا فيقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه . وكان ﷺ اذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت. وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فإن الأعين تمتد الى القادم من السفر والقلوب تفرح به فيتأكد الإستحباب في تأكيد فرحهم واظهار التفات القلب فى السفر الى ذكرهم بما يستصحب في الطريق لهم «هذه جملة من الآداب الظاهرة»

﴿ وأما الآداب الباطنة ﴾ ففى الفصل الأول بيان جملة منها وجملته أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة في علمه فى السفر وينوى في دخول كل بلدة أن يرى

شيوخها الحكماء ويجتهد أن يستفيد من كل واحد أدباً أو كلمة لينتفع بها وينفع بها، وإذا قصد زيارة أخ له فلا يقم عنده أكثر من ثلاثة أيام فذلك حد الضيافة إلا اذا شق على أخيه مفارقته ولا يشغل نفسه بما لا فائدة فيه فإن ذلك يقطع بركة سفره *

﴿ ما لا بدّ للمسافر من تعلّمه من رخص السفر ﴾

إعلم أن المسافر يحتاج فى أول سفره الى أن يتزود لدنياه وآخرته ﴿ أما زاد الدنيا ﴾ فالطعام والشراب وما يحتاج اليه من نفقة فان خرج من غير زاد فلا بأس به اذا كان سفره فى قافلة أو بين قرى متصلة. وان ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب فان كان ممن يصبر على الجوع « اسبوعا أو عشرا » مثلا أو يكتفى بالحشيش فله ذلك وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية فانه ألقى نفسه بيده الى التهلكة وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية والا لوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء فى فيه *

وأما زاد الآخرة فهو العلم الذى يحتاج اليه فى طهارته وصومه وصلاته وعبادته وذلك أن السفر يفيد فى الطهارة رخصتين مسح الخفين والتيمم . وفي صلاة الفرض رخصتين القصر والجمع . وفى النفل رخصتين أداءه على الراحلة وأداءه ماشياً . وفي الصوم رخصة واحدة وهى الفطر ﴿ فأما المسح ﴾ على الخفين (١) فقال صفوان بن عسال — أمرنا رسول الله ﷺ اذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن — فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً أو يوما وليلة إن كان مقيما *

﴿وأما التيمم﴾ فالتراب بدل عن الماء عند العذر كبعده عن منزله بحيث لو مشى اليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو إستغاث . أو نزل على الماء عدو أو سبع .

(١) مثله فى ذلك الجورب إن منعلين كانا أولا صفيقين أولا اهـ

أو احتاج اليه لعطشه أو عطش أحد رفقائه . فيتيمم فى هذه الصور . وإن بيع الماء بثمن المثل لزمه الشراء أو بغبن لم يلزمه *

﴿ وأما القصر ﴾ فله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين: ولا يصير مسافراً إلا بمفارقة عمران البلد -

﴿ وأما الجمع ﴾ بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء فى وقتيهما فذلك أيضا في كل سفر طويل مباح وفى جوازه فى السفر القصير قولان ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر . وليؤذن للظهر وليقم، وعند الفراغ يقيم للعصر وإن أخر الظهر إلى العصر فيجرى على هذا الترتيب

﴿ وأما النافلة ﴾ فقد جوز أداؤها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها وكان صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته أينما توجهت به دابته: وأوتر عليه السلام على الراحلة وليس على المتنفل الراكب فى الركوع والسجود إلا الإيماء. ويجعل سجوده أخفض من ركوعه ﴿ وأما استقبال القبلة ﴾ فلا يجب لا فى ابتداء الصلاة ولا فى دوامها: ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة - فليكن فى جميع صلاته إما مستقبلا للقبلة أو متوجها فى صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها - وجوز له أيضا التنفل له ماشيا : فيومئ بالركوع والسجود ولا يقعد للتشهد وحكمه حكم الراكب: لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلا للقبلة . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلى الفريضة راكبا أو ماشيا كما ذكرناه فى التنفل *

﴿ وأما الفطر فى رمضان للمسافر ﴾ فهو مرخص فيه والصوم أفضل له إلا إن كان يضره فالإفطار له أفضل *

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ـ والمهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين . لوطُوىَ بساطه وأهمل علمُه وعمله . لفشت الضلالةُ وشاعت الجهالة ، وخربت البلاد . وهلك العباد فنعوذ بالله أن يندرس من هذا القطب عمله وعلمه . وأن ينمحى بالكلية حقيقته ورسمه . وأن تستولى على القلوب مداهنة الخلق وتنمحى عنها مراقبة الخالق . وأن يسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم . وان يعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لاتأخذه فى الله لومةُ لائم فلا معاذ الا به ولا ملجأ الا اليه *

﴿ينحصر هذا الكتاب فى مقاصد﴾

﴿وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر﴾

﴿وفضيلته والمذمة فى إهماله﴾

دلّ على ذلك من الآيات قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ وَيَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وأولئكَ هُمُ المُفلحون ﴾ ففى الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر بقوله ﴿ وأولئك هُم المفلحُون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لافرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين : وقال تعالى ﴿ والمؤْمنونَ والمؤْمناتُ بعضُهم أولياء بعض يأمُرُون بالمعرُوف . ويَنهوْنَ عن المنكر ويُقيمونَ الصَّلاةَ ﴾ فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف. فالذى هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية : وقال تعالى ﴿ لُعِنَ الَّذينَ كفرُوا مِنْ بَنِى اسْرائيل على لِسانِ داوُد وعيسى بن مرْيَمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُونَ كانوا لا يتناهوْنَ عن منكر فعلوه لبئسَ ما كانوا

يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علل إستحقاقهم للعنة بتركهم النهى عن المنكر وقال عز وجل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ بين أنهم كانوا خير أمة : وقال تعالى ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء.وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون والحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الامكان . وقال تعالى ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم أثموا بترك النهى : وقال تعالى ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ الآية فبين انه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين : وقال تعالى ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾

ومن الأخبار ماروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه .عن النبى ﷺ أنه قال ﴿ ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل ألا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ﴾ وقد روى في ذلك من الأحاديث مالا يحصى ـ و بهذه الأدلة يظهر كون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجباً .وان فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به *

﴿ الشروط التى بها يتحقق التصدى للإنكار ﴾

﴿ الأول كونه منكراً ﴾ وهو ما كان محذور الوقوع فى الشرع [illegible]

المعصية فان من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق الخمر وكذا إن رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه وليس ذلك معصية فى حق المجنون . ولا يختص المنكر بالكبائر بل كشف العورة فى الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنها *

﴿ الثانى ﴾ أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس . فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لايجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية ولا أن يتجسس عليه : وقد نهى الله تعالى عنه في قوله ﴿ ولاتجسَّسُوا ﴾ وكذا لو رؤى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجز أن يكشف عنه *

﴿ الثالث ﴾ أن يكون كونه منكراً معلوما بغير اجتهاد . فكل ماهو في محل الاجتهاد فلا انكار فيه فليس للحنفى أن ينكر على الشافعي ماهو من مجارى الاجتهاد يعنى المسائل المختلف فيها بين الأئمة إذ لايعلم خطأ المخالف قطعاً بل ظناً . فلا بد أن يكون المنكر متفقا عليه وكذا انما ينكر على الفرق المبتدعة في خطئهم المعلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظانّ الاجتهاد

﴿ درجات القيام بالإنكار ﴾

﴿ الأولى التعريف ﴾ أى تعريف المزجور أن مايفعله منكر فانه قد يقدم عليه بجهله فلعله اذا عرف أنه منكر تركه فيجب تعريفه باللطف من غير عنف فان فى التعريف كشفاً للعورة وإيذاءً للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فتقول له إن الانسان لايولد عالما ولقد كنا جاهلين فعلّمنا العلماء فالصواب هو كذا وكذا فيتلطف به هكذا ليحصل التعريف من غير إيذاء فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محظور وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول. ومن آذى بالإنكار فهذا مثاله

﴿ الدرجة الثانية ﴾ النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً كالذى يواظب على الشرب أو على [illegible]

على اغتياب المسلمين أو ما يجرى مجراه فينبغى أن يوعظ ويخوّف بالله تعالى. وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين. وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب بل ينظر اليه نظر المترحم عليه

﴿ الدرجة الثالثة ﴾ التعنيف بالقول الغليظ وذلك عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادىء الإصرار والإستهزاء بالوعظ والنصح وذلك مثل قول ابراهيم عليه السلام ﴿ أُفٍ لَكُم وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ أَفَلاَ تَعقِلونَ ﴾ ولا يعنى فى سبّه — ولهذه الرتبة أدبان ﴿ أحدهما ﴾ أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف ﴿ والثانى ﴾ أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطيل لسانه بما لا يحتاج اليه بل يقتصر على قدر الحاجة *

﴿ الدرجة الرابعة ﴾ التغيير باليد وذلك كإراقة الخمر وإتلاف المنكر المتمول أو دفعه عن محرّم. وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع — وأمّا الإراقة والإتلاف فالى الولاة ومأذونيهم كالضرب والحبس

﴿ آداب القائم بالأمر والنهى ﴾

جملتها ثلاث صفات العلم، والورع، وحسن الخلق ﴿ أما العلم ﴾ فليعلم موقع الأمر والنهى ليقتصر على حدّ الشرع فيه ﴿ وأما الورع ﴾ فليردعه عن مخالفة معمولة ولا يحمله على مجاوزة الحدّ المأذون شرعا غرض من الأغراض وليكون كلامه مقبولا فان الفاسق يهزأ به إذا أمر أو نهى ويورث ذلك جراءة عليه ﴿ وأما حسن الخلق ﴾ فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأساسه. والعلم والورع لا يكفيان فيه فان الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق. وبوجود هذه الصفات الثلاث يصير الاحتساب من القربات وبه تندفع المنكرات وإن فقدت لم يندفع المنكر. ويحكى أن المأمون وعظه واعظ وعنف له فى القول. فقال يارجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك الى من هو شرّ منى. وأمره بالرفق فقال تعالى ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لعله

يتذكّر أو يخشى » فليكن اقتداء المرشد في الرّفق بالأنبياء صلوات الله عليهم *

﴿ المنكرات المألوفة في العادات ﴾

﴿ منكرات المساجد ﴾

إعلم أن المنكرات تنقسم الى مكروهة ومحظورة فاذا قلنا هذا منكر مكروه: فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بحرام وإذا قلنا منكر محظور أو قلنا منكر مطلقا فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً فمما يشاهد كثيراً في المساجد اساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهي عنه : ومنْ رأى مسيئاً في صلاته فسكتَ عليه فهو شريكهُ : ومنها قراءة القرآن ملحونة فيجب النهي عن ذلك وتلقين الصحيح . والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمنع عن القراءة قبل التعلم فانه عاص به: ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته فذلك منكر مكروه :ومنها كلام القصّاص والوعّاظ الذين يمزجون كلامهم الكذب والأضاليل والخرافات فيجب الإنكار عليهم — ومنها التحلّق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وانشادهم الأشعار وما يجرى مجراه فكل ذلك منكر يمنعون منه — ومنها بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الخياطه فيطلب المنع منه لأن المساجد لم تبن لهذا — ومنها دخول المجانين — المعروفين الآن بالمجاذيب — والصبيان والسكارى فانهم يجسون المسجد — وقد أوسعنا الكلام على منكرات المساجد بدعها وعوائدها في كتاب أفردناه لذلك فليرجع اليه من أراده *

﴿ منكرات الأسواق ﴾

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المرابحة واخفاء العيب . فمن قال اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذبا فهو فاسق وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه . فان سكت مراعاة لجانب البائع كان شريكا

له فى الخيانة وعصى بسكوته . وكذا اذا علم به عيبا فيلزمه أن ينبه المشترى عليه والا كان راضيا بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام . وكذا التفاوت فى الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه الى الوالى حتى يغيره ومنها بيع الملاهى وتلبيس انخراق الثياب بالرفوء وكل ما يؤدى الى التلبيسات وذلك يطول احصاؤه فليقس بما ذكرناه مالم نذكره *

﴿ منكرات الشوارع ﴾

من المنكرات المعتادة فيها وضع الخشب واحمال الحبوب والأطعمة على الطرق واخراج الأجنحة فكل ذلك منكر إن كان يؤدّى الى تضييق الطرق و استضرار المارة . وإن لم يؤدّ الى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه : نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة فى الطريق فى القدر الذى ينقل الى البيوت فان ذلك يشترك فى الحاجة اليه الكافة ولا يمكن المنع منه — و كذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق و ينجس المجتازين منكر يجب المنع منه الا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها الا بقدر الحاجة . والمرعى هو الحاجة التى تراد الشوارع لأجلها فى العادة دون سائر الحاجات — ومنها سوق الدوابّ وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدّها وضمّها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها الى موضع واسع والا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك * نعم لا تترك ملقاة على الشوارع الا بقدر مدة النقل — و كذلك تحميل الدواب من الأحمال مالا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه — و كذلك طرح القمامة على جوادّ الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات — وكذلك ارسال الماء من الميازيب المتخرجة من الحائط فى الطريق الضيقة فان ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق — وكذلك الثلج الذى يطرحه شخص في الطريق . والماء الذى يجتمع فيه من ميزاب معين فعلى الأول والثانى كسح

الطريق منها . وأما مياه المطر فذلك على محتسبي البلدة كسحها من الطريق وكذلك اذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه *

﴿ منكرات الحمامات ﴾

منها كشف العورات والنظر اليها — ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ . بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فان مس عورة الغير حرام كالنظر اليها ، ومنها الإنبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز فهذا مكروه إن كان مع حائل ولا يحرم إلا إذا خشي حركة الشهوة — ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهـذا منكرٌ ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحمامي اهماله فإنه يفضي إلى السقطة وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو إنخلاعه — وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر :وفي الحمام أمور أخر مكروهة تقدمت في كتاب الطهارة *

﴿ منكرات الضيافة ﴾

منها فرش الحرير للرجال وتبخير البخور في مجمرة ذهب أو فضة والشرب في أواني الفضة —ومنها سماع القينات أي النساء المغنيات —ومنها أن يكون الطعام حراماً أو الموضع مغصوباً —ومنها أن يكون فيها من يتعاطى شرب الخمر فلا يجوز الحضور وان كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فان كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه وان كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح أعني ما يقل منه — فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح — ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر بل في المال منكران (أحدهما) الإضاعة (والآخر) الإسراف فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتدّ بها كاحراق الثوب وتمزيقه وفي معناه صرف المال الى النائحة والمنكرات وقد يطلق على الصرف

الى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة . والمبالغة تختلف بالإضافة الى الأحوال قال تعالى ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فمن لم يملك الا مائة دينار مثلا ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه فأنفق الجميع فى وليمة فهو مسرف يجب منعه منه — وكذا لو صرف جميع ماله الى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضاً اسراف محرّم — وأما فعل ذلك ممن له مال كثير فليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة — وكذلك القول فى التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ويصير اسرافا باعتبار حال الرجل وثروته *

﴿ المنكرات العامة ﴾

اعلم أن كل قاعد فى بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن ارشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف : فأكثر الناس جاهلون بالشرع فى البلاد فكيف فى القرى والبوادى فواجب أن يكون فى كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلّم الناس دينهم وكذا فى كل قرية : وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرّغ لفرض الكفاية أن يخرج الى من يجاور بلده من أهل السواد و العرب و يعلمهم دينهم وفرائض شرعهم فان قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين — و بالجملة فحقٌّ على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ثم يعلّم ذلك أهلَ بيته ثم يتعدى بعد الفراغ منهم الى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المتنكف ببلده ثم الى أهل البوادى — وهكذا إلى أقصى العالم فان قام به الأدنى سقط عن الأبعد والاّ حرج به كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا *

كتاب آداب النبوة والأخلاق المحمدية

﴿ بيان تأديب الله تعالى صفيه محمداً صلوات الله عليه بالقرآن ﴾

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والإبتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق فكان يقول فى دعائه ﴿ اللهمَّ حسِّنْ خَلْقِى وخُلُقِى ﴾ ويقول ﴿ اللهمَّ جَنِّبْنِى منكرات الأخلاق ﴾ فاستجاب الله دعاءه وفاء بقوله عزوجل ﴿ أُدعُونِى أَستَجِبْ لَكُم ﴾ فأنزل عليه القرآن وأدبه فكان خلقه القرآن وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى ﴿ خُذِ العفوَ وأْمرْ بالعُرْفِ وأَعرِضْ عنِ الجاهلين ﴾ وقوله ﴿ إِنَ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ والإِحسانِ وإِيتاءِ ذى القُرْبَى وَيَنْهى عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ والبغْىِ ﴾ وقوله ﴿ واصبِرْ على ما أَصابكَ إِنَّ ذلكَ منْ عَزْمِ الأمورِ ﴾ وقوله ﴿ فاعفُ عنهم واصفَحْ إِن اللهَ يُحبُّ المحسنين ﴾ وقوله ﴿ إِدفَعْ بالتّى هى أحسَنُ فاذا الذّى بينَكَ وبينَهُ عَداوةٌ كأنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ وقوله ﴿ والكاظِمينَ الغيظَ والعافين عَنِ الناسِ ﴾ وقوله ﴿ إِجتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظنِّ إنَّ بَعضَ الظنِّ إثمٌ ولا تجسَّسوا ولا يَغتَبْ بَعضُكم بَعضاً ﴾ وأمثال هذه التأديبات فى القرآن لا تحصر وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فانه أدب بالقرآن وأدب الخلق به — ولذلك قال ﷺ ﴿ بُعثتُ لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأخلاق ﴾ ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق . ثم لما أكمل اللهُ تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى ﴿ وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ ثم بين صلوات الله عليه للخلق ان الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها . قال علىّ رضي الله عنه ياعجبا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لايرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع الى مكارم الأخلاق فانها مما تدل على سبيل النجاة

وفى الحديث ﴿ إن الله حفّ الإسلامَ بمكارِم الأخـلاق ومحاسن الأعمال ﴾ ومن ذلك حسن المعاشرة . وكرم الصنيعة ولين الجانب ، وبذل المعروف وإطعام الطـعام وافشاء السلام ـ وعيـادة المريض ، وتشييـع الجنـازة . وحسن الجوار لمن جاورت مسلماً كان أو كافراً ، وتوقـير ذى الشيبة . وإجابة الطعام. والدعاء عليه . والعفو . والإصلاح بين الناس . والجود . والكرم . والسماحة .وكظم . الغيظ . واجتناب المحارم .والغيبة . والكذب.والبخل.والشحّ والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، وسوء الخلق ، والتكبر ، والفخر ، والإختيال ، والاستطالة ، والمدح ، والفحش ، والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغى ، والعدوان ، والظلم ، * قال أنس رضى الله عنه : فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا اليها وأمرنا بها ، ولم يدع غشا أو عيباً إلا حذرناه ونهانا عنه ، ويكفى من ذلك كله هذه الآية ﴿ إنّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذى القرْبَى وَينهى عن الفَحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يَعِظُـكم لعلَّـكم تذَكَّرُون ﴾ وقال معاذ أوصانى رسولُ الله ﷺ فقال * يامعاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدقِ الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار . ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب . وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسبَّ حكيما ، أو تكذّب صادقا ، أو تطيع آثما أو تعصى إماما عادلا ، أو تفسد أرضا . وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السرّ بالسرّ ، والعلانية بالعلانية ﴾ فهكذا أدّبَ عبادَ الله ودعاهم الى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب

﴿ بيان جمل من محاسن أخلاقه صلوات الله عليه ﴾

كان ﷺ أحلمَ الناس ، وأشجعَ الناس ، وأعدلَ الناس ، وأعف الناس ، لم تمسّ يده قط يد امرأة لايملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه

وكان أسخى النّاس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج اليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ويضع سائر ذلك في سبيل الله ، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام فاستقرض وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله وكان أشدّ الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد ؛ ويجيب دعوة الحرّ والعبد ، ويقبل الهدية ولوّ أنها جرعة لبن ويكافيء عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يغضب لربّه ولاَ يغضب لنفسه ، وقد وجد من أصحابه قتيلا بين اليهود فلم يجفُ عليهم ولا زاد على مُرّ الحق بل وداه بمائة ناقة وان بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . يأكل ماحضر ، ولا يردّ ما وجد ، إن وجد تمراً دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله ، وان وجد خبزَ بُرّ أو شعير أكله ، وإن وجد حلواء أو عسلاً أكله ، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به ، وان وجد بطيخاً أو رطباً أكله ، لا يأكل متكئاً ولا على خوان . لم يشبع من خبز برّ ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلا : وكان ﷺ أشد الناس تواضعاً وأسكتهم فى غير كبر ، وأبلغهم فى غير تطويل ، وأحسنهم بشراً ، لا يهوله شيءٌ من أمور الدنيا ، خاتمه من فضة يلبسه فِي خنصره الأيمن والأيسر . يركب الحمار ويردف خلفه عبده أو غيره ، يعود المرضى فى أقصى المدينة يحب الطيب ، ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل ؛ ويتألف أهل الشرف بالبرّ لهم ، ويصل رحمه ، ولا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، يمزح ولا يقول الا حقا ، ضحكه التبسم من غير قهقهة . يرى اللعبَ المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، وترفع الأصوات عليه من جفاة فيصبر ، لم يرتفع على عبيده فى مأكل ولا ملبس ، لا يمضي له وقت فى غير عمل لله تعالى أو فيما لا بدّ له منه من صلاح نفسه ، يخرج الى بساتين اصحابه

لا يحتقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعو هذا وهذا الى الله دعاءً مستويا : قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة ، وهو أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب : نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقر وفى رعاية الغنم . يتيما لا أب له ولا أم فعلّمه الله تعالى جميعَ محاسن الأخلاق والطرقَ الحميدةَ وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ، وفقنا الله لطاعته فى أمره والتأسى به فى فعله ، آمين ياربّ العالمين*

﴿ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه ﴾

مما روى عنه ﷺ أنه ما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى . وما انتقم من شىء صنع اليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله . وما خير بين أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته : وقال أنس رضى الله عنه والذى بعثه بالحق ماقال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته ولا لامنى نساؤه الا قال دعوه انما كان هذا بكتاب وقدر — وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام : ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وكان اذا لقى أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة — وكان لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر الله . وكان لا يجلس اليه أحد وهو يصلى الا خفف صلاته وأقبل عليه فقال ألك حاجة ، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ، وكان يكرم من دخل عليه حتى ربما بسط له ثوبه يجلسه عليه ، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته — وكان يعطى كلَّ من جلس اليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس اليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال تعالى ﴿ فبما رَحمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَليظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم اكراما

لهم واستمالة لقلوبهم ويكنّى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه بها : ويكنى أيضاً النساءَ اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن : ويكنّى أيضاً الصبيان فيستلين به قلوبهم — وكان أبعدَ الناس غضباً وأسرعهم رضاءً وكان : أرأف بالناس وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس ، ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات: وكان اذا قام من مجلسه قال ﴿ سُبحانَكَ اللّهُمَّ وبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغفِرُكَ وأَتُوبُ إِلَيْكَ ﴾*

﴿ بيان كلامه وضحكه صلوات الله عليه ﴾

كان ﷺ أفصحَ الناس منطقا وأحلاهم كلاما ويقول : أنا أفصح العرب ، وكان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير يحفظه سامعه ويعيه : وكان جهير الصوت أحسنَ الناس نغمة لايتكلم فى غير حاجة ولا يقول فى الرضا والغضب الاّ الحق ويعرض عمّن تكلم بغير جميل ويكنى عما اضطره الكلام اليه مماّ يكره — وكان اذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة — وكان أكثر الناس تبسما وضحكا فى وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه — وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له — وكان اذا نزل به الأمر فوّض الأمر الى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول ﴿ اللهمّ ربّ جبريلَ وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحقّ باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم ﴾

﴿ أخلاقه صلوات الله عليه فى الطعام والشراب ﴾

كان ﷺ يأكل ما وجد ، واذا وضعت المائدة قال ﴿ بسم اللهِ اللّهم اجعلها نعمة مشكورةً تصل بها نعمة الجنة ﴾ وكان لا يأكل الحارّ ويقول ان الله لم يطعمنا

نارا فابردوه ـ وكان يأكل مما يليه ، ويأكل خبز الشعير والقثاء بالرّطب ـ وكان أكثر طعامه الماء والتمر وأحب الطعام اليه اللحم : وكان يأكل الثريد باللحم ، ويحب القرع : وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ولا يحب منها الكليتين. ولا الذكر والأنثيين ولا المثانة والغدد والحياء ويكره ذلك . وكان لايأكل الثوم ولا البصل وما ذمّ طعاما قط ان اعجبه أكله وان كرهه تركه : وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما : وكان اذا فرغ قال ﴿ الحمدُ للهِ اللّهُمّ لكَ الحمدُ أطعمْتَ فأَشْبعْتَ وسَقيْتَ فأَرْوَيْتَ لكَ الحمدُ غيرَ مَكْفُور ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغْنىً عنْهُ ﴾ وكان اذا أكل اللحم غسل يديه غسلا جيداً : وكان يشرب فى ثلاث دفعات ، ويمصّ الماءَ مصًّا ولا يعبه عبًّا ، ولا يتنفس فى الاناء. بل ينحرف عنه : وكان ربما قام فى بيته فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب *

﴿ أخلاقه صلوات الله عليه فى اللباس ﴾

وكان ﷺ يلبس من الثياب ماوجد ، وأكثر لباسه البياض : وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين : وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حلّ الأزرار : وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة : وكان ربما لبس الازار الواحد ليس عليه غيره فأمّ به الناس : وكان له كساء أسود يلبسه ثم وهبه وكان يتختم وربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء . وكان يختم به الكتب : وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة. وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى اليها: وكان اذا لبس ثوبا لبسه من قِبَل ميامنه ويقول ﴿ الحمدُ للهِ الّذى كَسَانِى ما أُوَارِى بِهِ عَوْرَتى وأتجَمّلُ بِهِ فى النّاسِ ﴾ وإذا نزَعَ ثوبه أخرجه من مياسره. وكان اذا لبس جديداً أعطى خَلَقَ ثيابه مسكيناً ثم يقول ﴿ ما مِن مسلم يكسُو مسلماً لله الاّ كان فى ضمان الله وحرزه حياً وميّتاً ﴾ وكان له فراش من أدم حشوه. ليف : وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقتين تحته : وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه *

﴿ عفوه ﷺ مع القدرة ﴾

كان ﷺ أحلمَ النّاس وأرغبهم فى العفو مع القدرة ، فقد كان فى حرب فرأى رجل من المشركين في المسلمين غرّة فجاء حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال من يمنعك منّى فقال ﴿ الله ﴾ قال فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف وقال ﴿ من يمنعك منّى ﴾ فقال كن خيرآخذ قال ﴿ قُلْ أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله وأنّى رَسولُ اللهِ ﴾ فقال لاغير انى لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله فجاء أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس ، وكم استؤذن ﷺ في قتل من أساء اليه وقيل دعنا يارسول الله نضرب عنقه وهو يأبى وينهى ثم يقبل معذرة المعتذر اليه ، وربما قال ﴿ رَحِمَ اللهُ أخى موسى قدْ أوذِى بأكثر مِنْ هذا فصَبَرَ ﴾ وكان ﷺ يقول ﴿ لا يُبلّغنى أحدٌ منكم عن أحدٍ مِن أصحابى شيئاً فانّى أحِبُّ أنْ أخرُجَ اليكم وأنا سَليمُ الصَّدرِ ﴾

﴿ إغضاؤه صلوات الله عليه عمّا كان يكرهه ﴾

كان ﷺ رقيقَ البشرة لطيف الظاهر والباطن يُعرفُ فى وجهه غضبهُ ورضاهُ — وكان لا يشافه أحداً بما يكرهه : بال اعرابى في المسجد بحضرته فهمّ به الصحابة فقال رسول الله ﷺ لا تزرموه أى لا تقطعوا عليه البولَ ثم قال له ﴿ انَّ هذه المساجدَ لا تَصلُحُ لشىءٍ من هذا ﴾

﴿ سخاؤه وجوده صلوات الله عليه ﴾

كان ﷺ أجودَ الناس وأسخاهم ـ وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة لايمسك شيئا ـ وكان علىّ رضى الله عنه اذا وصف النبىَّ ﷺ : قال « كان أجودَ الناس كفاً ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه

يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، وما سُئل عن شيء قط إلا أعطاه » وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنماً سدّت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإنّ محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وما سُئل شيئاً قط فقال لا ، وحُمل اليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم مال اليها فقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها ؛ وجاءه رجل فسأله فقال « ما عندي شيء ولكن ابتَعْ عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه » فقال عمر يارسول الله ما كلفك الله مالا تقدر عليه فكره النبي ﷺ ذلك فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا فتبسم ﷺ وعُرف السرورُ في وجهه ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه الى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله ﷺ وقال « أعطوني ردائي لو كانَ لي عَدَدُ هذه العِضَاه نَعَماً لَقَسَمْتُها بينكم ثمّ لا تجدوني بخيلاً ولاَ كَذّاباً ولاَ جَبَاناً »

« سماحته صلّى الله عليه وسلم »

كان صلوات الله عليه أكرم الناس وأسمحهم : قال عليّ رضي الله عنه لقد رأيتني يومَ بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربنا الى العدوّ وكان من أشد الناس يومئذ بأساً وقال أيضا: كنا اذا احمرّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقربَ الى العدوّ منه ، ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول « أنا النبيّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطّلب » فما رُئي يومئذ أحدٌ كان أشدّ منه

« تواضعه صلوات الله عليه »

كان ﷺ أشدّ الناس تواضعا في علوّ منصبه ، وكان يركب الحمارَ موكفاً عليه قطيفة ، وكان مع ذلك يستردف ، وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك ويخصف النعل ويرقع الثوب ، وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم ، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ، وكان يمرّ على الصبيان فيسلم

عليهم ، وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدرى أيهم حتى يسأل عنه ، وكان اذا جلس مع الناس إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو اذا ضحكوا ولا يزجرهم الا عن حرام *

﴿ خلقته الكريمة صلوات الله عليه ﴾

وكان ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير — وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا الشديد البياض — وكان شعره ليس بالسبط ولا الجعد، وشعر رأسه يضرب إلى شحمة أذنيه لم يبلغ شيبه عشرين شعرة بيضاء في رأسه ولا في لحيته — وكان واسع الجبهة أزج الحاجبين. سابغهما أهدب الأشفار مفلج الأسنان كث اللحية — وكان يعفى لحيته ويأخذ من شاربه — وكان عظيم المنكبين بين كتفيه خاتم النبوة — وكان يمشى الهوينا كأنما يتقلع من صخر *

﴿ شذرة من معجزاته صلوات الله عليه ﴾

اعلم أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى الى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته الى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده اياهم الى طاعته مع ما يروى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ومحاسن اشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العقلاء عن ادراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك استمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وان ذلك كله لا يتصور لممتر ولا ملبّس . بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه ، حتى أن العربى القح كان يراه فيقول والله ما هذا وجه كذاب — وكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله ، فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده :و إنما أوردنا بعض أخلاقه ليعرف محاسن الأخلاق . وليتنبه لصدقه

ﷺ وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله . إذ آتاه الله جميع ذلك وهو أمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط فى طلب علم ، بل نشأ بين أظهر الجهال من الأعراب يتيما ضعيفاً مستضعفاً فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى ، ومن أين لقوة البشر الإستقلال بذلك ، فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكفى وقد ظهر من آياته ومعجزاته مالا يستريب فيه محصل — فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار من غير تطويل ، فنقول : استفاض أنه ﷺ أطعم النفر الكثير من الطعام القليل فى منزل جابر ومنزل أبى طلحة و يوم الخندق ومرة أطعم أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس فى يده فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ، ونبع الماء من بين أصابعه صلوات الله عليه فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش وتوضؤا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه وأراق وضوءه فى عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ، ورمى صلوات الله عليه جيش العدو بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن فى قوله تعالى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ وحن الجذع الذى كان يخطب عليه اليه لمّا عمل له المنبر حتى سمع منه جميعُ أصحابه مثل صوت الإبل فضمه اليه فسكن ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين تمنيه كما أخبر ، وأخبر عليه السلام بالغيوب ، فأنذر عثمان أن بلوى تصيبه بعدها الجنة ، وبأن عمّاراً تقتله الفئة الباغية وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين ، وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل فى سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه

كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بأعلام الله تعالى له ووحيه اليه واتّبعهُ سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه فى الأرض حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع فى ذراعيه سوار كسرى فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسى الكذّاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبى بن خلف الجمحى فخدشه يوم أحدٍ خدشاً لطيفاً فكانت منيته فيه ، واُطْعِمَ عليه الصلاة والسلام السمّ فمات الذى أكله معه وعاش هو ﷺ بعده أربع سنين ، وكلمه الذراع المسموم ، وأخبر عليه السلام بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع ، وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون فى البحر فكان كذلك وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وأخبر بأن مُلكَ أمته سيبلغ مازُوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق من بلاد الترك الى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ، وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحوقا به فكان كذلك ، وأخبر نساءه بأن أطولهن يداً أسرعهن لحوقا به فكانت زينب أطولهن يداً بالصدقة وأولهن لحوقا به رضي الله عنها ومسح ضرعُ شاة لا لبن لها فدرّت — وكان ذلك سببَ اسلام ابن مسعود رضى الله عنه وفعل ذلك مرّةً أخرى فى خيمة أم معبد الخزاعية وبدرت عين بعض أصحابه فردّها عليه السلام بيده فكانت أصحّ عينيه وأحسنهما وتفل فى عين علىّ رضى الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصحّ من وقته وبعثه بالراية الى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ . ومن يستريب فى انخرق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم ينقل تواتراً بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب فى شجاعة علىّ رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائى . ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضروريا ، ثم

لا يمارى فى تواتر القرآن وهو المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق ، وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ اذ تحدى بها رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم — والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله إن شكوا فيه: وقال لهم ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ قال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبى وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه . ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصراً بعد عصر الى زماننا هذا فلم يقدر أحد على معارضته . فأعظم بغباوة مَنْ ينظر فى أحواله ثم فى أقواله ثم فى أفعاله ثم في أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه الى الآن ثم فى انتشاره فى أقطار العالم ثم في اذعان ملوك الأرض له فى عصره و بعد عصره مع ضعفه ويتمه . ثم يتمادى بعد ذلك فى صدقه . فما أعظم توفيق مَنْ آمن به وصدّقه واتّبعه فى كل وِرْد وصَدَر : فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للإقتداء به فى الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال . بمنه وسعة جوده آمين * تمّ الجزء الأوّل من

موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين قبيل عشاء ليلة

السبت غرّة ذى الحجة الحرام ختام عام ﴿ ١٣٢٣ هـ ﴾

بمنزلنا بدمشق الشام على يد مؤلفه ومختصره

الحقير ﴿ جمال الدّين القاسمى ﴾ عفا الله

عنه وعن والديه واخوانه

وأولاده والمسلمين : والحمد

لله ربّ العالمين

﴿ تنتهى الجزء الأوّل ويليه الجزء الثانى أوّله كتاب رياضة النفس ﴾

موعظة المؤمنين

من

إحياء علوم الدين

﴿ تأليف العلامة المرحوم الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ﴾

تنبيه

لما رأينا المؤلف الفضال شغفين بنشر الكتب النافعة الإسلامية
لاسيما الخاص بترقية الأخلاق وبث روح الفضيلة في الآفاق
أذن لنا بنشر هذا الكتاب البديع النافع وأعطانا تصريحا
بذلك مكتوبا بخطه ومذيلا بتوقيعه. وحفظ لنا فيه
حقوق طبعه فرغبة فيما فُطرنا عليه من حب
النفع للمسلمين قمنا بإعادة طبعه راجين
الحق جل اسمه أن ينفع به العباد

الجزء الثاني

الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٨ هـ

« على نفقة الجناب المنقب عن الأسفار النافعة »

محيي الدين صبري الكردي

[illegible] بشارع الخليج المصري بالظاهر بمصر

كتاب رياضة النفس

﴿ وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره . وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره ، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهّل على خواصّ عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، والصّلاة والسّلام على محمّد عبد الله ونبيه وبشيره ونذيره الذى كان تلوح أنوار النبوّة من بين أساريره ، ويستشرق حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين حسموا مادة الباطل فلم يتدنّسوا بقليله ولا بكثيره *

﴿ أمّا بعد ﴾ فالخلق الحسن صفة سيّد المرسلين ، وأفضل أعمال الصدّيقين ، وهو على التحقيق شطر الدّين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين : والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة ، والمخازي الفاضحة ، والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ـ كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان ، وجوار الرّحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس ، إلا أنه مرض يفوّت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لا يفوّت إلا حياة الجسد ، ومهما اشتدّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية . فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب في مرضها فوت حياة باقية أولى ـ وهذا النوع من الطب واجب تعلّمه على كل ذى لبّ . إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت

العلل وتظاهرت فيحتاج العبد الى تأنق فى معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير فى علاجها واصلاحها. فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ واهمالها هو المراد بقوله ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ونحن نشير فى هذا الكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها بعونه تعالى *

﴿ بيان فضيلة حسن الخلق ـ ومذمة سوء الخلق ﴾

قال الله تعالى لنبيه مثنياً عليه ، ومظهراً نعمته لديه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ خُلُقه القرآن . وقال ﷺ ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ الدِّينُ حُسْنُ الخُلُقِ ﴾ وهو أن لا تغضب : وقيل يارسول الله : ما الشؤم قال ﴿ سُوءُ الخُلُقِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ﴾ وقيل له يارسول الله إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال ﴿ لا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هذا الدِّينَ لِنَفْسِهِ ولا يُصْلِحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ أَلا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِما ﴾ وقيل يارسول الله أىّ المؤمنين أفضلهم إيمانا قال ﴿ أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الوَجْهِ وَحُسْنِ الخُلُقِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ يَا أَبَا ذَرٍّ لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ ﴾ وعن الحسن : مَنْ ساء خلقه عذب نفسه : وقال وهب مَثَلُ السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترقع ولا تعاد طينا : وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحبّ إلىّ من أنْ يصحبنى عابد سيّء الخلق *

« ما قاله السلف فى حسن الخلق وشرح ماهيته »

اعلم أنه روى عنهم فى ذلك ما هو كالثمرة والعنايه — من ذلك : . . . حسن

رحمه الله : حسن الخلق بسط الوجه و بذل الندا وكف الأذى ـ : وقال الواسطى. هو أن لا يُخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى ـ وقال أيضا : هو ارضاء الخلق في السراء والضراء : وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق ـ وأما حقيقة الخلق فهى هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسْر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سُميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، و إن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً . وانما قلنا إنها هيئة راسخة لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وانما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم : وأمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة والشجاعة ، والعفة ، والعدل ـ ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأحوال الإختيارية : ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة و يحملها على مقتضى الحكمة و يضبطها في الإسترسال والإنقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها و إحجامها : ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع . فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها . وقد أشار القرآن الى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين : فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنونَ الذين آمَنُوا بالله ورَسُولِهِ ثمَّ لم يرتابوا وجاهَدُوا بِأموالِهم وأنفسِهم فى سَبيل اللهِ أولئكَ هُم الصادِقُونَ ﴾ فالإيمان بالله و برسوله من غير إرتياب هي قوة اليقين وهي ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدّ الإعتدال ـ فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشدّاء

عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ اشارة الى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعاً فليس الكمال فى الشدة بكلّ حال ولا فى الرحمة بكلّ حال *

﴿ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة ﴾

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة و لاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الاخلاق لايتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير فنقول لو كانت الأخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات — ولما قال رسول الله ﷺ ﴿ حَسِّنُوا أخلاقَكم ﴾ و كيف ينكر هذا فى حق الآدمىّ وتغيير خُلُق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الإستيحاش الى الأنس والفرس من الجماح الى السلاسة والإنقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق ، والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدمى و اختياره فى أصله، وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات — وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله و إلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفاح ولانخل الا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفاحاً أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم: الجبلاّت مختلفة بعضها سريعة القبول و بعضها بطيئة القبول . وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ،

ولو انقطع الغضب بالكلية لم يندفع الانسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ـ ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً ـ وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوّته منقاداً للعقل ولذلك قال الله تعالى ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وصفهم بالشدة، وإنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكّوا عن ذلك إذ قال ﷺ ﴿ إنما أنا بَشَرٌ أغضَبُ كما يَغضَبُ البَشرُ ﴾ وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلاّ حقاً، فكان عليه الصلاة والسلام لايخرجه غضبُه عن الحق ، وقال تعالى ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ ، فردُّ الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال بحيث لا يقهرُ واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكنٌ . وهو المراد بتغيير الخلق . فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لايقوى عقله على دفعها على الانبساط الى الفواحش ، وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن: والتجربة والمشاهدة تدلّ على ذلك دلالة لاشك فيها . والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وقال في الغضب ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ خيرُ الأمورِ أوساطُها ﴾

﴿ بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة ﴾

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً. وهذا الإعتدال يحصل على وجهين ﴿ أحدهما ﴾ بجود إلهىّ وكمال فطرىّ بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق، قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع ﴿ والوجه الثانى ﴾ اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجود وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً – وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه؛ وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً. فالسخىّ هو الذى يستلذّ بذل المال دون الذى يبذله عن كراهة. والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع. ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس مالم تتعوّد النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم يواظب عليها مواظبة مَنْ يشتاق الى الأفعال الجميلة ويتنعم بها؛ ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ ﴿ وجعلت قُرَّةُ عيني فى الصلاةِ ﴾ ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾ ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر: ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة الى حد تصير هى قرة العين ومصير العبادات لذيذة فان العادة تقتضي في النفس

عجائب أغرب من ذلك فانا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به — وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه اليه مدة — وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حرّ الشمس قائماً على رجليه وهو لايحس ألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحلقها فى جو السماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف . واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه فكيف لاتستلذ الحق لو رُدّت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه — بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة. فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام و الشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه — وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحبّ الله عزّ وجل و لكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حلّ به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذاً قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً — وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعني النفس والبدن — فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك الا على وفقها لامحالة وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور ٭

واذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء

الخير أحوال الصلاح إذ الطبع يسترق من الطبع الشر والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين مَنْ اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكلّ درجة فى القرب والبعد بحسب ماتقتضيه صفته وحالته ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ ﴿ وما ظلمهُمُ اللهُ ولكنْ كانوا أنْفُسَهم يظلمُون﴾

﴿بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق﴾

قد عرفت من قبل أن الإعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس. والميل عن الإعتدال سقم ومرض فيها ، كما أن الإعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الإعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا فنقول : مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل ، والأخلاق الجميلة اليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الإعتدال وإنما تعترى المعدة المضرّةُ بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه أى بالاعتياد و التعليم تكتسب الرذائل ، و كما أن البدن في الابتداء لايخلق كاملا وانما يكمل و يقوى بالنشوء و التربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال و انما تكمل بالتربية و تهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، و كما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة و إن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة اليه فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد القوة اليها وا كتساب زيادة صفائها ، و إن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها ، و كما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة و بالعكس فكذلك الرزيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض

الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً، وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وبالجملة فالطريق الكلي في معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس وتميل اليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة: فقال تعالى ﴿ وأمَّا منْ خاف مقَامَ ربّه ونَهى النَّفسَ عنِ الهوَى فانَّ الجنةَ هيَ المأوَى ﴾ والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاءً من الله تعالى واختباراً فينبغي أن يصبر ويستمرَّ فانه ان عوَّد نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت: عافانا الله تعالى من فسادها *

﴿ بيان الطريق الذي يَعرِفُ به الإنسانُ عيوبَ نَفسه ﴾

اعلم أن الله عزَّ وجل اذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه. فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه. فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم — يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق

﴿ الطَّريق الأوَّل ﴾ أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويتبع إشارته في مجاهدته ـ وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرِّفه أستاذه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه *

﴿ الطَّريق الثاني ﴾ أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه. فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين: كان عمرُ رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي

وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق. فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه ، فكلّ من كان أوفر عقلا وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم إتهاماً لنفسه وفرحاً بتنبيه غيره على عيوبه، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا ـ ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان ـ فان الأخلاق السيئة حيّات وعقارب لدّاغة فلو نبهنا منبّهٌ على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منةً وفرحنا به ، واشتغلنا بازالة العقرب وقتلها . وانما نكايتها على البدن ولا يدوم ألمها يوما فما دونه . ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبد الآباد ـ ثم انّا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرةُ الذنوب. وأصل كل ذلك ضعف الايمان — فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله *

﴿الطريق الثالث﴾ أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدي المساويا ـ ولعل انتفاع الانسان بعدوّ مشاحن يذكّر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه الاّ أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول اعدائه فان مساويه لابد وان تنتشر على ألسنتهم *

﴿الطريق الرابع﴾ أن يخالط الناس فكل ماراه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديب ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا

عن المؤدب ، وهذا كله من حيل مَنْ فقد شيخاً مربياً ناصحاً فى الدين و الا فمن وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه فانه يخلصه من مرضه

﴿ بيان تميز علامات حسن الخلق ﴾

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هذّب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق فإن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق — وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق ، قال الله تعالى ﴿ قد أفلحَ المُؤْمنون الّذين هُمْ فى صلاتهم خاشعون والّذين هُمْ عن اللغو مُعرِضُون والّذين هُمْ للزّكاة فاعلون والّذين هُمْ لفروجهم حافظون إلاّ على أزْواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم فانّهُمْ غيرُ ملومين فمن ابتغى وراءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون والّذين هُمْ لأماناتهمْ وعهْدهمْ راعُون ، والّذين هُم على صلواتهم يُحافظون ، أولئك هُمُ الوارثون الّذين يَرِثُون الفرْدوْس هُم فيها خالدُون ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ التّائبون العابدُون الحامدُون السّائحُون الرّاكعُون السّاجدُون الآمرُون بالمعرُوف والنّاهُون عن المُنكر والحافظون لحُدُود الله وبشّر المُؤْمنين ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ إنّما المُؤْمنونَ الّذين إذا ذُكر اللهُ وَجلَتْ قلوبُهم وإذا تُليتْ عليهم آياتُهُ زادتْهُم إيماناً وعلى ربّهمْ يتوكّلُون الّذين يُقيمُون الصّلاة وممّا رزقْناهُمْ يُنْفقُون أولئك هُمُ المُؤْمنُون حقّاً لهم درجاتٌ عند ربّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وعبادُ الرّحمن الّذين يمْشون على الأرض هوْناً وإذا خاطبهُمُ الجاهلُون قالُوا سلاماً ﴾ إلى آخر السورة . فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات — فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامةُ سوء الخلق ، ووجودُ بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ماوجده : وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن

بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الأخلاق : فقال ﴿ المؤمن يُحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ﴾ وقال ﷺ ﴿ مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره ﴾ وقال ﴿ مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ﴾ وذكر ان صفات المؤمنين هى حسن الخلق فقال ﷺ ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ﴾ وقال ﴿ لا يحل لمؤمن أن يشير الى أخيه بنظرة تؤذيه ﴾ وقال عليه السلام ﴿ لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً ﴾ وقال ﷺ ﴿ إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عزّ وجلّ فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه مايكرهه ﴾ وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفا : فقد روى أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابيّ فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نجرانيّ غليظ الحاشية : قال أنس رضى الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال يامحمد هب لى من مال الله الذى عندك فالتفت اليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه . قال ﴿ اللهمّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ﴾ *

حُكي أن الأحنف بن قيس قيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل له وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجاريه فقال لها لاروع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى *

وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أماتسمع ياغلام قال بلى قال فما حملك على ترك إجابتى قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حرّ لوجه الله تعالى *

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يامرائى فقال ياهذه وجدت اسمى الذى اضله أهل البصره *

وهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد

بواطنها فآثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغى أن يغترّ بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها إلاّ المقرّبون والصدّيقون .

﴿ بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوئهم ﴾
﴿ ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ﴾

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهمّ الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عُوّد الخير وعلّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه : وقد قال الله تعالى ﴿ ياأيّها الّذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوّده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وارضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلاّ لاشراق نور العقل عليه — وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فالصبىّ المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وأول مايغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه . وأن يأكل مما يليه . وأن لا يبادر الى الطعام قبل غيره وأن لا يحدق النظر اليه ولا الى من يأكل ، وأن

لا يسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ وأن لا يوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار فى بعض الاوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتما وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان ، وأن يحبب اليه من الثياب ماليس بملوّن وحرير ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه، ومهما رأى على صبى ثوبا من الحرير أو ملونا فينبغى أن يستنكره ويذمه وأن يحفظ عن الصبيان الذين عُوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه مايرغبه فيه فإن الصبى مهما أهمل فى ابتداء نشوئه خرج في الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسوداً سروقا نماماً لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب - ثم يشتغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد ، ثم مهما ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فان خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبى واجتهد في إخفائه ؛ فان أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سراً ، ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطّلعَ عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ؛ وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوف بالأب وتزجره عن القبائح [illegible] يورث

الـكسل ولا يمنع منه ليلا ولـكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلّب أعضاؤه ولا يسخف بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم وينبغى أن يمنع من كل مايفعله فى خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا منع تعوّد ترك فعل القبيح . ويعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الـكسل . ويعود أن لا يكشف أطرافه . ولا يسرع المشي ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه بل يعوّد التواضع والإكرام لـكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بداله بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لافى الأخذ وان الأخذ لؤم وخسة ودناءة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها — وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، ويحذّر منهما أكثر مما يحـذر من الحيّات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة أضرّ من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الـكبار أيضاً ، وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ، ويعلم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأساً صادقا كان أوكاذبا حتى لايعتاد ذلك فى الصغر ، ويعوّد حسن الإستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الـكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسرى لامحالة من القرناء السوء :وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ، وينبغى أن يؤذن له بعد الإنصراف من الـكتّاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب فان منع الصبى من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغّص عليه العيش حتى يطلب الحيلة

فى الخلاص منه رأسا ، وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى، وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم ، ومهما بلغ سن التمييز فينبغى أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويعلّم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع، ويخوّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش فاذا وقع نشوءه كذلك فى الصبى فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرّف أسرار هذه الأمور *

كتاب آفات اللسان

(بيان خطر اللسان)

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه الا بالنطق بالخير : فعن النبى ﷺ أنه قال ﴿ لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه ﴾ وقال معاذ بن جبل قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال يا ابن جبل وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ﴾ وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: يا لسان قل خيراً تغنم : واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم : وعنه ﷺ ﴿ من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره ﴾ وقال ﷺ ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ إخزن لسانك إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان ﴾

﴿ جمل من آفات اللسان — الأولى الكلام فيما لا يعنى ﴾

اعلم أن رأس مال العبد أوقاته : فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله — ولهذا قال النبى ﷺ ﴿ من حسن إسلام المرء

تَرْكُهُ مالا يَعْنيه﴾ و سببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة مالا حاجة به اليه أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها وعلاج ذلك كله أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله و أن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان. فاهماله ذلك و تضييعه خسران مبين ٭

﴿الآفة الثانية فضول الكلام﴾

و هو أيضاً مذموم ـ وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، و الزيادة فيما يعني على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، و يمكنه أن يجسّمه و يكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فان ذكر كلمتين فالثانية فضول ـــ أي فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم لما سبق و إن لم يكن فيه اثم ولا ضرر واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى: قال الله عز وجل ﴿لا خيرَ في كثيرٍ منْ نجواهمْ إلاّ منْ أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين النّاس﴾ وقال ﷺ ﴿طُوبى لمن أمسك الفضل منْ لسانه وأنفق الفضل منْ ماله﴾ فانظر كيف قلّب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان: قال عطاء: ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، و كانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو تنطق لحاجتك فى معيشتك التى لا بدّ لك منها. أتنكرون ان عليكم حافظين كراما كاتبين. عن اليمين وعن الشمال قعيد. مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد ـــ أما يستحي أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وقال ابن عمر: ان أحق ماطهر الرجل لسانه وفى أثر: ما أوتى رجل شراً من فضل فى لسانه

﴿الآفة الثالثة الخوض فى الباطل﴾

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فان ذلك مما لا يحل الخوض فيه. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه

بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لامخلص منها الا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا . وفى الحديث ﴿ أعظمُ النّاس خطايا يومَ القيامة أكثرُهم خوضاً فى الباطل ﴾ واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ وكنّا نخوضُ معَ الخائضين ﴾ و بقوله تعالى ﴿ فلا تقعُدُوا معَهم حتّى يخوضُوا فى حديث غيره انّكم اذاً مثلُهم ﴾ وعنه ﷺ ﴿ انّ الرّجلَ ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله ما يَظُنُّ أنْ تبلغَ به مابلغت فيكتبُ اللهُ بها رضوانَهُ الى يوم القيامة وانّ الرّجل ليتكلّمُ بالكلمة من سَخَطِ الله ما يظنُّ أن تَبْلغَ به مابَلَغَتْ فيكتُبُ اللهُ عليه بها سَخطَهُ الى يوم القيامة ﴾

﴿ الآفة الرابعة المراء والجدال ﴾

وذلك منهىٌّ عنه قال ﷺ لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعدْهُ موعداً فتخلفهُ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ ماضلَّ قومٌ بعد أن هداهم اللهُ الاَّ أُوتوا الجدَلَ ﴾ وعنه ﴿ لا يستكملُ عبدٌ حقيقَةَ الإيمان حتّى يدعَ المراءَ وإن كان مُحقاً ﴾

وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل لجوجا ممارياً معجبا برأيه فقد تمت خسارته

وقال ابن أبى ليلى : لا أمارى صاحبي فاما أن أكذبه وإما أن أغضبه : وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى *

وحدُّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ وإما فى المعنى وإما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض : فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدّق به وان كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه *

والواجب إن جرى الجدل فى مسألة علمية السكوت — أو السؤالُ في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والمكادة — أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن وأما قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه فهى المجادلة المحظورة التى لا نجاة من اثمها الا بالسكوت ، وما الباعث عليها الا الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما صفتان مهلكتان

ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل مايتصور له فيثور الشجار بين المتماريين — وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره *

﴿ الآفة الخامسة الخصومة ﴾

وهى أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء : وحقيقتها لجاج فى الكلام ليستوفي به مال أوحق مقصود : وفى الحديث ﴿ انَّ أبغضَ الرّجال الى الله الألدُّ الخِصمُ ﴾ ولا تكون الخصومة مذمومة الا ان كانت بالباطل أو بغير علم كالذى يدافع قبل أن يعلم الحق فى أىّ جانب — أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لاحاجة لها فى نصرة الحجة واظهار الحق — أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفى الناس من يصرّح به ويقول انما قصدى عناده وكسر غرضه، وانى ان أخذت منه هذا المالَ ربما رميت به في بئر ولا أبالى وهذا مقصوده اللّدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً : فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ماوجد اليه سبيلا فانّ ضبط اللسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر والخصومه توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرَح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات . وأقل مافيه تشويش خاطره حتى أنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حدّ الواجب : فالخصومة مبدأ كل شرّ وكذا المراء والجدال فينبغى أن لاينفتح بابه الا لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسانَ والقلبَ عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً — نعم أقلُّ مايفوته فى الخصومة والمراء

والجدال طيب الكلام: وقد قال الله تعالى. ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ من سلّم عليك من خلق الله فاردُدْ عليه السلام وإن كان مجوسياً﴾ ان الله تعالى يقول ﴿وإذا حُيّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رُدّوها﴾ وقال ابن عباس أيضاً: لو قال لى فرعون خيراً لرددت عليه. وفى الحديث ﴿الكلمة الطيبة صدقة﴾ وقال عمر رضي الله عنه «البر شيء هين وجه طليق وكلام لين» وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح: وقال آخر كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فلعله يعوضك منه ثواب المحسنين

﴿ الآفة السادسة التقعر فى الكلام ﴾

وهو التشدّق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه فانه من التكلف الممقوت إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للعرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا اغراب فلرشاقة اللفظ تأثير فى ذلك

﴿الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان﴾

وهو مذموم ومنهىٌّ عنه ومصدره الخبث واللؤم: قال ﷺ ﴿ إيّاكم والفُحش فإن الله تعالى لا يحبُّ الفحش ولا التفحّش﴾ ونهى رسول الله عليه السلام عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال ﴿لا تسبّوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا أن البذاء لؤم﴾ وقال عليه السلام ﴿ليس المؤمن بالطّعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذي﴾ وعنه ﴿ان الله لا يحبّ الفاحش المتفحّش الصّيّاح فى الأسواق﴾ وحدّ الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجرى في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فان لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز والكناية: قال ابن عباس: أن الله حييٌّ كريم يعفو ويكنو كنى باللمس عن الجماع. فالمسيس والمس والدخول

كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويُستعمل أكثرها في الشتم والتعبير . وكل ما يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش *

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الإعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السبّ *

روى أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ أوصني : فقال ﴿ عليكَ بتقوَى الله وإن امرُؤٌ عيّرَكَ بشيءٍ يعلمهُ فيكَ فَلا تُعيّرْهُ بِشيءٍ تَعلمُهُ فيهِ يكنْ وَبالُه عليهِ وَأجرُهُ لكَ وَلاَ تَسُبّنَّ شيأ ﴾ قال فما سببت شيأ بعده: وعنه ﷺ ﴿ سباب المؤْمنِ فُسوقٌ وَقتالهُ كُفرٌ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ مَلعُونٌ مَن سَبَّ وَالِدَيْهِ ﴾ وفي رواية ﴿ مِنْ أكبَرِ الكبائرِ أنْ يَسُبَّ الرّجلُ وَالدَيْهِ ﴾ قالوا يارسول الله كيف يسبّ الرجلُ والديه قال ﴿ يَسُبُّ أبا الرّجلِ فيسُبُّ الآخرَ أباهُ ﴾ *

﴿ الآفة الثامنة اللّعن ﴾

اللعن إما لحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم: قال رسول الله ﷺ ﴿ المؤْمِن ليسَ بلعّانٍ ﴾ واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلاّ على مَنْ اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم، وفي لعن فاسق معيّن خطر فليجتنب ولو بعد موته بل قد يكون أشدّ إن كان فيه أذى للحيّ ، وفي الحديث ﴿ لا تَسبُّو الأمواتَ فتؤْذوا بهِ الأحياءَ ﴾ ويقرب من اللعن الدّعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم فإنه مذموم وفي الخبر ﴿ إنّ المظلومَ ليَدْعو على الظالِمَ حتّى يُكافئَهُ ﴾ *

﴿ الآفة التاسعة الغناءُ والشعر ﴾

والمذموم منهما ما اشتمل على محرّم أو دعا إليه كتشبيب بمعيّن وهجاء وتسمية بالنساء وتهييج لفاحشة وشوق لأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت إليه ونحو ذلك وما خلا عن ذلك فهو مباح *

﴿ الآفة العاشرة المزاح ﴾

والمنهيُّ عنه المذموم منه هو المداومة عليه والإفراط فيه فأما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل — وأما الإفراط فيه فأنه يورث كثرة الضحك والضغينة فى بعض الأحوال ، ويسقط المهابة والوقار — وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبي ﷺ أنه قال ﴿ انى لأمزَحُ ولا أقولُ إلاّ حقاً ﴾ ألا إن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول الا حقاً — وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحكَ الناس كيفما كان ، وقدقال عمر: من مزح استخفَّ به : وقال سعيد ابن العاص لابنه يابنيَّ لا تمازح الشريف فيحقدعليك ولا الدنيء فيجترىء عليك ، وقيل لكل شيء بذر و بذر العداوة المزاح: ويقال المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظبُ عليه و يفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرَّسول ﷺ وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر اليهم والى رقصهم و يتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة فى النظر الى رقص الزنوج فى يوم عيد وهوخطأ وبالجملة فان كنت تقدر على أن تمزح ولاتقول الا حقا ولا تؤذى قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه: ومن مطايباته ﷺ ما روى أن عجوزاً أتته ، فقال لها ﴿ لا يَدخُلُ الجنَّةَ عَجوز ﴾ فبكتْ فقال لها ﴿ إنَّكِ لستِ بعَجوزٍ يومئذٍ ﴾ قال الله تعالى ﴿ إنَّا أنشأناهُنَّ إنشاءً فجعلناهُنَّ أبكاراً ﴾ وجاءت امرأة اليه ﷺ فقالت إن زوجى يدعوك قال ﴿ وَمن هوَ أهُوَ الّذى بِعينِهِ بَياضٌ ﴾ قالت والله ما بعينه بياض : فقال ﴿ بَلَى إنَّ بِعينهِ بياضاً ﴾ فقالت لا والله : فقال ﷺ ﴿ ما مِنْ أحدٍ إلاّ وَبعينِهِ بياضٌ ﴾ وأراد بالبياض المحيط بالحدقة *

وجاءت امرأة أخرى فقالت يا رسول الله احملنى على بعير فقال ﴿ إنَّا نَحْمِلُكِ على ابنِ البَعيرِ ﴾ فقالت ما أصنع به إنه لا يحملنى . فقال ﷺ ﴿ ما مِنْ بَعيرٍ إلاّ وَهُوَ ابنُ بعيرٍ ﴾ *

وقال انس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير ،وكان رسول الله يأتيهم ويقول ﴿ أبا عُميرٍ ما فعلَ النُّغَيْرُ ﴾ النغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور: وقالت عائشة رضي الله عنها خرجتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال ﴿ تعالى حتى أسابقُكِ ﴾ فشددتُ على درعي ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقني وقال ﴿ هذه مكان ذي المجاز ﴾ وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطينيه فأبيتُ وسعيتُ وَسعى في أثري فلم يدركني .

وقالت أيضاً : كان عند رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعتُ خزيراً وجئت به فقلت لسودة كُلي فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لألطخنّ به وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذتُ بيدي من الصحفة شيأ منه فلطخت به وجهها و رسول الله جالس بيني و بينها فخفض لها ركبته لتستقيد فتناولت من الصحفة شيأ فمسحت به وجهي. وجعل رسول الله ﷺ يضحك: وعن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن علي رضي الله عنهما فيرى الصبي لسانه فيهش له *

وقال عيينة الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج و بقل وجهه وماقبلته قط : فقال ﷺ ﴿ انَّ مَن لايرحَمْ لايُرحَمْ ﴾ *

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، و كان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل .

و قال ﷺ مرّة لصهيب و به رمد وهو يأكل تمراً ﴿ أتأكلُ التمرَ و أنتَ رَمِدٌ ﴾ فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم ﷺ ،قال بعض الرّواة حتى نظرت إلى نواجذه*

و كان نعيمان الأنصاري رجلا مزّاحاً لايدخل المدينة طرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبي ﷺ فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك و أهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاءبه إلى النبي ﷺ

وقال يارسول الله اعطه ثمن متاعه فيقول له ﷺ أولم تهده لنافيقول يارسول الله إنه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبيُّ ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه ، فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام

﴿ الآفة الحادية عشرة ﴾

﴿ السخرية والاستهزاء ﴾ وهو محرم : قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لا يَسخَرْ قَومٌ مِن قَومٍ عسَى أن يكونُوا خَيراً مِنْهُمْ ولانساءٌ منْ نِساءٍ عسَى أن يَكنَّ خَيراً مِنْهُنَّ ﴾ ومعنى السخرية الإستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه — وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى القول والفعل وقد يكون بالإشارة والايماء : ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والإستهانة به والإستصغار له — وعليه نبه قوله تعالى ﴿ عَسى أن يَكونُوا خَيراً منهمُ ﴾ أى لا تَستحقره استصغارا فلعلّه خير منك — وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى به فأمَّا مَنْ جعل نفسه مسخرة وربّما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ، وقدسبق مايذم منه وما يمدح ، وانما المحرَّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بأن يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه . فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها

﴿ الآفة الثانية عشر إفشاء السرّ ﴾

وهو منهىٌّ عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والاصدقاء : قال النبي ﷺ ﴿ إِذَا حدَّثَ الرَّجلُ الحَديثَ ثمَّ التفتَ فَهى أمانةٌ ﴾ وعنه ﴿ الحديثُ بينكم أمانهٌ ﴾ فافشاء السرّ خيانة وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار *

﴿ الآفة الثالثة عشر الوعد الكاذب ﴾

فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق : قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال ﷺ ﴿ العِدةُ عطيةٌ ﴾ وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال ﴿ انهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ ﴾ ولما حضرَتْ عبدَ الله ابن عمر الوفاةُ قال إنه كان خطب إليّ ابنتى رجل من قريش وقد كان منى اليه شبه الوعد فو الله لا ألقى الله بثلث النفاق : أشهدكم انى قد زوجته ابنتى *

وعن عبد الله ابن أبى الخنساء قال بايعتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يُبعثَ وبقيتْ له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يافتى لقدشققتَ عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك *

وكان ابن مسعود لا يَعِدُ وَعداً إلاّ ويقول إن شاء الله وهو الأولى ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بدّ من الوفاء إلاّ أن يتعذر . فان كان عند الوعد عازماً على أن لايفى فهذا هو النفاق : قال النبيّ ﷺ ﴿ ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهُوَ مُنافقٌ وإنْ صامَ وصلّى وَزَعَمَ أنّهُ مُسلمٌ إذا حدّثَ كذبَ وإذا وَعَدَ أخلفَ وإذا أُؤْتُمِنَ خانَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ أرْبعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافقاً ومَنْ كانت فيه خَلّةٌ منهنّ كان فيه خلةٌ من النفاق حتّى يدعها اذا حدّث كذبَ واذا وعد أخلفَ وإذا عاهدَ غَدَرَ وإذا خاصَمَ فَجرَ ﴾ وهذا يُنزّل على مَنْ إذاوعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر — فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة : فقد روى أن رسول الله ﷺ كان وعد أبا الهيثم خادماً فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الوحى بيدى فذكر موعده لأبى الهيثم نجعل

يقول ﴿ كيفَ بموْعدى لأبى الهيثمَ ﴾ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرّحى بيدها الضعيفة : ولقد كان ﷺ جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال إنّ لى عندك موعدا يارسول الله بقال ﴿ صدقتَ فاحتكِمْ ما شئْتَ ﴾ فقال أحتكم ثمانين صائبة وراعيها : قال ﴿ هى لك ﴾ وقال ﴿ احتكمت يسيراً ﴾

﴿ الآفة الرابعة عشر الكذب في القول واليمين ﴾

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب: قال ﷺ ﴿ إيّاكُمْ والكذبَ فإنّهُ معَ الفجُورِ وهما في النّارِ ﴾ وعنه ﴿ إنّ الكذبَ بابٌ مَن أبواب النّفاق ﴾ وعنه ﴿ كَبرَتْ خيانةً أن تُحدّث أخاكَ حديثاً هُوَ لكَ بهِ مُصدّقٌ وأنْتَ لهُ بهِ كاذبٌ ﴾ ومرّ ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ويقول الاخر والله لا أزيدك على كذا وكذا فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما : فقال ﴿ أوجبُ أحدهما بالإثم والكفّارة ﴾ وعنه ﷺ قال ﴿ ثلاثةٌ لا يُكلّمهُمُ اللهُ يوم القيامة ولا ينظرُ اليهم المنّانُ بعطيّتهِ والمنفقُ سلعتَهُ بالحلف الفاحر والمُسبلُ إزارَه ﴾ وعنه ﷺ ﴿ مَنْ حَلَفَ على يمين بإثم ليقْتطعْ بها مال امرىءٍ مُسلم بغيْرِ حقّ لقى اللهَ عزّ وجلّ وهُوَ عليه غضبانٌ ﴾ وقال عليه السلام لمعاذ ﴿ أوصيكَ بتقوى اللهِ وصدقِ الحديثِ وأداءِ الأمانة والوفاء بالعهد وبذلِ الطّعام وخفْضِ الجناح ﴾

﴿ بيان ما رخص فيه من الكذب ﴾

اعلم أن الكذب انما حرّم لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد يتعلق به مصلحه فيكون مأذونا فيه . وربما كان واجبا كما اذا كان في الصدق سفك دم امرىء قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب — وكما اذا كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه أو تعاشر الزوجين

الاّ بكذب فالكذب مباح الاّ أنه يقتصر فيه على حد الضرورة لئلا يتجاوز الى مايستغنى عنه . وفى معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة قال ثوبان : الكذب كله اثم الاّ مانفع به مسلما أو دفع عنه ضررا *

﴿ بيان الحذر من الكذب بالمعاريض ﴾

قد نقل عن السلف ان في المعاريض مندوحة عن الكذب ـ و إنما ارادوا اذا اضطر الإنسان الى الكذب ـ وأما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون : ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال مارفعت جنبى مذ فارقت الأميرّ الا مارفعنى الله ، و كان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلمارجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به العمالُ إلى أهلهم ـ وما كان قدأتاها بشيء ـ فقال كان عندى ضاغط ، قالت كنت أميناً عند رسول الله وأبى بكر فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بدلك بين نسأها و شتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا . قال ما أجد ما أعتدر به اليها الاّ ذلك فضحك عمر وأعطاه شيأ فقال ارضها به : ومعنى قوله ضاغطا رقيبا ـ وأراد به الله تعالى : و كان النخعى اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو فى لدار قال للجارية قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى ليس ههنا كيلا يكون كذبا ـ ومما تباح به المعاريض قصد تطييب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ ﴾ وقوله للأخرى ﴿الذى فى عين زَوْجكِ بياضٌ﴾ وللأخرى ﴿ نَحْمِلُكِ عَلى وَلَد البعير ﴾ كما تقدَّم *

ومما يتسامح به ماجرت به العادة فى المبالغه كقوله : قلت لك كذا مائة مرة فانه لايريد به تفهيم المرّات بعددها بل تفهيم المبالغة إلا أنه اذا لم يكن قال ذلك إلاّ مرّة واحدة كان كذبا *

وأما مايعتاد التساهل به فى الـكذب فى مثل أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه فذلك منهى عنه وهو حرام إن لم يكن فيه غرض صحيح: ومثل ذلك أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه *

وأما الـكذب فى حكاية المنام فالإثم فيـه عظيم : وفى الحديث ﴿ انَّ من أعظم الفرية أن يدَّعى الرَّجُلُ الى غير أبيه أو يُرى عينيه في المنام مالم ير أو يقولُ علىَّ مالم أقل ﴾ *

﴿الآفة الخامسة عشر الغيبة﴾

قد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه الـكريم وشبَّه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى ﴿ ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً أيُحبُّ احدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً فكرِهتُموه ﴾ وقال ﷺ ﴿ كلُّ المسلمِ عَلى المُسلمِ حرَامٌ دَمُهُ ومالهُ وعرضُهُ ﴾ والغيبة تتناول العرض: وقال ﷺ ﴿ يامَعشَرَ مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يؤْمِنْ بقلبه لا تغتابوا المسلمينَ ولا تتَبَّعُوا عوراتهم فإِنهُ مَنْ تتبع عورةَ أخيه تتبَّعَ اللهُ عورتهُ ومَنْ تتبَّع عورته يفضحهُ ولو فى جوف بيته ﴾ وعن مجاهد أنه قال فى قوله تعالى ﴿ وَيلٌ لكلِّ همزةٍ لمزةٍ ﴾ الهمزة الطعَّان فى الناس ، واللمزة الذى يأكل لحوم الناس وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ولـكن فى الـكف عن أعراض الناس : وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك *

﴿ بيان معنى الغيبة وحدودها ﴾

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه ونسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته — أما البدن فذكرك العمشَ والحوَلَ والقرع والقصرَ والطول والسواد والصفرة ، وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان

وأما النسب فبأن تقول أبوه فاسق أو خسيس أو زبّال أو نحوه مما يكرهه — وأما الخلق فبأن تقول سيّىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان متهوّر ومايجرى مجراه ـ وأما في أفعاله فكقولك هو سارق كذاب شارب خمر خائن ظالم متهاون بالصلاة أو الزكاة لايحترز من النجاسات ليس باراً بوالديه ونحوه ـ وأما فعله فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس كثير الكلام كثير الأكل. نؤوم يجلس في غير موضعه — وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحوه *

والقول الجامع فى الغيبة ماجاء من قوله ﷺ ﴿الغَيْبَةُ ذِكْرُكَ أخاكَ بما يكرَهُهُ﴾ وانما حرّم الذكر باللسان لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه ـ ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكلّ ما يُفهِمُ المقصودَ فهو داخل فى الغيبة — وهو حرام . فمن أومأ بيده إلى قصر أحد أو طوله أو حاكاه فى المشى كما يمشى فهو غيبة . والكتابة عن شخص في عيب به غيبة لأن القلم أحد اللسانين وكذا قولك مَنْ قدم من السفر أو بعض من مرّ بنا اليوم اذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة — وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله الحمد لله الذى لم يبتلينا بكذا ـ وكذلك قد يقدمُ مدحَ مَنْ يريد غيبته فيقول ماأحسن أحوال فلان ولكن ابتلى بما يبتلى به كلنا وهو كذا فيذكر نفسه ومقصوده أن يذمّ غيرَه فى ضمن ذلك — ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلايتنبه له بعضُ الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغى اليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلةً له فى تحقيق خبثه — وكذلك يقول ساءنى ماجرى على صديقنا من الإستخفاف به فيكون كاذبا فى دعوى الإغتمام لأنه لو اغتمّ به لاغتمّ باظهار مايكرهه — وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه وهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على

خبث ضميره وخفى قصده وهو بجهله لا يدرى أنه قد تعرض لمقت عظيم — ومن ذلك الإصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها، وكان يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجيب ماعلمت أنه كذلك كنت أحسب فيه غير هذا: عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق المغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف — وفى الحديث ﴿مَنْ أُذِلَّ عنده مؤمن فلم يَنصُرْه وهو يقدر على نَصْره أذلَّه الله يومَ القيامة على رءُوس الخلائق﴾ وفى رواية ﴿مَنْ رَدَّ عن عرضِ أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردَّ عن عِرضه يومَ القيامة﴾

﴿الأسباب الباعثة على الغيبة﴾

منها التشفّى — وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه فيشتفى بذكر مساوئه فسبق اللسان اليه بالطبع إن لم يكن ثَمَّ دين وازع وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سبباً دائما لذكر المساوىء — فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة*

﴿ومنها﴾ موافقه الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، وقد يغضب رفقاؤه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم اظهاراً للمساهمة فى السرّاء والضرّاء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوىء *

﴿ومنها﴾ ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره

﴿ومنها﴾ الحسد وهو أن يحسد مَنْ يثنى الناسُ عليه ويحبونه ويكرمونه

فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه حتى يكفوا عن الثناء عليه واكرامه لأنه يثقل عليه ذلك *

﴿ ومنها ﴾ اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة والتعجب *

﴿ ومنها ﴾ السخرية و الاستهزاء إستحقاراً له : ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به *

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان — وهى أن يذكر اسم إنسان فى حالة التعجب أو الرحمة والغضب لله تعالى — فيقول مثلا . تعجبتُ من فلان كيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل فيكون تعجبه من المنكر لصدقه — أو يقول مسكين فلان غمّنى أمره وما ابتلى به وهو صادق فى الإغتمام — وكذا قد يغضب على منكر قارفه انسان فيظهر غضبه ويذكر اسمه . والواجب فى ذلك ستر اسمه وعدم اظهاره على غيره ولا عذر فى ذكر الإسم فى ذلك *

﴿ بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة ﴾

اعلم أن مساوىء الأخلاق كلها انما تعالج بمعجون العلم و العمل : وعلاج كف اللسان عن الغيبة اجمالا أن يعلم أنه يتعرض لسخط الله تعالى إذا ارتاب لارتكابه مانهى الله عنه . فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك — وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه : وذكر قوله ﷺ ﴿ طوبى لمن شغله عيبهُ عن عيوب النّاس ﴾ ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه و يذم غيره بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه — وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره وإن كان أمراً خلقياً فالذّم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . وإن لم يجد العبد عيباً فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوث نفسه بأعظم العيوب فإن ثلب

الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه انه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم الذنوب : وينفعه أيضاً أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لايرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالا يرضاه لنفسه ـ وبالجملة فمن قوى ايمانه انكف عن الغيبة لسانه *

﴿ بيان تحريم الغيبة بالقلب وذلك بسوء الظن ﴾

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظناً بأمر سيء ـ فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفوّ عنه ولكن المنهىّ عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب :فقد قال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لايعلمها الاعلام الغيوب فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءً الا اذا انكشف لك بعيان لايقبل التأويل فان لم ينكشف كذلك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغى أن تكذبه فانه أفسق الفساق : وقد قال الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾ وفى الحديث ﴿ إن الله حرّم من المسلم دمَهُ وماله وأن يظنّ به ظنّ السوء ﴾ وحينئذ فاذا خطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر « فان قلت » فماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث « فتقول » أمارة عقد الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه ، والمخرج منه أن لايحققه أى لايحقق في نفسه بعقد ولافعل لا في القلب ولا فى الجوارح . وربما يلقى الشيطان أن هذا من فطنتك وسرعة تنبهك وذكائك

وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى — وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته — ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السّر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه *

ومن ثمرات سوء الظن ﴿ التجسّس ﴾ فان القلب لايقنع بالظن ؛ ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهى عنه : قال الله تعالى ﴿ ولا تجسّسُوا ﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهىٌّ عنه في آية واحدة : ومعنى التجسس أن لايترك عبادَ الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه : وقد مضى فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته *

﴿ بيان الأعـذار المرخصة فى الغيبة ﴾

اعلمْ أنه اذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح فى الشرع الا بذكر مساوىء الغير فانه يرخص فيه ولا اثم وذلك فى أمور ﴿ منها ﴾ الظلم وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على انسان الى أمير ليستوفى له حقه اذ لايمكنه استيفاء حقه الا بنسبته إلى الظلم: قال ﷺ ﴿ إنّ لِصاحِبِ الحقّ مَقالاً ﴾ وعنه ﴿ مَطْلُ الغنيّ ظلمٌ ﴾ ﴿ ومنها ﴾ الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج الصلاح *

﴿ ومنها ﴾ الاستفتاء كما يقول للمفتى ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى اذا لم يفد الابهام أو التعريض — وذلك لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح لايعطينى ما يكفيني أنا وولدى أفآخذه من غير علمه فقال ﴿ خُذِى ما يكفيكِ وولدكِ بالمَعرُوفِ ﴾ فذكرتْ الشحّ والظلم لها ولولدها ولم يزجرها عليه السلام اذ كان قصدها الاستفتاء ﴿ ومنها ﴾ تحذير المسلم من الشرّ كما اذا علمت من انسان ضرراً فحذرت شخصاً منه وكالمزكي يطعن فى الشاهد اذا سئل عنه — وكذلك المستشار فى التزويج وايداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعه *

﴿ ومنها ﴾ أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا حرج في ذكره لضرورة التعريف ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قدصار مشهورا به : نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ـ ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص ،

﴿ ومنها ﴾ أن يكون مجاهرا بالفسق متظاهرا به ، ولا يكره أن يُذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به *

﴿ بيان كفّارة الغيبة ﴾

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج من حق الله سبحانه: ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته إن قدر عليه ولم يخش محذوراً : وقال الحسن يكفيه الإستغفار دون الإستحلال : وفي الحديث ﴿ أيعجزُ أحَدُكم أن يكونَ كأبِى ضَمْضَم كانَ إذا خرَجَ مِنْ بَيته قال اللهمَّ انى قد تصدّقْتُ بِعرْضى على النّاس ﴾ أى لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه ، وليس المراد إباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته: وقد قال تعالى ﴿ خُذِ العَفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عنِ الجاهِلِينَ ﴾ وفى الحديث أن جبريل قال للنبى ﷺ ﴿ إنَّ الله تَعالى يأمُركَ أنْ تَعْفُوَ عَمّنْ ظلَمكَ وتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وتُعْطِى مَنْ حَرَمكَ ﴾

﴿ الآفة السادسة عشر النميمة ﴾

قال الله تعالى ﴿ همّازٍ مشّاءٍ بِنَميم ﴾ وقال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة ﴾ قيل الهمزة النمّام : وقال تعالى ﴿ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ قيل إنها نمّامة حمالة للحديث : وقال ﷺ ﴿ لايَدخُلُ الجنّةَ نمّامٌ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ أحبّكم إلى الله أحاسِنُكم أخلاقاً المُوَطّئونَ أكنافاً (١) الذين يَألَفونَ ويُؤلَفونَ وإنّ أبْغَضكمْ

(١) فلان موطأ الأكناف كمعظم الجوانب كريم مضياف اهـ قاموس

إلى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاخوان الملتمسون للبرآء العثرات ﴾
وحد النميمة هو كشف مايكره كشفه سواء كان كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً و نقصاً فى المنقول عنه أولم يكن ـ بل حقيقة النميمة إفشاء السر و هتك الستر عما يكره كشفه ـ بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغى أن يسكت عنه الا مافى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود عليه

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو اظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل *

و كل من حملت اليه نميمة فعليه أن لايسارع الى ظن صدقه لقوله تعالى ﴿ إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وأن ينهاه و ينصح له وأن لا يظن بالغائب سوأ وأن لايحمله ذلك على التجسس *

وقال الحسن : من نم اليك نم عليك ـ وهذا اشارة الى أن النمام ينبغى أن يُبغض ولا يُوثق بقوله ولا بصداقته و كيف لا وهو لاينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون فى الأرض وقال تعالى ﴿ انَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِين يَظلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ والنمام منهم ـ وقال ﷺ ﴿ إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ اتقاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ ﴾ والنمام منهم : وقيل لمحمد بن كعب القرظى ، أىُّ خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السر وقبول قول كل أحد : وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك

﴿الآفة السابعة عشرة كلام ذى الوجهين﴾

وهو ذو اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه فى معاداته وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه ، وهو من علامات النفاق : نعم اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن ذا لسانين ولا منافقا فان الانسان قد يصادق متعاديين ، وأما لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شرٌّ من النمام لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر ويزيد أن يحسّن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه : نعم من ابتلى بمراعاة أحد الجانبين فى قول مّا لضرورة وخاف من تركه فهو معذور فان اتقاء الشر جائز: قال أبو الدرداء رضى الله عنه : انا لنكشّرُ في وجوه أقوام وأن قلوبنا لتلعنهم : وقال عائشة استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال ﴿ ائْذنوا له فَبِئْسَ رَجُلُ العَشيرَةِ هُوَ ﴾ ثم لما دخل ألان له القولَ فلما خرج قلت يارسول الله قلت فيه ماقلت ثم ألنتَ له القول: فقال ﴿ ياعائشةُ انَّ شرَّ النَّاس الّذى يُكرَمُ اتقاءَ شرِّه ﴾ ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى الكشر والتبسم ، والا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل ، فان فَعَلَ ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه ، وللضرورات حكمها *

﴿الآفة الثامنة عشر المدح﴾

وهو منهيٌّ عنه فى بعض المواضع ـ أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ستُّ آفات : أربع من المادح ـ واثنتان فى الممدوح فأما المادح ﴿ فالأولى ﴾ أنه قد يفرط فيه فينتهى به الى الكذب ﴿ والثانية ﴾ أنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لايكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع مايقوله فيصير به مرائيا منافقا ﴿ الثالثة ﴾ أنه قد يقول مالا يتحققه ولا

سبيل له الى الاطلاع عليه ﴿ والرابعة ﴾ أنه قد يُفرحُ الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز : قال الحسن من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحبّ أن يعصى الله في الأرض *

وأما الممدوح فيضرّه من وجهين ﴿ أحدهما ﴾ أنه يحدث فيه كبراً وإعجابا وهما مهلكان ﴿ الثانى ﴾ هو أنه اذا أثنى عليه فرح وفتر ورضى عن نفسه وقلّ تشميره للعمل

فان سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا اليه *

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ويتذكر أنه يعلم من نفسه مالا يعلمه المادح وانه لو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكفّ المادح عن مدحه : وكان علىّ رضى الله عنه اذا أثنى عليه يقول « اللّهم اغفر لى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » وعلى المادح أن لا يجزم القول الا بعد خبرة باطنة : سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال أسافرت معه قال لا : قال أخالطته في المبايعة والمعاملة قال لا : قال أفأنت جاره صباحه ومساءه قال لا : فقال والله الذى لا إله إلاّ هو لا أراك تعرفه : وفي الحديث ﴿ إن كان أحدُكم لابدّ مادحاً أخاه فَلْيَقُلْ أحْسِبُ فُلاناً ولا أُزَكّى على اللهِ أحداً ﴾

﴿ الآفة التاسعة عشر الخطأ فى دقائق لفظية ﴾

ينبغى التنبيه لدقائق الخطأ فى فحوى الكلام والحذر عن الغفلة عنها لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته . مثاله ماجاء فى الحديث عنه ﷺ ﴿ لايَقُلْ أحدكُمْ ماشاءَ اللهُ وَشِئتَ وَلَكِنْ لِيَقُلْ ماشاءَ اللهُ ثُمَّ شِئتَ ﴾ وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وكان ابراهيم يكره أن تقول

الرجل : أعوذ بالله وبك ، ولولا الله وفلان . ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك . ولولا الله ثم فلان : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة *

وقال عمر : قال رسول الله ﷺ ﴿إنّ اللهَ تعالى يَنهاكم أنْ تحلِفوا بآبائكم﴾ قال عمر : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ ﴿ لا يَقولَنَّ أحدُكم عبدي ولا أمتي كلُّكم عبيدُ الله وكلُّ نسائكم إماءُ الله ولْيقلْ غلامي وجاريتي . ولا يقل المملوكُ ربّي ولا ربّتي ولْيقلْ سيِّدي وسيّدتي فكلُّكم عبيدُ اللهِ والربُّ اللهُ سبحانهُ وتعالى ﴾

وقال ﷺ ﴿لا تقولوا لِلمُنافِقِ سيدنا فإنّه إن يكن سيدَكم فقد أسخطتم ربَّكم﴾

فعلى المتكلم أن يوافقه ورع حافظ ومراقبة لازمة ليسلم عن الخطر .

﴿ الآفة العشرون سؤال العوام عن الغوامض ﴾

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح إلا أن الفضول خفيف على القلب والعامي قد يفرح بالخوض في العلم إذ الشيطان يخيل اليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى قد يتكلم بما هو كفر ولا يدري . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالإضافة اليه عامي وفي الحديث نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ فلما لم يصبر حتى سأل

فلانا قال ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ وفرقه : فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات فيجب منعهم من ذلك وزجرهم ٠

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

إن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وأنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد — وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار والحركة والاضطراب — ومن نتائج الغضب الحقد والحسد وبهما هلك من هلك وفسد من فسد — ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساوئه ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القلب إن كان ، وينفيه : وهاك بيان ذلك بعونه تعالى

﴿ بيان ذم الغضب ﴾

قال الله تعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية : ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة : وروى أن رجلا قال يارسول الله مرني بعمل واقلل : قال ﴿ لا تغضب ﴾ ثم أعاد عليه فقال ﴿ لا تغضب ﴾ وقال ﷺ ﴿ ما تعدون الصرعة فيكم ﴾ قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال ﴿ ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب ﴾

ومن حكمة « الغضب مفتاح كل شر » وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدة ، وقائده الغضب — ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين ، وحزم فى لين . وإيمان فى يقين ، وعلم فى حلم . وكيس فى رفق . وإعطاء فى حق . وقصد فى غنى . وتجمل فى فاقة ، وإحسان فى قدرة . وتحمل فى رفاقة . وصبر فى شدة . لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنة ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتر يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى رخاء *

﴿ درجات الناس مع الغضب ﴾

اعلم أن قوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره فى العروق وارتفاعه الى أعالى البدن كما ترتفع النار والماء الذى يغلى فى القدر فلذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها *

ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والإفراط والإعتدال ﴿ أما التفريط ﴾ ففقد هذه القوة أو ضعفها — وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه إنه لا حمية له : وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى ﷺ بالشدة والحمية : فقال ﴿ أشداء على الكفار ﴾ وقال لنبيه ﷺ ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب *

﴿ وأما الإفراط ﴾ فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة

المضطرّ - ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغيّر اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق ؛ وتحمرّ الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبانُ في حال غضبه قبحَ صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته ، وقبحُ باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فان الظاهر عنوان الباطن ، وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغيّر الظاهر ثمرة تغير الباطن : فقس المثمر بالثمرة — فهذا أثره فى الجسد *

وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم ، والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ، ويستحى منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن وقد يمزّق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ؛ وربما يعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القصعة أو يشتم البهيمة أو تروحه دابة فيرفسها ويقابلها بذلك كالمجنون

وأما أثره فى القلب فالحقد والحسد ، واضمار السوء ، والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر ، وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح - فهذه ثمرة الغضب المفرط

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الذلّ من الأخساء وصغر النفس وهو ايضاً مذموم اذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو صونها قال صلى الله عليه وسلم « إنّ سَعْداً لَغَيُورٌ وأنا أغيرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللهُ أغْيَرُ مِنّى » وانما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب - ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها ، وضعت الصيانة فى نسائها

ومن ضعف الغضب الجور والسكوت عند مشاهدة المنكرات : وقد قال تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ *

فقدُ الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده ، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال ﴿خيرُ الأمور أوساطها﴾ *

﴿ زوال الغضب بالرياضة وغيرها ﴾

اعلم أنه مادام الإنسان يحب شيأ ويكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع إلا أنه قد تفيد الرياضة في محو قوته وذلك بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخاً : فالرياضة ليست ليعدم غيظ القلب لأنه غير ممكن ولكن ليستعمله على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل وذلك بكسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن وينتهي ضعفه الى أن لا يظهر أثره في الوجه ، وقد يتصور فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد أو بأن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ فتطفىء شدة حبه لله تعالى غيظه ، أو بأن يشتغل القلب بضروري أهم من الغضب فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه *

﴿بيان الأسباب المهيجة للغضب﴾

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب ، وأسبابه المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال والجاه ؛ وهي بجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ولا بد من إزالتها بأضدادها فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، وتزيل الفخر بأنك من جنس أقل مخلوق إذ الناس يجمعهم

في الإنتساب أبٌ واحد، وإنما الفخر بالفضائل: والفخر والعجب أكبر الرذائل، وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه — وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك الى سعادة الآخرة — وأما الهزء فتزيله بالتكرم على ايذاء الناس و بصيانة النفس عن أن يستهزأ بك — وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مُرّ الجواب — وأما شدة الحرص فبالصبر على مُرّ العيش وبالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة: وكل خُلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمّل مشقة. وحاصل رياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مواظبة أضدادها مدّة مديدة حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلّصت أيضاً من الغضب الذى يتولد منها: و أشد البواعث للغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة وعزّة نفس حتى تميل النفس اليه و تستحسنه — وهذا من الجهل بل هو مرض قلب و نقصان عقل، ويعالج هذا الجاهل بأن نتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الانبياء والعلماء

﴿ بيان علاج الغضب بعد هيجانه ﴾

ماتقدم هو حسم لموادّ الغضب حتى لا يهيج فاذا جرى سبب هيّجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطرّ صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، و انما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم و العمل — أما العلم فهو أمور*

﴿ الأوّل ﴾ أن يتفكر فيما ورد في فضل كظم الغيظ و العفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ويمنعه الرغبة فى الأجر عن الانتقام ويطفىء عنه غيظه

﴿ الثانى ﴾ أن يخوّف نفسه بعقاب الله لو أمضى غضبه، وهل يأمن من غضب الله عليه يوم القيامة و هو أحوج مايكون إلى العفو

﴿الثالث﴾ أن يحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة *

﴿الرابع﴾ أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب . ويتفكر فى قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى، والسبع العادى ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقى معه مسكة من عقل

﴿الخامس﴾ أن يتفكر في السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ مثل قول الشيطان له ان هذا يحمل منك على العجز والذلة وتصير حقيراً في أعين الناس : فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين : فمهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله . فما له وللناس . وأما العمل فان تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإن كنت قائماً فاجلس وان كنت جالساً فاضطجع : ويستحب أن يتوضأ بالماء البارد فان الغضب من النار والنار لا يطفئها الا الماء .

﴿فضيلة كظم الغيظ﴾

قال الله تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين ، وأن مغفرة ربهم تعالى وجنته أعدت لهم ، أوصافهم

الجزاء : وقال ﷺ ﴿ مَن كفَّ غضبَهُ كفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ ومَنِ اعتذر إلى ربِّه قبِلَ اللهُ عذرَهُ ومَنْ خزَنَ لسانهُ سَتَرَ اللهُ عورتَهُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ أشدُّكم مَنْ غَلَبَ نفسَهُ عند الغضبِ وأحلمُكم مَنْ عفا عندَ القدرةِ ﴾ وروى أن رجلا من جفاة الأعراب قال لعمر رضى الله عنه والله ما تقضي بالعدل، ولا تعطى الجزل فغضب عمرُ حتى عُرف ذلك فى وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرْف وأعرِضْ عن الجاهلين ﴾ وإن هذا من الجاهلين فسكن عمر رضى الله عنه وعفا عنه*

﴿ فضيلة الحلم ﴾

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلّم أى تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلاّ من هاج غيظُه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلّم وكظم الغيظ تكلّفاً : وفى الحديث ﴿ إنّما العلمُ بالتعلّم والحلْمُ بالتحلُّم ﴾ إشارة إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم : وعنه ﷺ ﴿ إنَّ الرَّجلَ المسلمَ لَيُدرِكُ بالحلْم درَجةَ الصّائم القائم ﴾ وعن الحسن في قوله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال حلماء إن جُهِل عليهم لم يجهلوا : وعن مجاهد فى آية ﴿ وإذا مرُّوا باللّغو مرُّوا كراماً ﴾ أى إذا أوذوا صفحوا : وعن علىّ رضى الله عنه «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكنَّ الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهى الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى» وقال أكثم دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر ، وقال معاوية لا يبلغ العبدُ مبلغ الرأى حتى يغلب حلمُه جهلَه وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم : وقال معاوية لعمرو بن الأهتم أى الرجال أشجع فقال

من ردّ جهله بحلمه ، قال أى الرجال أسخى : قال من بذل دنياه لصلاح دينه ، و قال معاوية لعرابة « بم سدت قومك » قال « كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم » فمن فعل مثل فعلى فهو مثلى ، ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصّر عنى فأنا خير منه : وقال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ إدْفَعْ بالَّتى هي أحسنُ فإذا الّذى بينكَ وبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنّهُ ولِىٌّ حميمٌ وما يُلقّاها إلاّ الذينَ صَبَرُوا وما يُلقّاها إلاّ ذو حظٍّ عَظيمٍ ﴾ هو الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنت كاذباً فغفر الله لك ، وإن كنت صادقاً فغفر الله لى : وعن على بن الحسين رضى الله عنهما انه سبه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم : فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعده من الله عزوجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير *

﴿ بيان القدر الذى يجوز به الانتصار من الكلام ﴾

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السبّ بالسبّ وكذلك سائر المعاصى : وقد نهى رسول الله ﷺ عن مقابلة التعيير فقال ﴿ إن امروٌ عيَّرك بما فيكَ فلا تعيّرهُ بما فيه ﴾ وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه : قالوا والنهى النبوى عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه والأفضل تركه ولكنه لا يعصى به ـ قالوا: والذى يرخص فيه أن تقول من أنت ـ و يا أحمق ـ ويا جاهل ـ اذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله ياسيء الخلق يا ثلابا للأعراض وكان ذلك فيه ـ وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك فى عينى بما فعلت ـ واستدلوا بالحديث ﴿ المستبّانِ ماقالا فعَلَى البادىءِ منهما حتىّ يعتَدَى المظلومُ ﴾ فأثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدى *

فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيدائه

السابق : قال الغزالى ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الإقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه — ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعا : وفى الحديث ﴿ خَيرُ بنِى آدمَ البطىء الغَضَبِ السَّريع الفَىْء وشرُّهمُ السَّريع الغضبِ البطىء الفىْء ﴾

﴿ معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق ﴾

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا : ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى : وقد قال ﷺ ﴿ المؤمن ليسَ بحقُود ﴾ والحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر أموراً منكرة ﴿ الأول ﴾ الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسرّ بمصيبة إن نزلت به وهذا من فعل المنافقين ﴿ الثانى ﴾ أن يزيد على اضمار الحسد فى الباطن فيشمت بما أصابه من البلاء ﴿ الثالث ﴾ أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك ﴿ الرابع ﴾ وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له ﴿ الخامس ﴾ أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وعورة ﴿ السادس ﴾ أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه ﴿ السابع ﴾ ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه ﴿ الثامن ﴾ أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام : وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق والعناية والقيام بحاجاته أو المعاونة على المنفعة له ، وكله مما ينقص الدرجة فى الدين ، و يفوت الثواب الجزيل

ولمّا حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لأمر ما نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتلِ أولوا الفضْلِ منكم والسعةِ أن يؤتُوا أولى القربى ألا تحبّون أن يغفرَ الله لكم ﴾ فقال أبو بكر نعم نحبّ ذلك وعاد إلى الانفاق عليه

والأولى أن يبقى على ما كان عليه فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس، وإرغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين*

﴿فضيلة العفو والإحسان﴾

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرأ عنه من قصاص أو غرامة قال الله تعالى ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرف وأعْرِضْ عن الجاهلين﴾ وقال تعالى ﴿وإنْ تَعْفُوا أقْرَبُ للتقوى﴾ وقال ﷺ ﴿التواضع لا يَزِيدُ العَبْدَ إلاّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يرفَعْكُمُ اللهُ والعَفْوُ لا يزيدُ العبدَ إلاّ عزّاً فاعفُوا يعزّكُمُ اللهُ والصدَقةُ لا تَزيدُ المالَ إلاّ كثْرَةً فتَصدَّقُوا يَرْحمْكُمُ اللهُ﴾ وقال ﷺ ﴿أفضلُ أخلاقِ أهْلِ الدّنيا والآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعطِي مَنْ حرَمَكَ وَتعفُو عمّن ظَلَمَكَ﴾ وروى عن الحسن البصري رحمهُ اللهُ أنه دخل على أمير يعرّض له بالعفو فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم اياه وطرحهم له في الجبّ فقال: « باعوا أخاهُ وأحزنوا أباهُمْ » وذكر مالقى من كيد النساء ومن الحبس: ثم قال أيها الأمير ماذا صنع الله به أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله: قال ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يغْفِرِ اللهُ لكم وَهُوَ أرحَمُ الرّاحمين﴾ فعفا ذلك الأمير: وروى أنّ ابن مسعود سرقت له دراهم فجعلوا يدعون على من أخذها « فقال لهم اللهم إن كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه » وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال فاذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والإفضال

﴿فضيلة الرفق﴾

إعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدّة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، ولا يحسن الخلق الا بضبط قوة الغضب وحفظها على حدّ الاعتدال، ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه فقال ﴿مَنْ أعطِيَ حظّهُ مِنَ الرّفقِ فقد أُعْطِيَ حَظّهُ مِنْ خيرِ الدّنيا والآخِرَةِ

وَمَنْ حُرِمَ حظَّه من الرِّفق فقد حُرِم حظَّه من خير الدُّنيا والآخرة ﴾ وقال ﷺ ﴿ إذا أحبَّ اللهُ أهلَ بَيْتٍ أدْخَلَ عَلَيْهِم الرِّفق ﴾ وقال ﷺ لعائشة ﴿ عَلَيْكِ بالرِّفق فإنه لا يَدْخُلُ في شيءٍ إلاّ زانه ولا ينزَعُ من شيءٍ إلاّ شانهُ ﴾

وسرّ الترغيب في الرفق والثناء عليه هو كون الطباع إلى العنف والحدة أميل ، وإن كان العنف في محله حسنا فإن الحاجة قد تدعو إليه ولكن على الندور : والكامل من يميّز مواقع الرّفق عن مواقع العنف فيعطي كل أمر حقّه

﴿ ذمّ الحسد ﴾

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد الذميم : وللحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يُحصي : وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة منها قوله ﷺ ﴿ الحَسَدُ يأكُلُ الحَسَنَات كما تأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ ﴾ وقوله ﴿ لا تَحاسَدُوا ولا تقاطَعُوا ولا تباغَضُوا ولا تَدابَرُوا و كونوا عبادَ الله إخواناً كما أمرَكم اللهُ ﴾ ومن الآثار : قول بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد ـ حَسَدَ ابليسُ آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له : فحمله الحسد على المعصية : وعن ابن سيرين رحمه الله « ما حَسدتُ أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار » وقال بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس إلاّ مذمة وذلاً ، ولا ينال من الملائكة إلاّ لعنة و بغضاً ، ولا ينال من الخلق إلاّ جزعاً وغماً ولا ينال عند الموقف إلاّ فضيحة ونكالا *

﴿ حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ﴾

الحسد نوعان ﴿ أحدهما ﴾ كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ﴿ وثانيهما ﴾ عدم محبة زوالها وتمني مثلها وهذا يسمى غبطة : فالأول حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بها على محرّم كإفساد وإيذاء. فلا يضرك محبة زوالها عنه من حيث هي آلة الفساد : ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها ، وإن هذه

الكراهة تسخط لقضاء الله فى تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لاعذر فيه ولا رخصة ـ وأى معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان : وقال تعالى ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد ـ وأما المنافسة فليست بحرام بل قد تكون مطلوبة : قال تعالى ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ ﴾ فلا حرج على من يغبط غيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له ـ وأما تمنى عين نعمة الغير بانتقالها اليه لرغبته فيها بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لا زوالها فهو مذموم لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وأما تمنيه لمثل ذلك فليس مذموما فاعرف الفرق ❊

﴿ اسباب الحسد ﴾

للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عديدة ﴿ فمنها ﴾ العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد ، والحقد يقتضى منه التشفى والانتقام فان عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى : فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ومهما أصابته نعمة ، ساءه ذلك لأنه ضد مراده وربما يخطر له انه لا منزلة له عند

الله حيث لم ينتقم له من عـدوه الذى آذاه بل أنعم عليه : وبالجملة فالحسد يلزم البغض و العـداوة ولا يفارقهما ، وانما غاية التقى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه ﴿ ومنها ﴾ التعزز وهـو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره ﴿ ومنها ﴾ حب الرياسة وطلب الجاه بأن يكون منفردا هديم النظير غير مشارك في المنزلة يسوءه وجود مناظر له فى المنزلة ﴿ ومنها ﴾ خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد وأضطراب أموره وتنغص عيشه ، فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه ؛ وهـذا ليس له سبب ظاهر الاخبث في النفس ورذالة فى الطبع ، ومعالجته شديدةلأ نه خبث فى الجبلة لاعن عارض حتى يتصور زواله ؛ وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لايقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملةوتظهر العداوة بالمكاشفة أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه *

﴿ بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب ﴾

إعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم و العمل ؛ والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين وانه لاضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لامحالة — أما كونه ضررا عليك فى الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى و كرهت نعمته التى قسمها بين عباده وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية في حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان وناهيك بهما جناية على الدين ، وقد انضاف الى ذلك انك

فارقتَ أولياءه وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس والكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم ـ وهذه خبائث فى القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ـ وأما كونه ضرراً فى الدنيا فهو انك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ولا تزال فى كمد وغم إذ أعداؤك لايخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموماً ضيّق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدا ولا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة فما أعجب ممن يتعرّض لسخط الله من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ـ وأما أنه لاضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لاتزول عنه بحسدك ـ وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح ـ أما منفعته فى الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساوءه ـ فهذه هدايا تهديها اليه إذ تهدى اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فاذا تأملتَ هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئتَ أم أبيت باقية ، ومن تفكر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه ـ وأما العمل النافع فيه فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة فتعود القلوب الى التآلف والتحابب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ـ فهذه هى أدوية الحسد

وهى نافعة جداً الا أنها مُرّة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المر : فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ، وانما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للأعداء والتقرب اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها . وقوة الرغبة فى ثواب الرضاء بقضاء الله تعالى *

كتاب ذم الدنيا

الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة : وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يبعثوا إلا لذلك . فلا حاجة الى الإستشهاد بآيات القرآن لظهورها . وانما نورد بعض الأخبار الواردة فيها : وقد روى أن رسول الله ﷺ مر على شاة ميتة . فقال ﴿ أترون هذه الشاة هينة على أهلها ﴾ قالوا من هوانها ألقوها قال ﴿ والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء ﴾ وقال ﷺ ﴿ حب الدنيا رأس كل خطيئة ﴾ وقال ﷺ ﴿ ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ﴾

﴿ بيان الدنيا المذمومة ﴾

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ماهى، وما الذى ينبغى أن يجتنب منها ، وما الذى لا يجتنب فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهى : فنقول

دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك . فالقريب الدانى يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل

الوفاة فهى الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام ﴿القسم الأول﴾ مايصحبك فى الآخرة ويبقى معك ثمرته بعد الموت وهو العلم النافع والعمل الصالح ﴿القسم الثانى﴾ وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل مافيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة فى جملة الرفاهية والرعونات أى فى السرف ، فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة ﴿القسم الثالث﴾ وهو متوسط بين الطرفين كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة وهو مالا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التى بها يصل الى العلم والعمل — وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول لأنه معين على الأول و وسيلة اليه ـ فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا و كانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة: وإن أخذ ذلك بقصد حظ النفس فهو من الدنيا فاذًا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى: واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ونَهَى النفْسَ عنِ الهوى فإنَّ الجنَّةَ هِيَ المأوى﴾ ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله ﴿انَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكم وتكاثُرٌ فى الأموال والأولاد﴾

والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النِّساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهبِ والفضَّةِ والخيلِ المسَّومةِ والأنعامِ والحَرْثِ ذلكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا﴾ وبالجملة فكل ماليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا *

﴿بيان حقيقة الدنيا فى نفسها﴾

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظٌّ وله فى اصلاحها شغل وانما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها: قال الله تعالى ﴿انّا جعلْنا ماعَلَى الأرضِ زينةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهم أحسنُ عملاً﴾ فالأرض فراش

للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان ﴿أما النبات﴾ فيطلبه الآدمي للإقتيات والتداوى ﴿وأما المعادن﴾ فيطلبها للآلات والأوانى كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد ﴿وأما الحيوان﴾ فينقسم الى الانسان والبهائم - أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة — وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي ليستخدم كالغلمان أو ليتمتع به كالجواري والنسوان ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبّر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين — فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا : وقد جمعها الله تعالى فى قوله ﴿ زُيِّنَ للنَّاس حبُّ الشَّهوات من النِّساءِ والبَنينَ ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطيرُ المقنْطرة من الذَّهب والفضّة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿ والخيْل المُسوَّمة والأنعام ﴾ وهى البهائم والحيوانات ﴿ والحرْث ﴾ وهو النبات والزرع - فهذه هى أعيان الدنيا الا ان لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلق بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر - وهذه هى الدنيا الباطنة - وأما الظاهرة فهى الأعيان التى ذكرناها : العلاقة الثانيه مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الاعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب : وعلاقة البدن بالشغل ، ولو عرف نفسهُ وعرف ربّه وعرف حكمة الدنيا وسرّها علم أن هده الأعيان التى سميناها دنيا لم تخلق الا لقوامه ليتقوى بها على اصلاح دينه حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته ، وبقى ملازما لسياسة الشهوات ومراقب

لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك الا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فقد كانوا على المنهج القصد وعلى السبيل الواضح فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا افراط بل كان أمرهم بين ذلك قواما ـ وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحبّ الأمور الى الله تعالى *

كتاب ذمّ البخل وذمّ المال

ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة و المال بعض أجزائها الجدير بافراد البحث عنه . اذ فيه آفات وغوائل وللإنسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان يحصل بهما الإختبار والإمتحان : ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة وللحريص حالتان ـ طمع فيما فى أيدى الناس ـ وتشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد حالتان امساك بحكم البخل و الشح وانفاق وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الإقتصاد ـ وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ـ ونحن نشرحه بعونه تعالى *

﴿بيان ذمّ المال وكراهة حبه﴾

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فمن اختار ماله وولده على ماعند الله فقد خسر وغبن خسرانا مبينا وقال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم. وقال تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ وقال ﷺ ﴿ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ وَلَا انْتَعَشَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ﴾ بيّن أن محبهما عابد لهما

ومن عبد حجرا فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك خفيٌّ وجليٌّ نعوذ بالله منهما : وقال ﷺ ﴿ يقولُ ابنُ آدمَ مالي مالي، وهلْ لكَ من مالكَ إلاّ ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو تصدّقتَ فأمضيتَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ ما ذئبانِ ضاريانِ أُرسلا في غنمٍ بأكثرَ إفساداً فيها مِنْ حُبِّ الشرفِ والمالِ والجاهِ في دينِ الرّجلِ المُسلمِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ هلكَ المكثِرُونَ الاّ مَنْ قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليلٌ ما هُمْ ﴾ وعن يحيى بن معاذ قال: الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه إن لدغك قتلك سمه: قيل وما رقيته قال أخذه من حلّه ووضعه في حقه : وعنه رحمه الله مصيبتان لم يسمع الاوّلون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته. قيل وما هما؟ قال يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله *

﴿بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم﴾

اعلم أن الله تعالى قد سمّى المال خيراً فى مواضع من كتابه العزيز: فقال جلّ وعزّ ﴿ إنْ تَركَ خيْراً ﴾ وقال تعالى ممتناً على عباده ﴿ وَيمدِدْكم بأموال وبنينَ ويجعلْ لكم جنّاتٍ ويجعَلْ لكم أنْهاراً ﴾ وقال ﷺ ﴿ نِعْمَ المالُ الصّالحُ للرّجُلِ الصّالح ﴾ ولا تقف على وجه الجمع بين الذّم والمدح إلا بان تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته حتى ينكشف لك أنه خيرٌ من وجه وشرٌ من وجه وأنه محمود من حيث هو خير، ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شرّ محض بل هو سبب الأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح تارة ويذم أخرى *

﴿بيان تفصيل آفات المال وفوائده﴾

قدّمنا أن المال فيه خير وشرّ. فمن عرف فوائده وغوائله أمكنه أن يحترز من شره ويستدرّ من خيره ـ أما الفوائد فدنيوية ودينية ـ أما الدنيوية فمعروفة وأما الدينية فتنحصر فى ثلاثة أنواع *

﴿ النوع الأول ﴾ أن ينفقه على نفسه إما في عبادة كالسفر للحج والعلم وإما فيما يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة ، وما لا يتوصّل الى العبادة الاّ به فهو عبادةٌ *

﴿ النوع الثانى ﴾ مايصرفه الىالناس وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ووقاية العرض ، وأجرة الإستخدام ﴿ أما الصدقة ﴾ فلا يخفى ثوابها *

﴿ وأما المروءة ﴾ فنعنى بها صرف المال الى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية واعانة وما يجرى مجراها فان هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلّم الى المحتاج إلا أن هـذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء فلا يوصف بالجود الا مَنْ يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة ـ وهذا أيضاً ممّا يعظم الثواب فيه : فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها ـ وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ودفع شرهم وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية ، ففى الحديث ﴿ ما وَقى به المرء عرْضَهُ كُتبَ له به صَدَقَةٌ ﴾ وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة والإنتقام على مجاوزة حدود الشريعة ـ وأما الإستخدام فهـو أن الأعمال التى يحتاج اليها الإنسان كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته *

﴿ النوع الثالث ﴾ مالا يصرفه الى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات وهى من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين ، وناهيك بها خيراً ـ فهذه جملة فوائد المال فى الدين *

﴿ وأما الآفات ﴾ فدينية ودنيوية ـ أما الدينية فثلاث ﴿ الأولى ﴾ أن تجر الى المعاصى فان المال يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور *

﴿ الثانية ﴾ أنه يجر إلى التنعم في المباحات والتمرن عليه حتى يصير مألوفاً عنده ومحبوبا لا يصبر عنه . وإذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه وذلك من شؤم المال .

﴿ الثالثة ﴾ أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران : وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساب وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه والفكر فى خصومة الشركاء ومنازعتهم ، وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها ، فإذاً ترياق المال أخذه من حله وصرفه فى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات . نسأله تعالى السلامةَ والعونَ بلطفه وكرمه *

﴿ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والإقتصاد ﴾

ينبغى للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير متلفت إلى مافى أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان لئلا يتدنس بذل الحرص فيجره إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات ، وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة : قال رسول الله ﷺ ﴿ لوْ كانَ لابنِ آدمَ وَاديانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى لهما ثالثاً ﴾ وعلاج ذلك لايكون إلا بأمور :

﴿ الأول ﴾ الإقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق وهو الأصل فى القناعة فإن من كثر خرجُهُ واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة : وفى الحديث « ماعالَ من اقْتَصَدَ » وعنه ﷺ ﴿ ثلاثٌ مُنْجِياتٌ : خَشْيَةُ اللهِ فى السرِّ والعَلانِيَة والقصْدُ في الغنى والفقْرِ والعدْلُ في الرِّضا والغضب ﴾ وعنه ﷺ ﴿ الاقْتصادُ وحُسْنُ السَّمْتِ والهدْىُ الصَّالحُ جُزْءٌ منْ بضْعٍ وعشْرِينَ جُزءًا من النُّبُوَّةِ ﴾

﴿ الثانى ﴾ أن يتحقق بأن الرزق الذى قُدِّرَ له لابد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ﴿ الثالث ﴾ أن يعرف مافى القناعة من عز الإستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل والمداهنة *

﴿ الرابع ﴾ أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى ، ثم ينظر أحوال الأنبياء والأولياء ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخيّر عقله بين أن يكون على مشابهة الفجّار أو الأبرار فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير *

﴿الخامس﴾ أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال ويتم ذلك بأن ينظر ابداً الى مَنْ دونه في الدنيا لا الى مَنْ فوقه — فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خُلق القناعة، وعماد الأمر الصبر *

﴿ بيان فضيلة السخاء ﴾

إعلم أن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشحّ والبخل فان السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من اصول النجاة : وقد روى عن النبي ﷺ فيه أحاديث كثيرة منها ﴿ خُلُقانِ يُحبّهُما اللهُ تعالى حُسنُ الخُلُقِ والسَّخاء ، وَخُلُقانِ يُبغِضُهما الله سوء الخُلُقِ والبُخلُ واذا أرادَ اللهُ بعَبدٍ خيراً استَعمَلَهُ في قضاءِ حوائجِ النّاس ﴾ وعنه ﷺ ﴿ إنّ مِنْ مُوجِباتِ المَغفِرة بَذلَ الطّعامِ وإفشاءَ السّلامِ وحُسْنَ الكلام ﴾ وقال أنس إن رسول الله ﷺ لم يسأل شيأ على الإسلام الا اعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه. فقال يا قوم اسلموا فان محمدا يُعطى عطاء من لايخاف الفاقة : وقال ﷺ ﴿ إنَّ السّخى قريبٌ من الله قَريبٌ من النّاسِ قريبٌ من الجنّةِ بعيدٌ من النّار وإنَّ البخيلَ بعيدٌ من الله بعيدٌ من النّاس بعيدٌ من الجنة قَريبٌ من النّار. وجاهلٌ سخيٌ أحبُّ إلى الله منْ عالم بخيل وأدْوَأُ الدّاءِ البخلُ ﴾ وقال ﷺ ﴿ كلُّ معرُوف صدقةٌ وكلُّ ما أنفقَ الرّجلُ على نفسهِ وأهلهِ كُتِبَ له صدقةٌ وما وقى به الرّجل عرضَهُ فهوَ له صَدَقةٌ وما أنفقَ الرّجلُ مِنْ نفقةٍ فعلى الله خلفُها ﴾ وقال ﷺ كلُّ معرُوف صدقةٌ .

والدّال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان» وعن الحسن بن علي « الكرم هو التبرّع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحلّ والرأفة بالسّائل مع بذل النّائل »
وعن عبدالله بن جعفر : أمطر المعروف مطراً فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللئام كنت له أهلا — ومن سخاء السلف ما حكي أن ابن عامر اشترى داراً بتسعين ألف درهم — فلما كان الليل سمع بكاء أهلها فسأل فقيل يبكون لدارهم . فقال ياغلام إيتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً — وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا : وعن أسماء بن خارجة أن عبدالملك سأله عن خصال حدّث بها عنه فأجابه أسماء : مامددت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولاصنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلاّ كانوا أمنّ عليّ مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيأ فاستكثرت شيأ أعطيته إياه : وعن الشافعي أن حمّاد بن أبي سليمان انقطع زرّه وهو راكب فمرّ على خياط وأراد النزول فبادره الخياط وحلف عليه أن لاينزل وأصلح له زرّه وهو راكب فأخرج له صرّة فيها عشرة دنانير وسلّمها له واعتذر اليه من قلّتها : قال الشافعي لا أزال أحب حمادا لما بلغني عنه ، وأنشد الشافعي لنفسه *

يالهف قلبي على مال أجود به — على المقلّين من أهل المروءات
إنّ اعتذاري الى من جاء يسألني — ماليس عندي من احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان : قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله. فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عني . وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكي. فقال له سعيد مايبكيك. قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى : وروى أن علياً كرّم الله وجهه بكى فقيل مايبكيك فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني . وروى أن رجلا أتى صديقا له فدقّ عليه الباب فقال ما جاء بك قال عليّ أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكي. فسألته امرأته فقال أبكي لأني

لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مفاتحتى . فرحم الله من هذه أخلاقهم وغفر لهم *

﴿ بيان ذم البخل ﴾

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾وقال ﷺ﴿ إياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم ﴾وقال ﷺ ﴿ لا يدخل الجنة بخيل ﴾وعنه ﷺ ﴿ إن الله يبغض البخيل في حياته السخى عند موته ﴾ وقال ﷺ ﴿ خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق ﴾ وعن على كرم الله وجهه : سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على مافى يده ولم يؤمر بذلك : قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال الشعبى : لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الكذب : وقال بشر ابن الحارث : البخيل لا غيبة له : قال النبى ﷺ ﴿ إنك إذاً لبخيل ﴾ وقال ﷺ لوفد بنى لحيان ﴿ من سيدكم ﴾ قالوا جد بن قيس الا أنه رجل فيه بخل فقال ﷺ ﴿ وأى داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح ﴾ وكان عمرو يولم على رسول الله ﷺ اذا تزوج . وعن على رضى الله عنه قال : والله ما استقصى كريم قط حقه: قال الله تعالى﴿ فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ وقال بشر النظر الى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين : وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه *

﴿ بيان الإيثار وفضله ﴾

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه وانما السخاء عبارة عن بذل

مالايحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد، وكما أن السخاوة قد تنتهى الى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة . فالبخل قد ينتهى الى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ـ فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهى الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لأكلها، فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج اليه ، فانظر ما بين الرجلين فان الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء . وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فقد روى أنه نزل برسول الله ﷺ ضيفٌ فلم يجد عند أهله شيأ. فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج ، وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام. فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ ﴿ لقد عَجِبَ اللهُ مِنْ صنيعكم اللَّيلةَ الى ضَيفكم ﴾ ونَزَلَتْ ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصَةٌ ﴾ فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والايثار أعلى درجات السخاء ؛ وكان ذلك من دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيما : فقال تعالى ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

قيل خرج عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أتى الغلامُ بقوته فدخل الحائط كلبٌ ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه الثانى والثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه . فقال ياغلام كم قوتك كل يوم . قال ما رأيت . قال فلم آثرت به هذا الكلب قال ماهى بأرض كلاب إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم. قال أطوى يومى هذا . فقال عبد الله بن جعفر أُلامُ على السخاء ان هذا الغلام لأسخى منى فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه ✻

وقال عمر رضى الله عنه أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة : فقال إن أخى كان أحوج منى اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول *

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك من أيام فتوح الشام — أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فإذا أنا به : فقلت أسقيك فأشار إلى أن نعم فإذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى إلى إنطلق به اليه. قال فجئته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال آه ، فأشار هشام إنطلق به اليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين *

﴿ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما ﴾

إعلم أن المال خلق لحكمة وهو صلاحه لحاجات الخلق — فيمكن إمساكه عن صرفه إلى ماخلق الصرف اليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى مالا يحسن الصرف اليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط هو المحمود : وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء: وقد قيل له ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وقال تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا بد أن يكون قلبه طيباً به غير منازع له فيه — ثم أن الواجب بذله قسمان: واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة ، والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤديها ولكنه يشق عليه

حقانه بخيل بالطبع ـ أو الذى يتيمّ الخبيث من ماله و لا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل *

و من واجب المروءة ترك المضايقة والإستقصاء في المحقرات فان ذلك مستقبح و استقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة، و يستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه مالا يستقبح مع الأجانب؛ و يستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد، و يستقبح فى الضيافة من المضايقة مالا يستقبح فى المعاملة : و بالجملة فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع و إما بحكم المروءة ، ومن أدّى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات . فاصطناع المعروف وراء ماتوجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس، و لا يكون عن طمع و رجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع في الشكر و الثناء فهو بيّاع و ليس بجواد فانه يشترى المدح بماله ، و مثله من يبعثه عليه الخوف من الهجاء أو ملامة الخلق فانه ليس من الجود لأنه مضطر اليه بهذه البواعث وهى أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد *

﴿ بيان علاج البخل ﴾

إعلم أن البخل سببه حبّ المال و لحب المال سببان ﴿أحدهما﴾ حب الشهوات التى لا وصول اليها الا بالمال مع طول الأمل ﴿الثانى﴾ أن يحب عين المال و يلتذ بوجوده و إن علم أنه زائد عن حاجاته بقية عمره : وقدمنا أن علاج كل علة بمضادة سببها . فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال ضياعه بعدهم ؛ و يعالج التفات القلب إلى الولد بان خالقه خلق معه رزقه ؛ و كم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال

للولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو الى شر ويعالج قلبه أيضا بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم : ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فإنه ما من بخيل الا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه فيعلم أنه مستثقل ومستقدر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء فى قلبه — ويعالج قلبه أيضاً بأن يتفكر فى مقاصد المال وأنه لماذا خلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقى يدّخره لنفسه فى الآخرة بأن يحصل له ثواب بدله — فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم — فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا : فإذا تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه *

كتاب ذم الجاه والرياء

إعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والإشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه : قال الله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأَرْضِ ولا فَسَاداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو في الأرض وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً : وقال عزّ وجلّ ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فيها وهُمْ فيها لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فيها وبَاطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها : وفي الحديث ﴿ حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إليهِ بالأَصابعِ في دينِهِ ودُنْيَاهُ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ

ولكن يَنظرُ إلى قلوبكمْ وأعمالكمْ ﴾ وروى في فضيلة الخمول عنه ﷺ ﴿ رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرَين لا يُؤبَهُ له لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ألا أدلُّكم على أهلِ الجنّةِ كلُّ ضعيفٍ مُستضعَفٍ لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ وأهلُ النّارِ كلُّ متكبّرٍ مُستكبرٍ جوّاظٍ ﴾ والأخبار في مذمة الشهرة وفضيلة الخمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب ؛ وحب الجاه منشأ كل فساد — ثم إن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها : فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم *

﴿ بيان الحدّ الذي يباح فيه الجاه ﴾

إعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها أي القدرة على التصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه — فحكم الجاه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت ، والدنيا مزرعة الآخرة : وكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة : فحب الجاه والمال لأجل التوسل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدّين وهو حرام *

والقول الفصل في طلب المنزلة والجاه في قلوب الناس أن يقال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان مباحان ، ووجه محظور *

﴿ أما الوجه المحظور ﴾ فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوي ، أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة

﴿ وأما أحد المباحين ﴾ فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول

يوسف ﷺ فى ما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ إجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم ﴾ فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه ٭

﴿ والثانى ﴾ أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به : فهذا أيضا مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر كالذى يخفى عمن يريد إستئجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقى اليه أنه ورع فان قوله إنى ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب لا يوجب إعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب ٭

و من جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإن ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصاً. فطلب الجاه بهذا الطريق حرام — وكذا بكل معصية وذلك يجرى مجرى اكتساب المال بالحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع : فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال ٭

﴿ سبب حب المدح وبغض الذم ﴾

لا يُعرف طريق العلاج لذلك مالم يعرف سببه لأن مالا يُعرف سببه لا يمكن معالجته إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض ٭

لحبّ المدح والتذاذ القلب به أسباب ﴿ الأوّل ﴾ وهو الأقوى شعور النفس بالكمال ، و مهما شعرت بكمالها ارتاحت واهتزت و تلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ﴿ السبب الثانى ﴾ أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له و معتقد فيه ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ﴿ الثالث ﴾ أن ثناء المثنى و مدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ممن يعتد بثنائه فى ملأ فيكون المدح ألذ، والذم أشد على النفس . فأما العلة الأولى وهى استشعار الكمال — فتندفع بأن يعلم

الممدوح أنه غير صادق في قوله كما اذا مدح بأنه نسيب أو سخيّ أو عالم بعلم أو متورّع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذّة التي سببها استشعار الكمال و تبقى لذة الاستيلاء على قلبه و على لسانه ؛ وما بعدها فان كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله و يعلم خلوّه عن هذه الصفة بطلت اللذّة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذّات كلها ؛

﴿بيان علاج حبّ الجاه﴾

إعلم أن من غلب على قلبه حبّ الجاه صار مقصورًا لهمّ على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمراآة لأجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ماتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم — وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراآة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب فإذاً حب الجاه من المهلكات فيجب علاجه و إزالته عن القلب ، وعلاجه مركب من علم وعمل — أما العلم فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه — وهو كمال القدرة على قلوب الناس — إن صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات فلا ينبغي أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها — وأما العمل فبأن يأنس بالخمول ليسقط من نفوسهم ويستعين عليه بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول ، وينظر فى أحوال السلف وإيثارهم ثواب الآخرة على زخرف الدنيا ؛

﴿بيان وجه العلاج لحبّ المدح وكراهة الذم﴾

إعلم أن أكثر الخلق انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفا من الذّم وذلك من المهلكات فيجب معالجته : وطريقة ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم فمن الأسباب إستشعار الكمال بسبب قول المادح ، فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف

بها أم لا ، فإن كنت متصفا بها فإن كانت كالثروة والجاه فهذه لا تستحق المدح فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل ، وإن كانت كالعلم والورع فهذه وإن استحقت المدح إلا أنه لا ينبغى الفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ، وإن كانت الصفة التى مُدِحْتَ بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون *

ومن الأسباب ، الحشمة التى اضطرتِ المادحَ إلى المدح وهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لأن آفات المدح على الممدوح عظيمة كما تقدم فى آفات اللسان ، وقال النبى ﷺ مرّة للمادح ﴿ وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ ﴾

﴿ بيان علاج كراهة الذم ﴾

يُفْهَمُ ذلك مما تقدّم والقول الوجيز فيه أنّ من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت — وإما أن يكون كاذبا . فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغى أن تتقلد منته . فإن من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه فينبغى أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . وأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إيه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به لتقلع عنه ، وذلك من أسباب سعادتك فينبغى أن تفرح به لأن تنبهك بقوله غنيمة ؛ وجميع مساوىء الأخلاق مهلكة فى الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن تغتنمه — وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك — فلم تغضب عليه بقول انتفعت به انت وتضرّر هو به *

﴿ الحالة الثالثة ﴾ أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى

فينبغى أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى ثلاثة أمور :

﴿ أحدها ﴾ إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه . وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برىء عنه ﴿ والثانى ﴾ إن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك ، وكلّ مَنْ اغتابك فقد أهدى اليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقرّبك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله ﴿ وأما الثالث ﴾ فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من أعين الله وأهلك نفسَهُ بافترائه وتعرض لعقابه الأليم : فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم اهلكه بل ينبغى أن تقول . اللهم أصلحه . اللهم تب عليه . اللهم ارحمه كما قال ﷺ ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِر لِقَوْمِى اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لما أن كسروا ثنيّته وشجّوا وجهه وقتلوا عمه حمزَةَ يوم أحد *

ومما يهوّن عليك كراهية المذمة قطعُ الطمع — فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك . وأصل الدّين القناعة . وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، ومادام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدّين فلا ينبغى أن يطمع طالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذّم في سلامة دينه فإن ذلك بعيدٌ جداً *

﴿ بيان ذم الرياء ﴾

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات : إعلم أن الرياء حرام : والمرائى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار ﴿ أما الآيات ﴾ فقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

قال مجاهدهم أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ فمدح المخلصين بنفي كل ارادة سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله ﴿ومن الأحاديث﴾ قوله ﷺ ﴿ يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وأنا مِنْهُ بَرِيءٌ وأنا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ ﴾ قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال ﴿ الرِّيَاءُ يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَازَ العِبَادُ بِأَعْمَالِهِم اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمُ الجَزَاءَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يَقْبَلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عَمَلاً فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ فِي ظِلِّ العَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ رَجُلاً تَصَدَّقَ بِيَمِينِهِ فَكَانَ يُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ ﴾ ولذلك ورد ﴿ إِنَّ فَضْلَ عَمَلِ السِّرِّ عَلَى عَمَلِ الجَهْرِ بِسَبْعِينَ ضِعْفاً ﴾

وروى أن المسيح عليه السلام كان يقول « إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله . واذا صلى فليرخ ستر بابه » *

ومن الآثار ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطىء رقبته فقال : ياصاحب الرقبة إرفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب انما الخشوع فى القلوب ؛ ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك ؛ وقال الضحاك : لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لاشريك له *

﴿ بيان حقيقة الرياء وجوامع مايراءى به ﴾

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم

خصال الخير ، والمراءى به كثير ويجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو البدن، والزى ، والقول، والعمل ، والاتباع والأشياء الخارجة فأما الرياء فى الدين بالبدن فكاظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين غلبة خوف الآخرة و كتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر ، ومثله خفض الصوت واغارة العينين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم أومتوقر للدين أو ضعيف القوة من الجوع وعن هذا روى «إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه» لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء *

وأما الرياء بالهيئة والزى فمثل تشعيث الشعر وحلق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والهدء في الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام كل ذلك يرائى به ليظهر أنه متبع للسنة ومقتد بالصالحين ؛ ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن ، ومنه التقنع فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ؛ ومنه الطيلسان يلبسه مَنْ هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم : والمراءون بالزى على طبقات كل طبقة منهم يرى منزلته في زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال الى ما دونه وإلى مافوقه وان كان مباحا بل هو عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا *

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار لاظهار شدة العناية بأحوال الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد إفحام الخصم *

وأما الرياء بالعمل فكمراآة المصلي بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الإلتفات *

وأما المراآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا أو عابداً من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه أو أميراً من الأمراء ليقال إنهم يتبركون به وكالذي يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد ليتباهى عند خصمه — فهذه مجامع ما يرائي به المراءون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد لاعتقاده أنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال *

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد — ومنهم من يريد انتشار الصيت — ومنهم من يريد الإشتهار عند الامراء لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة — ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو كان من الحرام — وهؤلاء شر طبقات المرائين

﴿ حكم الرياء ﴾

اعلم أن الرياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات — فأما المراآة بما ليس من العبادات فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب لئلا تزدريه أعين الناس واحترازا من ألم المذمة وطلبا لراحة الأنس بالإخوان ، وقد تكون طاعة كما إذا كان متموعا وعمله المذكور يرغب في اتباعه واستمالة القلوب اليه ؛ وقد تكون مذمومة كما إذا حملت على ما لا يجوز أودعت إلى أمور محظورات — وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها — وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فالمرائي فيها يبطل عبادته ويعصى ويأثم ؛ والمعنى فيه أمران ﴿ أحدهما ﴾ يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل اليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك *

﴿ الثانى ﴾ يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلقَ الله فهو مستهزئ بالله كما ورد ـ ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم ، و انما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه فان هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب اليه بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده . فاىّ استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضرًّا ولا نفعاً ، وهل ذلك إلاّ لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله و أنه أولى بالتقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته ، وأىّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ـ فهذا من كبائر المهلكات ولذا سماه رسول الله ﷺ ﴿ الشِّرْكُ الاصغرَ ﴾ ولو لم يكن فى الرياء إلاّ أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله وعن هذا كان شركا خفيا ـ وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه الاّ مَنْ خدعه الشيطان وأوهم عنده ان العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه الله تعالى مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لها ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم ﴿ لا يَجْزِى وَالدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولا مَوْلودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس . فلا ينبغى أن تشك في أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله تعالى *

﴿ درجات الرياء ﴾

إعلم أن أغلظ أنواع الرياءِ هو الرياء بأصل الايمان، وصاحبه مخلّد فى النار وهو الذى يُظهرُ كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ـ وهذا هو النفاق المذكور فى القرآن الكريم في مواضع شتى وذلك مما يقل فى زماننا ويلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الآخرة أو يعتقد طىّ بساط الشرع والأحكام ميلا الى أهل الإباحة

أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين فى النار *

وقسم من الرياء دون الأول بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة لكن خوفا من النّاس ، أو يزكى أو يحج ـ كذلك فيكون خوفه من مذمة النّاس أعظم من خوفه من عقاب الله ـ وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت *

وقسم يرائى بالنوافل يكسل عنها فى الخلوة : ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة وعيادة المريض واتباع الجنازة وصوم عرفة وعاشوراء خوفا من المذمة وطلباً للمحمدة ـ ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض وهذا أيضا عظيم ولكن دون ماقبله *

وقسم يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ـ فإذا رآه الناسُ أحسن الركوعَ والسجودَ وترك الإلتفات وتمم القعود بين السجدتين ـ وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردىء . فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته ـ وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة ـ فهذا أيضاً من الرّياء المحظور لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ـ فإن قال المرائى إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك . فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر *

وقسم يرائى بفعل مالا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته كالتطويل فى الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الإعتدال والزيادة فى القراءة على الصورة المعتادة ـ وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه *

وقسم يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجرى مجراه، وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به، وبعضه أشد من بعض والكل مذموم *

﴿ بيان المرائي لأجله ﴾

إعلم أن للمرائي مقصودا لا محالة وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض وله درجات ﴿ أحدها ﴾ أن يكون مقصوده التمكن من معصية كالذى يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يُعرَفَ بالأمانة فيولى منصباً أو يسلم اليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه أو يودع الودائع فيأخذها أو يتوصل إلى التحبب بامرأة لفجور ونحوه أو يحضر مجالس العلم والتذكير وقصده النظر لأمرد فهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته، ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصرّ عليها فيظهر التقوى لينفي التهمة عن نفسه *

﴿ ثانيها ﴾ أن يكون غرضه نيل حظ من حظوط الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذى يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه أو اعطائه فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول *

﴿ الثالثة ﴾ أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن يُنظر اليه بعين النقص ولا يُعدّ من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشي مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار *

وكذلك يسبق إلى الضحك أو يبدو منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء، واظهار الحزن . ويقول

. ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ﴿ وكالذى ﴾ يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفةَ أن يُنسبَ الى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيأ من ذلك ﴿ وكالذى ﴾ يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم أو يُدعى الى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم ؛ وقد لا يصرح بأنى صائم ولكن يقول لى عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ؛ وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته ثم إن اضطرَّ الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرتُ تطييبا لقلب فلان لأنه محب للإخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألحَّ علىَّ اليوم ولم أجد بدًّا من تطييب قلبه ، ومثل أن يقول إن أبوىَّ أو أحدهما يشفقان علىَّ يظنان أن لو صمتُ لمرضتُ فلا يَدَعانى أصوم ـ فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى الإنسان إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن ﴿ أما المخلص ﴾ فإنه لا يبالى كيف نظر الخلق اليه ، فإن لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا ، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ؛ وقد يخطر له أن فى اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور ـ فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين ، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من اشدّ المهلكات *

﴿ بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل ﴾

اعلم أن الرياء جلىّ وخفىّ ، فالجلىّ هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب ، وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بمجرده

إلاّ أنه يخفف العمل الذى يريد به وجهَ الله كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ، ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف تنشّط له وخف عليه ، وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ؛ وأجلى علاماته أن يسرّ باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ولكن إذا اطلع عليه الناس سرّه ذلك وارتاح له ؛ وروحّ ذلك عن قلبه شدّةَ العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفىّ منه يرشح السرور ؛ ولولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكناً فى القلب استكنان النار في الحجر ، فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالإطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض أو بالتمائل كخفض الصوت وآثار الدموع ، وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لا يريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك اذا رأى الناسَ أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه وأن يسامحوه فى البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فان قصّر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقضى الإحترام مع الطاعة التى أخفاها ؛ ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل مايتعلق بالخلق لم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من دبيب النمل ، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلاّ الصديقون .

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفىّ يجتهدون في اخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء ان تخلص أعمالهم الصالحة . فيجازيهم الله فى يوم القيامة باخلاصهم اذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة الا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفقتهم فى القيامة ، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزى والد عن ولده *

فإذاً شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فلو كان مخلصا لما بالى بالناس لعلمه أنهم لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب

فان قلت فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود و بعضه مذموم * فنقول السرور منقسم إلى محمود ومذموم ، فالمحمود مثل أن يكون قصده اخفاء الطاعة والإخلاص لله و لكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به وألطافه به إذلا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم، وقد قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

ومثل أن يظن رغبة المطلعين على الإقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السر بما قصده أولاً ، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور *

ومثل أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم و بحبهم للمطيع و بميل قلوبهم إلى الطاعة ـ فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله: وعلامة الإخلاص فى هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه ـ وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه و يعظموه و يقوموا بقضاء حوائجه و يقابلوه بالإكرام فهذا مكروه*

﴿ بيان ما يحبط العمل من الرياء ومالا يحبط ﴾

إذا اعقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فان ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص

سالما عن الرّياء إلاّ إذا ظهرت له بعده رغبةٌ فى الإظهار فتحدّث به وأظهره ـ فهذا مخوف . وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط ـ وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل وكان عقد على الإخلاص فان كان بمجرد سرور فلا يؤثر فى العمل، وان كان رياء باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله ، والخالص مالا يشوبه شيء فلا يكون مؤدّيا للواجب مع هذا الشوب ـ وأمّا الرياء الذى يقارن حال العقد كأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء فإن استمرّ عليه حتى سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولا يعتدّ بصلاته ، وإن ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التّمام فالأرجح أنه لا تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف لأن باعثه الرياء فى ابتداء العقد دون امتثال الأمر فلم ينعقد افتتاحه فلم يصح ما بعده *

﴿ بيان دواء الرّياء وطريق معالجة القلب فيه ﴾

عرفت مما سبق أنّ الرّياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات ـ وما هدا وصفه فحدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته *

وفى عـلاجه مقامان ﴿ أحدهما ﴾ قلع عروقه وأصـوله التى منها انشـعابه ﴿ والثانى ﴾ دفع ما يخطر منـه فى الحال *

﴿ المقام الأوّل فى قلع عروقه وأصوله ﴾

وأصله حُبّ المنزلة والجاه ـ وإذا فصل رجع إلى ثلاثه أصول وهى : حب لذّة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما في أيدى الناس ـ فهذه الثلاثة هي التى تحرّك المرائى إلى الرّياء . وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله تعالى وما يتعرّض له من العقاب والمقت الشديد والخزى الظاهر . فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته فى الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرّغبة عنه كمن يعلم أن

العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه : ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة — وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله — ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ماعند الله برجاء كاذب ووهم فاسد — وقد يصيب وقد يخطئ ، وإذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته — وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيأ ما لم يكتبه الله عليه ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه الى الله ان كان محمودا عند الله . فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً — فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه ، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه — فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء — وأما الدواء العملى فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله به *

﴿ المقام الثانى فى دفع العارض منه أثناء العبادة ﴾

وذلك لابد أيضاً من تعلمه فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء — فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره فإن هاجت الرغبة الى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الالهى وخسرانه الأخروى *

﴿ بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات ﴾

إعلم أن فى أسرار الإعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس فى الخير ولكن فيه آفة الرياء : قال الحسن إن السر

أحرز العملين ، ولكن فى الإظهار أيضاً فائدة ـ ولذلك اثنى الله تعالى على السر والعلانية . فقال ﴿ إن تُبْدُوا الصدَّقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ والإظهار قسمان :

﴿ أحدهما ﴾ فى نفس العمل ﴿ والآخر ﴾ بالتحدث بما عمل ﴿ القسم الأول ﴾ إظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها ، كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه . فقال النبى ﷺ ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً فَعَمِلَ بها كانَ لهُ أجرُها وأجرُ مَنِ اتَّبعَهُ ﴾ وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب فالسر أفضل من علانية لاقدوة فيها ـ أما العلانية للقدوة فافضل من السر ويدل على ذلك ان الله عز وجل أمر الأنبياء باظهار العمل للإقتداء . وقوله عليه السلام ﴿ لهُ أجرُها وَأجرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ﴾ ولكن على مَنْ يُظهر العملَ وظيفتان *

﴿ احداهما ﴾ أن يظهره حيث يعلم أن يقتدى به أو يظن ظناً ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وانما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو في محل الإقتداء به *

﴿ الثانية ﴾ أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حبُّ الرياء الخفىّ فيدعوه الى الإظهار بعذر الإقتداء . وانما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به . فليحذر العبدُ خدعَ النفس . فان النفس خدوع . والشيطان مترصد . وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات . فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيأ . والسلامة فى الإخفاء . وفى الإظهار من الإخطار مالا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا و بجميع الضعفاء .

﴿ القسم الثانى ﴾ أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل

نفسه . والخطر فى هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادةومبالغة·وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة الا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه . وتم اخلاصه وصغر الناس فى عينه · واستوى عنده مدحهم وذمهم . وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به . والرغبة فى الخير بسببه . فهو جائز بل مندوب اليه إن صفت النيةُ وسلمت عن جميع الآفات. لأنه ترغيب فى الخير. والترغيب فى الخير خير. وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء *

﴿بيان الخطأ فى ترك الطاعات خوفا من الرياء﴾

من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان وجر الى البطالة وترك للخير ، فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء والزم قلبك الحياء من الله اذا دعتك نفسك الى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك بل ان قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل. فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى . وان لم يبق باعث دينى بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك *

﴿ بيان ماعلى المريد قبل العمل وبعده وفيه ﴾

اعلم أن أولى ما يلزم المريدُ قلبَهُ في سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لايخاف الا الله ، ولا يرجو الا الله . فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان في هذه الرتبة فليلزم قلبهَ كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت واحباط العمل،وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة فان النفس تكاد تغلى حرصاً على الإفشاء. فينبغى أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله ملك

الآخرة ونعيم الجنة أبد الآباد وعظم غضب الله على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به ـ وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفيّ مالم يقف عليه فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوّزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها وردّ عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده ـ وأما في الابتداء فيكون متيقنا أنه مخلص ما يريد بعمله الا لله حتى يصح عمله ؛ وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياءِ إن كان قد لسبق وهو غافل عنه *

والذى يتقرّب الى الله بالسعى في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد الاّ الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا يريده ولا يستبعده منه لو قطعه ؛ ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله ويتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله لا ليكون له فى قلبه منزلة ولا فى قلب الخلق ، فان العباد أُمروا ألا يعبدوا الاّ الله ولا يريد بطاعتهم غيره *

وأما المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكرَ الله والقناعة بعلمه ولا يُخطِرَ بقلبه معرفةَ الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به ، وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدرى أنه المخفف للعمل عليه فاستشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً فى الخلوة . فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته

أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة إن وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وايمانه، ولو كان فى عبادة و اطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه. و من علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عن اقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لإكرامه إلا اذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى. فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع *

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لاتنحصر، ولا ينجيك منها الا أن تخرج ماسوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة *

كتاب ذم الكبر والعجب

﴿ ماورد فى ذم الكبر ﴾

قال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

وقال ﷺ ﴿ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أُبَالِي ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلا جَبَّارٌ ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَراً ﴾ وجاء فى فصل التواضع قوله ﷺ ﴿ مازَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ

إلاّ عزاً وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلاّ رفعهُ اللهُ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ طُوبى لمَن تواضعَ في غيرِ مَسْكنةٍ وأنفقَ مالاً جمعهُ في غيرِ معصيةٍ ورحِمَ أهلَ الذلِّ والمسكنةِ وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ مَنْ تواضعَ للهِ رفعهُ اللهُ ومَنْ تكبّرَ وضعهُ اللهُ . ومَنِ اقتصدَ أغناهُ اللهُ . ومَنْ بذرَ أفقرهُ اللهُ ومَنْ أكثرَ ذكرَ اللهِ أحبّهُ اللهُ ﴾

وقال الفضيل — وقد سُئل عن التواضع — أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبيّ قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته *

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق فى النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح — وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى، وآفته عظيمة وغائلته هائلة . وكيف لا تعظم آفته : وقد قال ﷺ ﴿ لا يدخُلَ الجنّةَ مَنْ في قلْبه مثقالُ ذرّةٍ منْ كبْرٍ ﴾ وإنما صار حجابا دون الجنّة لأنه يحول بين العبد و بين أخلاق المؤمنين كلها . وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة ؛ والكبر وعزّة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين ولا يقدر على ترك الحقد ولا يقدر أن يدوم على الصدق ، ولا يقدر على ترك الغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم: وبالجملة فما من خلق ذميم إلا وصاحب العزّ والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزّه ، وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه . فمن هذا لم يدخل الجنة مَنْ فى قلبه مثقال حبة منه ؛ وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له ، وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين *

و منشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره — ولذلك شرح رسول الله ﷺ

الكبر بهاتين الآفتين بقوله ﴿الكبرُ بطرُ الحقِّ وغمصُ الخلقِ﴾ أى ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه — وهذه الآفة الأولى، وبطر الحق هو رده وهى الآفة الثانية. فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أورد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعز والعظمة لا يليق الا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شىء فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير. فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلامُ تاجَ الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت، وما أعظم تهدفه للخزى والنكال، وما أشد استجراءه على مولاه، وما أقبح ما تعاطاه. فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم. فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه *

ووجه الآفة الثانية أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمر لجحده فما ذاك الا للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى تأبى أن ينقاد له — وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فكل من يتضح له الحق على لسان احد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق — وكذلك من تحمله الأنفة على قبول الوعظ كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ *

﴿بيان ما به التكبر﴾

اعلم أنه لا يتكبر الا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك الى كمال دينى أو دنيوى. فالدينى هو العلم والعمل. والدنيوى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار — فهذه سبعة أسباب.

﴿الأول العلم﴾ وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء فلا يلبث أن يستشعر فى نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه ويستحقر الناس، ويستجهلهم، ويستخدم من خالطه منهم، وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجولهم، وسبب كبره بالعلم أمران ﴿أحدهما﴾ أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما فى الحقيقة فان العلم الحقيقى ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره فى لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر: قال تعالى. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ *

﴿ثانيهما﴾ أن يخوض فى العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سىء الأخلاق. فانه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات فبقى خبيث الجوهر. فاذا خاض فى العلم صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلا. فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة. فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعاً وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا ـ واذا كان الرجل خائفا مع علمه فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا *

﴿الثانى العمل والعبادة﴾ وليس يخلو عن رذيلة الكبر، واستمالة قلوب الناس العباد فيترشح منهم الكبر فى الدين والدنيا ـ أما في الدنيا فهو أنهم يتوقعون ذكرهم بالورع والتقوى. وتقديمهم على سائر الناس. وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق. وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك: قال ﷺ ﴿إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ﴾ وانما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل

على أنه مزدر بخلق الله مغترّ بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته * وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره قال ﷺ ﴿ كفى بالمرء شرًّا أنْ يُحقِّرَ أخاهُ المُسْلمَ ﴾ وكثير من العبّاد اذا استخف به مستخف أوآذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتاً عند الله ــ وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والإغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدّى ويقال سترون مايجرى عليه، وإذا اصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته. وان الله ماأراد الاّ الانتقام له مع انه يرى طبقات من الكفّار يسبّون الله ورسوله، وعرف جماعة آذَوا الأنبياء صلوات الله عليهم. فمنهم من قتلهم، ومنهم من ضربهم. ثم أن الله أمهل اكثرهم ولا يعاقبهم في الدّنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدّنيا ولا فى الآخرة . أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بمالم يستقم لأنبيائه به ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه ــ فهذه عقيدة المغترين ــ وأما الأكياس من العباد فيقولون ماكان يقوله السلف بعد انصرافه من عرفات ﴿ كُنْتُ أرجُوا الرَّحمَةَ لجميعِهِمْ لوْلاَ كوْني فِيهِمْ ﴾ فانظر الى الفرق بين الرجلين ــ هذا يتق الله ظاهراً وباطنا وهو وجل على نفسه مزدرٍ لعمله، وذاك يضمر من الرياء والكبر والغل ماهو ضحكة للشيطان به. ثم أنه يمتن على الله بعمله، ومن آثار الكبر فى العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا فى الذيل حتى يضم انما الورع فى القلوب ــ قال رسول الله ﷺ ﴿ التقْوى ههنا ﴾ وأشار إلى صدره . فقد كان ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم. وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا كما قال تعالى ﴿ واخفِضْ جنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبعَكَ مِنَ المؤْمنين ﴾ *

﴿ الثالث ﴾ التكبر بالحسب والنسب . فالذى له نسب شريف يستحقر من

ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما ، وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم ، وقد يجرى على لسانه التفاخر به فيقول لغيره : من أنت ومن أبوك فأنا فلان ابن فلان ، ومع مثلي تتكلم ، وقد روى أن أبا ذرّ رضى الله عنه قال قاولت رجلا عند النبى ﷺ فقلت له ياابن السوداء فغضب ﷺ وقال ﴿يا أباذرّ لَيْسَ لِابْنِ البَيْضاءِ عَلَى ابنِ السَّوداءِ فَضْلٌ﴾ فقال أبو ذرّ فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى . فانظر كيف نبهه ﷺ على ان ذلك جهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العزّ لايقمعه إلا الذل *

﴿ الرابع ﴾ التفاخر بالجمال . وذلك أكثر مايجرى بين النساء و يدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس *

﴿ الخامس ﴾ الكبر بالمال وذلك يجرى بين الأمراء والتجار في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنىّ الفقير و يتكبر عليه. وكل ذلك جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى *

﴿ السادس ﴾ الكبر بالقوّة وشدّة البطش والتكبر به على أهل الضعف

﴿السابع﴾التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والأقارب — فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض — نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته *

﴿ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه ﴾

﴿ أثر التواضع والتكبر ﴾

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئاً ، وفي أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الإيراد ، و يظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ـ ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض ـ فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ـ ومنها أن لايمشي إلاّ ومعه غيره يمشى خلفه ـ ومنها

أن لايزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع ، ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه — ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه * روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه . فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين . فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شىء ، وخير الناس من كان عند الله متواضعا ــ ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين : كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك وقال على رضي الله عنه لاينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شىء الى عياله ــ ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه على التزين للناس للشهرة والمخيلة ــ وأما طلب التجمل لذاته فى غير سرف ولا مخيلة فليس من الكبر . والمحبوب الوسط من اللباس الذى لايوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة وقد قال ﷺ ﴿ كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ﴾ ومنها أن يتواضع بالاحتمال اذا سب وأوذى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل : وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبى ﷺ فيه . فينبغى أن يقتدى به ؛ ومنه ينبغى أن يتعلم ؛ وقد قال ابن أبى سلمة قلت لأبى سعيد الخدرى ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال : يا ابن أخى كل لله . واشرب لله . والبس لله . وكل شىء من ذلك دخله زهو أو مباهات أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته كان يحلب الشاة ويخصف النعل . ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويشترى الشىء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده . يصافح الغنى والفقير . ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير . يجيب اذا دعى ولايحقر مادعى اليه . لين الخلق .

جميل المعاشرة . طليق الوجه . شديد في غير عنف . متواضع فى غير مذلة . جواد من غير سرف . رقيق القلب ـ زادت عائشة رضى الله عنها ، وأنه ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ، ولم يبثّ الى أحد شكوى وإن كانت الفاقة لأحب اليه من اليسار والغنى ٭

فمن طلب التواضع فليقتد به ﷺ ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين . فلا عزّ ولا رفعة الا فى الإقتداء به ٭

﴿ بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع ﴾

اعلم أن الكبر من المهلكات . وازالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمنى بل بالمعالجة ، وفي معالجته مقامان ﴿ أحدهما ﴾ قلع شجرته من مغرسها في القلب ﴿ الثانى ﴾ دفع العارض منه بالأسباب التى قد يتكبر بها ٭

﴿ المقام الأول فى استئصال أصله ﴾

علاجه علمىّ وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما ﴿ أما العلمىّ ﴾ فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لايليق به إلاّ التواضع . وإذا عرف ربّه علم أنه لاتليق العظمة والكبرياء إلاّ بالله ـ أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله . فإن فى القرآن علم الأوّلين والآخرين لمنْ فتحت بصيرته : قال تعالى ﴿ قُتل الإِنسانُ ما أكْفَرَهُ من أىّ شىءٍ خَلَقَهُ . منْ نُطفَةٍ خَلَقَهُ فقدَّرهُ . ثمّ السَّبيلَ يَسَّرهُ . ثمّ أماتَهُ فأقبره ثمّ إذا شاءَ أنْشَرهُ ﴾ فقد أشارت الآية إلى أوّل خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ـ فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية ـ أمّا أوّل الإنسان.

فهو أنه لم يكن شيأ مذكوراً . وقد كان فى حيز العدم دهورا . وأى شىء أخس من العدم . ثم خلقه الله من أقذر الأشياء إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحماً — فهذا بداية وجوده فما صار شيأ مذكوراً إلاّ وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم . فبدأ بموته قبل حياته . وبضعفه قبل قوته . وبجهله قبل علمه . وبعماه قبل بصره . وبصممه قبل سمعه . وببكمه قبل نطقه . وبضلاله قبل هداه وبفقره قبل غنـاه . وبعجزه قبل قدرته — فهذا معنى قوله تعالى ﴿ من أىّ شىء خلقه من نطفة خلقه فقدّره ﴾ ثم امتن عليه فقال ﴿ ثم السبيل يسّره ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له فى مدّة حياته إلى الموت، وإنما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد عدمها ليعرف خسّة ذاته فيعرف بها ذاته فيعرف بها نفسه وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّه ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لا يليق الكبرياء إلاّ به جل وعلا . فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أضعف الضعفاء . ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم . وذلك لدلالة خسةِ أوّلهِ . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله * نعم لو أكمله وفوّض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولـكنه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض والآفات يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً . يريد أن يعلم الشىء فيجهله . ويريد أن يذكر الشيء فينساه . ويريد أن ينسى الشىء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه . فهو مضطر ذليل . إن ترك بقى وان احتطف فنى . عبد مملوك لا يقدر على شىء من نفسه ولا شيء من غيره فأى شىء أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به

لولا جهله. فهذا وسط أحواله فليتأمله ـ وأما آخره فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ﴿ ثمّ أماتهُ فأقبرهُ ثمّ إذا شاءَ أنشرَهُ ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرّة لا يبقى الاّ شكل أعضاؤه وصورته لاحسّ فيه ولا حركة . ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ، ثم تبلى أعضاؤه . وتتفتت أجزاؤه . وتنخر عظامه. ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل انسان ، ويهرب منه لشدة الانتان ، وليته بقى كذلك ، فما أحسنه لوترك لاً بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلا . فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة ، وسماء مشققة ممزقة ، وأرض مبدّلة ،وجبال مسيّرة ، ونجوم منكدرة ، وشمس منكسفة ، واحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ،و يرى صحائف منشورة ، فيقال له اقرأ كتابك فيقول وماهو .فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تتكبر بنعيمها. وتفتخر بأسبابها: ملكان رقيبان يكتبان عليك ماتنطق به أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير ، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك ، فهلم الى الحساب ،واستعدّ للجواب ، أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ، ويشاهد مافيها من مخازيه فاذا شاهده قال﴿ياوَيْلتَنا ما لِهَذَا الكِتاب لا يُغادِرُ صغيرَةً ولا كبيرَةً الاّ أحصاها﴾ فهذا آخر أمره ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثمّ اذا شاءَ أنشرَهُ ﴾ فما لمن هـذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فضلا عن البطر. فقد ظهر له أول حاله ووسطه ، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا ، فمن هذا حاله فى العاقبة الا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر حقاً يكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا ـ فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر

﴿وأما العلاج العملى﴾ فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق

المتواضعين كما وصفناه من شمائل رسول الله ﷺ ومن أحوال الصالحين ، ولا يتم التواضع بعد المعرفة الا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً ،وقيل الصلاة عماد الدين. وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائماً . وبالركوع وبالسجود، وقد كان العرب قديماً يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه .فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق *

﴿ المقام الثانى ﴾

﴿ فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة ﴾

ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل – فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى ، ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع أسبابه السبعة ﴿ الأول النسب ﴾ فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ومن كان خسيساً فمن أين تجبر خسته بكمال غيره وبمعرفة نسبه الحقيقى أعنى أباه وجده . فان أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ؛ وقد عرف الله تعالى نسبه فقال ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ فاذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة فمن أين تأتيه الرفعة – فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان ،ومن عرفه لايتكبر بالنسب *

﴿ الثانى الكبر بالجمال ﴾ ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم — ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح مايكدر عليه تعززه بالجمال إذ خلق من أقذار ووكل به فى جميع أجزائه الأقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار وجماله لا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض

أو سبب من الأسباب. فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها ﴿ الثالث الكبر بالقوة ﴾ و يمنعه من ذلك أن يعلم ماسلط الله عليه من العلل و الأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز. أو أن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر في مدة ، فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته: ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل. وأى افتخار في صفة يسبقك بها البهائم *

﴿ السبب الرابع و الخامس ﴾ الغنى و كثرة المال. وفى معناه كثرة الأتباع و الأنصار ، و التكبر بالمناصب و الولايات، و كل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان. و هذا أقبح أنواع الكبر. فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلا ، و كم في اليهود من يزيد عليه في الغنى و الثروة والتجمل فأف لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلا مفلسا *

﴿ السادس الكبر بالعلم ﴾ وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين ﴿ أحدهما ﴾ أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وانه يحتمل من الجاهل مالا يحتمل عشره من العالم. فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم ﴿ ثانيهما ﴾ ان يعرف أن الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده، وانه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا. فهذا مما يزيل التكبر و يبعث على التواضع ، واذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ماسبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه في عينه وليلاحظ ابهام عاقبته و عاقبة الآخر فلعله يختم له بالسوء ولذاك بالحسنى حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه، و يغضب لفسقه بل يبغضه و يغضب لربه إذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه ﴿ السابع ﴾ التكبر بالورع والعبادة وذلك فتنة عظيمة على العباد. وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد: قال وهب ابن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه خصال وعد منها خصلة : قال بها ساد مجده ، وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وانما الناس عنده

فرقتان ، فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شرٌّ منه وأدنى ، فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، وإن رأى من هو خير منه سرَّه ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه . قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا . فلا تراه الا خائفا من العاقبة . ويقول لعل برَّ هذا باطن فذلك خير له ولا أدرى لعلَّ فيه خلقا كريما بينه وبين الله . فيرحمه الله ويتوب عليه . ويختم له بأحسن الأعمال . وبرى ظاهر فذلك شرٌّ لى فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . قال فحينئذ كَمُلَ عقله وساد أهل زمانه *

والذى يدل على فضيلة هذا الاشفاق قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِم رَاجِعُونَ ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الاشفاق : فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يُسَبِّحونَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مشفِقونَ ﴾ فمتى زال الإشفاق والحذر غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد

فاذاً ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال — فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب الاّ أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع . وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة . فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها . فمن هذا لا ينبغى أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس

وبيانه أن يمتحن النفس بالإمتحانات الدالة على استخراج ما فى الباطن والإمتحانات كثيرة . فمنها وهو أوّلها : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر له

على تنبيهه فذلك يدلّ على أن فيه كبرا دفينا . فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه - أمّا من حيث العلم فبأن يذكّر نفسهُ خسّةَ نفسه وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق الاّ بالله تعالى - وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقرّ على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة ويقول ماأحسنَ مافطنتَ لهُ ، وقد كنتُ غافلا عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له ، فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي أن يشكر مَنْ دلّه عليها. فاذا واظب على ذلك مرّات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر *

﴿ الامتحان الثانى ﴾ أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل . ويقدمهم على نفسه ، ويمشى خلفهم ، ويجلس في الصدور تحتهم . فان ثقل ذلك عليه فهو متكبر . فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله - فبذلك يزايله الكبر *

وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فأنّ ذلك يخفّ على نفوس المتكبرين اذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر باظهار التواضع أيضا - بل ينبغى أن يقدّم أقرانه، ويجلس بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال . فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن *

﴿ الامتحان الثالث ﴾ أن يجيب دعوةَ الفقير ويمرّ الى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، والثواب عليها جزيل. فنفور النفس عنها ليس الاّ لخبث في الباطن . فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكّر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر *

﴿ الامتحان الرابع ﴾ أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله و رفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء *

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له إن لم تتداركـ . وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة ، والقلوب لاتدرك السعادة الا بسلامتها ـ ﴿ إذ قال تعالى الا مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

﴿ بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع ﴾

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط . فطرفه الذى يميل الى الزيادة يُسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعاً ، والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة وتخاسس (فان كلا طرفي قصد الأمور ذميم) وأحب الأمور الى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ،ومن يتأخر عنهم فهومتواضع ـ أى وضع شيأ من قدره الذى يستحقه ، والعالم إذا دخل عليه دنىء فسحىّ له عن مجلسه وأجلسه فيه . ثم تقدم وسوّى له نعله، وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلّل وهو أيضا غير محمود بل المحمود عندالله العدل وهو أن يعطى كلّ ذى حقّ حقه . فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومَنْ يقرب من درجته. فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك ، وأن لايرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لايعرف خاتمة أمره ٭

﴿ بيان ذمّ العجب وآفاته ﴾

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾ ذكر ذلك فى معرض الإنكار . وقال عز وجل ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فردّ على الكفار فى اعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ وهذا أيضاً يرجع الى العجب بالعمل ، وقد

يعجب الانسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه : وقال ﷺ ﴿ ثلاثٌ مُهلِكات شحٌ مُطاعٌ وهوًى مُتَّبعٌ واعجابُ المرْءِ بنفسه ﴾ وقال ابن مسعود « الهلاك فى اثنتين القنوط والعجب » وانما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال الا بالسعى والطلب والجد والتشمّر ، والقانط لايسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد ، وقد ظفر بمراده فلا يسعى ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تُزكُّوا أنفسَكُم ﴾ أى لاتعتقدوا أنها بارّة . وقال تعالى ﴿ لا تُبْطلوا صَدَقاتِكم بالمنّ والأذى ﴾ والمنّ نتيجة إستعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب *

﴿ بيان آفة العجب ﴾

إعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لاتخفى — هذا مع العباد وأما مع الله تعالى . فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب وإهمالها . فبعض ذنوبه لايذكرها لظنه أنه مستغن عن تفقدها وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد فى إزالته بل يظن أنه يُغفر له — وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها ويمنّ على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها وذلك أن المعجب يغترّ بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ؛ ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه ، ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ولايسمع نصح ناصح ولاوعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصرّ على خطاياه *

فهذا وأمثاله من آفات العجب — فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته

أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح: نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته *

﴿ بيان علاج العجب على الجملة ﴾

إعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل وذلك أن المعجب بجماله أو قوته أو نسبه ومالا يدخل تحت اختياره انما يعجب بما ليس اليه لأن كل ذلك من فضل الله ، وانما هو محل لفيضان جوده تعالى . فله الشكر والمنة لا لك اذ أفاض على عبده مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة. فاذا منشأ العجب بذلك هو الجهل ، وإزالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الإستحقاق. وهذا ينفي العجب والإدلال . ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ﴾ قال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس ﴿ ما منكم من أحد ينجيه عمله ﴾ قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ﴿ ولا أنا الا أن يتغمدني الله برحمته ﴾ ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها ، وأنى لذى بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب *

﴿ بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه ﴾

إعلم أن مجموع ما به العجب ثمانية أقسام ﴿ الأول ﴾ أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وحسن صوته ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال. وعلاجه التفكر في أقذار باطنه في أول أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع *

﴿ الثاني ﴾ البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم

﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه *

﴿ الثالث ﴾ العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج الى قلة الإصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالإستغناء بالرأى والعقل . وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ، ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله .وليعلم أنه ما أوتى من العلم الا قليلا وإن اتسع علمه ، وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدرى فان القاصر العقل لا يعلم قصور عقله .فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا *

﴿ الرابع ﴾ العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به ـ ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثى ﴾ أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب. فقال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ ، أى كبرها ﴿ كُلُّكُم بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِن

تراب ﴾ ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال ﴿ يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ياصفيةُ بنتُ عبدِ المطّلبِ عمةُ رسول الله ﷺ اعمَلا لأنفسكما فإني لاأغنى عنكما مِنَ الله شيئاً ﴾ فبين أنهم اذا مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . فمن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ،وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع والا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والإشفاق *

﴿ الخامس ﴾ العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدين وهذا غاية الجهل ،وعلاجه أن يتفكر فى منكراتهم وما جرّوا على الناس من المحظورات فيشكر الله أن عصمه من تبعاتهم *

﴿ السادس ﴾ العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما قال الكفار ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَموَالاً وأولاداً ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين:لا نغلب اليومَ من قلة . وعلاجه ماذكرناه فى الكبر وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم وأن كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً : ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودفن وحده ذليلا مهانا ، ويسلمونه الى البلى والحيّات والعقارب ، ولا يغنون عنه شيأ، ويهربون منه يوم القيامة ﴿ يَومَ يفِرُّ المرءُ مِن أخيهِ وَامّهِ وَأَبيهِ وصاحبتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فكيف تعجب بمن يفارقك فى أشدّ أحوالك ويهرب منك ، وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نِعَمَ مَنْ يملك نفعك وضرّك *

﴿ السابع ﴾ العجب بالمال كما أخبر تعالى عن ذلك الكافر اذ قال ﴿ أنا أكثَرُ مِنْكَ مالاً وأعزُّ نفَراً ﴾ وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال و كثرة حقوقه والى أن فى اليهود مَنْ يزيد عليه فى المال، وينظر الى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم و كيف يتصوّر منْ المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير في القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه في حقه ، وأن مآل المتهوّر في الجمع والمنع الى الخزى والبوار*

﴿ الثامن ﴾ العجب بالرأى الخطأ. قال تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنْعاً ﴾ وقد أخبر رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذا افترقت فرقا وكل معجب برأيه، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وعلاجه أن يتهم رأيه أبداً فلا يغتر به إلاّ أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة «ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور » والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لايخوض فى المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال *

كتاب ذم الغرور

إن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة ، والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، و بقى فى العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا ؛ ولما كان الغرور أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات لزم شرح مداخله ومجاريه ، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه « فالموفق من العباد . من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره ، و بنى على الحزم والبصيرة أمره» *

﴿ بيان ذمّ الغرور وحقيقته ﴾

إعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا تغرّنّكمُ الحياةُ الدّنيا ولا يَغُرّنّكمُ باللهِ الغَرُور ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكنّكم فتنتُم أنفُسَكم وتربّصتم وارتبتُم وغرّتكمُ الأمانى ﴾

الآية كاف فى ذم الغرور . وقال ﷺ ﴿ الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله ﴾ فالغرور هو سكون النفس إلى مايوافق الهوى ، ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم *

وأشدّ الغرور غرور الكفار وغرور العصاة والفساق . فأما غرور الكفار (١) فقد أشير اليه فى قوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ وعلاج هذا الغرور . إمّا التصديق بالإيمان . وإمّا بالبرهان . أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وفى قوله عزّ وجلّ ﴿ وماعندالله خير ﴾ وقوله ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ وقوله ﴿ فلاتغرّنكم الحياة الدنيا ﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار فصدّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال . نشدتك الله أبعثك الله رسولا . فكان يقول نعم فيصدّق ، هذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور *

وأمّا المعرفة بالبيان والبرهان ، فان تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر في دعوى الأنبياء والعلماء وتصديقهم فإنه أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثالهم مريض لا يعرف دواء علته . وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ، ولو بقي معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال

---

(١) يدخل فى الكفار الدهرية الطبيعية ـ فهذا البحث والاحتجاج ينفعان في القامهم الحجر فليكن على بال منك فانه مهم جدا اه مختصره

أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغترّ في علمه بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً — فكذلك من نظر إلى المقرّين بالآخرة والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هي الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والحكماء والعلماء واتبعهم علية الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات، وعظم عليهم الإعتراف بأنهم من أهل النار. فجحدوا الآخرة ، وكذبوا الأنبياء . فكما أن قول الصبي والمعتوه لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء — فكذلك قول هذا الغبيّ الذى استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والعلماء — وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به *

وأما غرور العصاة من المسلمين فقولهم: انّ الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك واهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنّيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم ، وأين معاصي العباد في بحار كرمه وإنّا موحّدون. فرجوه بوسيلة الايمان، وربما كان مستدرجاتهم التمسك بصلاح الآباء وعلوّ رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون — وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . أينسى المغرورُ أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يُردْ فكان من المغرقين ﴿ قالَ رَبِّ إنّ ابني مِنْ أهلي ﴾ فقال تعالى ﴿ يا نوحُ إنّهُ ليسَ مِنْ أهلكَ إنّهُ عَمَلٌ غيرُ صالحٍ ﴾ وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه ، ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويَرْوى بشرب أبيه ، ويصير عالما بعلم أبيه ، ويصل الى الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين فلا يُجزى فيه والدٌ عن ولده شيأ — وكذا العكس.

﴿ بيان الغلط فى تسمية التمنى والغرور رجاء ﴾

﴿ فان قلت ﴾ فأين الغلط فى قول العصاة والفجار إن الله كريم وانا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال « أنا عند ظن عبدى بى ﴿ فالجواب » أن النبى ﷺ كشف عن ذلك فقال ﴿ الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ﴾ وهذا هو التمنى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال، وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعنى أن الرجاء بهم أليق ، وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال : قال الله تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها. ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا ، وهذا للفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن . قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال : هيهات هيهات . تلك أمانيهم يترجحون فيها . من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه *

وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح فهو معتوه — فكذلك من رجا رحمة الله ولم يعمل صالحا ولم يترك المعاصى فهو مغرور. فكما أنه اذا نكح بقى مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم الى أن يتم فهو كيس — فكذلك اذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه، ويرجو أن يثبته حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل الى المعاصى فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ *

﴿ موضع الرّجاء المحمود ﴾

فان قلت فأين موضع الرجاء المحمود . فاعلم أنه محمود فى موضعين *

﴿ أحدهما ﴾ فى حق العاصي المنهمك اذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان وأنّى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى. فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً ؛ وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال تعالى ﴿ وإِنى لغفَّارٌ لمنْ تاب وآمن وعمِلَ صالحا ثمّ اهتدى﴾ فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وان توقع المغفرة مع الإِصرار فهو مغرور *

﴿ الثانى ﴾ أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى؛ وماوعدبه الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قد أفلَحَ المؤمِنُون الّذينَ هُم فى صَلاتِهم خاشِعُون﴾ الآيات*

فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمرّ . فكلُّ توقّع حثّ على توبةٍ أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا الى البطالة فهو غرة — كما اذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل ففتره الشيطان عن التوبة والعبادة، وقال له لك رب كريم ـ فهذا غرة، وعند هذا يجب أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول انه مع أنه عافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وأنه مع أنه كريم خلّد الكفار في النار أبد الآباد ، وقد خوفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغترُّ به *

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لايبعث على العمل فهو تمنّ وغرور ، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا، وسبب اعراضهم عن الله تعالى، واهمالهم السعى للآخرة . فذلك غرور ، وقد

كان السلف يبالغون فى التقوى ، والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات ، وأما الآن فنرى الخلق آمنين مسرورين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصى ، وانهماكم فى الدنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون ؛ فان كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ، وقد قال تعالى ﴿ ولِمَنْ خافَ مَقامَ ربّه جنّتان . ذلك لِمَنْ خافَ مَقامى وخافَ وَعيد ﴾ والقرآن من أوله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه *

﴿ بيان بعض أصناف المغترّين ﴾

فمنهم فرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان لايعذب مثلهم ، ولو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم انما يراد لمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها — فهى علوم لاتراد الا للعمل ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . وقد ورد فيمن لايعمل بعلمه مافيه أشد الترهيب كقوله تعالى ﴿ مثلُ الّذين حُمِّلُوا التَّوْرَاة ثمّ لمْ يحْمِلوها كمَثَلِ الحمار يحْمِلُ أُسفاراً ﴾ فأى خزى أعظم من التمثيل بالحمار *

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء وطلب العلا وإرادة السوء للأقران والنظراء ، وطلب الشهرة فى البلاد والعباد — فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ ﴿ إنّ اللهَ لا يَنظرُ الى صُورِكُم ولا الى أموالكُمْ وانّما ينظُر الى قلوبكم وأعمالكُمْ ﴾ فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل اذ لاينجو الا من أتى الله بقلب سليم ، ومثال هؤلاء قبور الموتى ظاهرها مزيّن وباطنها جيفة

وفرقة اقتصروا على علم الفصل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها *

وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام . ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين من حيث العمل ومن حيث العلم — أما من العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه . ومثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكرارها وتعليمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيأ : هيهات هيهات . فلا بد من شربه وصبره على مرارته . على انه بعدُ على خطر من شفائه *

وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم المعاملات وظن انه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وربما طعن في المحدثين وقال : انهم نقلةُ أخبار وحملة أسفار لا يفقهون . وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته، وهو الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فان الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى ﴿ فلولا نَفَرَ منْ كلِّ فرْقة منْهُمْ طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّين ولِيُنذِروا قومهُمْ إذا رَجعُوا اليهم لعلَّهُمْ يحْذرُون ﴾ والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم *

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أخلاق النفس والزهد والإخلاص وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله لحرصهم على السمعة وحسدهم لمن يتقدمهم من أقرانهم، وغيظهم على من يثني على معاصريهم ، وجمعهم لحطام الدنيا فهؤلاء أعظم الناس غرة *

وفرقة منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات،

و يؤدّونها من غير إحاطة بمعانيها و لو فى الأسواق مع الجلساء ، وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزهاد فقد أفلح ونال الغرض ، وصار مغفوراً له من غير أن يحفظ باطنه عن الآثام ، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم *

وفرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها كمن ضيّع عمره فى تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعانى وانما الحروف أدوات ، فاللب هو العمل والذى فوقه كالقشر للعمل . فالقانعون به مغترّون إلاّ من اتخذه منزلا فلم يعرج عليه إلا بقدر حاجته فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل . فحمل نفسه عليه فصفّاها من الشوائب والآفات *

﴿ غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة ﴾

منهم فرقة تعمّقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذى يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى المحكوم بطهارته فى الشرع ويقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، ولو انقلب هذا الإحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمرُ رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة ، وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام *

ومنهم فرقة غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة — على زعمه — وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدّة الاحتياط فيه — على زعمهم — يفعلون ذلك فى أوّل الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترّون بذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم *

وفرقة تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج فى جميع صلاته لا يهمه غيره ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم الى أسراره —

وهذا من اقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم فى الكلام. ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس. فما أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل ☼

وفرقه اغتروا بقراءة القرآن فيهذرمونه هذرمة . وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ولسان أحدهم يجرى وقلبه يتردد في أودية الأمانى اذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه ، فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه ، ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه كتابا وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهومستمر على خلاف ما أمره به مولاه إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ؛ ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور ، : نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وانما هى لذته فى صوته فليتفقد قلبه وليخش ربه ☼

وفرقة اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء ، وبواطنهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه ـ وذلك غاية الغرور ☼

وفرقة اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء

الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، و يضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ولا يحذرون من الرفث والخصام ثم يحضر البيت بقلب ملوث بذميم الأخلاق لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور *

وفرقة جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه إن فلانا مجاور بمكة وتراه يقول : قد جاورت بمكة كذا وكذا سنة . ثم أنه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس ويظهر فيه الرياء وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور *

وفرقة زهدت فى المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد أو المدارس وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب بالرياسة — والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين فهذا مغرور اذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لا بد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بذلك على الناس وينظر اليهم بعين الاستحقار ، ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب ؛ وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا . ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا وهو مغرور — ومع ذلك فربما لا يخلو عن توقير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة على المائلين الى غيره ؛ وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه ، وفى العباد من يشدد على نفسه فى أعمال الجوارح ولا يخطر له مراعات القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر

والعجب وسائر المهلكات، ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات ، وذرةٌ من ذى تقوى وخلقٌ واحدٌ من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ، ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خلقه مع النـاس وخشونته وتلوّث باطنه بالرياء وحبّ الثناء. فاذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدّق به، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه *

و فرقة حَرصَتْ على النوافل و لم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى و بصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذّة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت. وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﴿ ما تقرّب المتقرّبُون إلىّ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليْهم ﴾ *

﴿ غرور المتصوّفة وهم فرق كثيرة ﴾

ففرقة منهم اغتروا بالزىّ والهيئة والمنطق فيجلسون على السجادات مع اطراق الرأس وادخاله فى الجيب كالمتفكر ، وفي تنفس الصعداء ، وفي خفض الصوت فى الحديث . ولم يتعبوا أنفسهم قطّ فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأً منها *

وفرقة ادّعتْ علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب ، ولا يَعرِفُ هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامّات كلمات فهو يردّدها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين . فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدّثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فصلا عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردّدها كأنه يتكلم عن

الوحي ويخبر عن سر الأسرار. ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، ويقول إنهم عن الله محجوبون. ويدّعي لنفسه الوصول الى الحق وانه من المقرّبين وهو عند الله من المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم قط علما، ولم يهذب خلقا، ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه *

وفرقة وقعت فى الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسوّوا بين الحلال والحرام. فبعضهم يقول إن الله مستغن عن عملى فَلِمَ أتعب نفسى، وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لا وزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله، وانما نخوض فى الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبيّة. فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب. ويزعمون أنهم قد ترقّوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدّهم عن طريق الله لقوتهم فيها، وكل هذا من وساوس يخدعهم الشيطان بها - والإباحية من الكفار المارقين، نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين *

وفرقة ادّعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال فيجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم؛ وما باعثهم إلا الرياء والسمعة *

وثمة فرق أخر لا يحصى غرورها - والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الإستيعاب فان ذلك يطول *

﴿ غرور أرباب الأموال ﴾

والمغترون منهم فِرَقٌ: ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد وما يظهر للناس ليتخلد ذكرهم أو يذيع صيتهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد يكون بناؤها من جهات محظورة تعرضوا لسخط الله فى كسبها، وكان الواجب ردها

إلى مُلاّكها – إمّا بأعيانها ، – وإمّا ردبدلها عند العجز ، وقد يكون الأهمّ التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة أن لا يظهر ذلك للناس فيكون غرضهم في البناء الرياء وجلب الثناء مع أنّ صرف المال إلى مَنْ في جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهمّ وأفضل وأولى من الصرف إلى المساجد وزينتها . فما خف عليهم الصرف الى المساجد إلاّ ليظهر ذلك بين الناس ؛ وهناك محظور آخر وهو أنه قد يصرف المال إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهيّ عنها لشغلها قلوب المصلين ؛ والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوبَ المصلّين . فوبال ذلك كلّه يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به . ويرى أنه من الخيرات مع أنه تعرّض لما لا يرضى الله تعالى *

وفرقة ينفقون الأموال في الصدقات على المساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء مَنْ عادته الشكر وإفشاء المعروف ، ويكرهون التصدّق في السرّ ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى ؛ وربما تركوا جيرانهم جياعا ، ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب . يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين . يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لا يواسيه ؛ وقال أبو نصر التمّار إنّ رجلا جاء يودّع بشْرَ بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم : قال بشرُ فأيّ شيء تبتغي بحجّك ترهداً أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله : قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فاعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ؛ ومعيل يحيي عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل ، فان ادخالك السرورَ على قلب مسلم واغاثة اللهفان وكشف الضرّ واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما أمرناك وإلاّ فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر سفري أقوى في

قلبي . فتبسّم بشر رحمه الله تعالى ، وأقبل عليه وقال له « المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين » *

وفرقة من أرباب الأموال اشتغلوا بما يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل . ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن . وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل وهو مستغن عنها — ومثاله مثال مَنْ دخل فى ثوبه حيّة وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء . ومَنْ قتلته الحية متى يحتاج إلى دواء — ولذلك قيل لبشر إن فلانا الغنيّ كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا اطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين - فهذا افضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء *

وفرقة غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم الا باداء الزكاة فقط ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء مَنْ يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم أو من يحتاجون اليه فى المستقبل للإستسخار فى خدمة أو مَنْ لهم فيه على الجملة غرض — أو يسلمون إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته ، وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . وغرور أصحاب الأموال لا يُحصى ، وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور *

وفرقة أخرى من عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً . وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا

فى الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، ومايراد لغيره فاذا قصّر عن الأداء الى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغترّ بما يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكى ولا عزم ،وربما يسمع كلامامخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول ياسلام سلّم ـأو نعوذ بالله أوسبحان الله، ويظن أنه قد أتى بالخيركلّه وهو مغرور ، وانما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الاطباء فيسمع مايجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصفله الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيأ — فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيأ ؛ فكل وعظ لم يغيّر منك صفةً تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا *

﴿ فان قلتَ ﴾ ماذكرته من مداخل الغرور أمر لا يمكن الإحتراز منه إذ لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات ﴿ قلتُ ﴾ الانسان إذا فترت همته فى شىء أظهراليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق ، واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق فى الوصول الى الغرض حتى ان الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلّق فى جوّ السماء مع بعده منه استنزله ، واذا أراد أن يستسخر السباعَ والفيلةَ وعظيمَ الحيوانات استسخرها الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى كل ذلك لأنه همه أمر دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلاّ شغل واحد وهو تقويم قلبه . ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا وليس ذلك بمحال لأنه شىء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت ارادته وقويت همته بل لايحتاج الى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها *

﴿ فان قلت ﴾ قد قرّبت الأمر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور

فبم ينجو العبد من الغرور . فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة .
فهذه ثلاثة أمور لابد منها — أما العقل فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى
الذى به يدرك الانسان حقائق الأشياء لأن أساس السعادات كلها العقل
والكياسة — وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه ويعرف الدنيا والآخرة ، فاذاعرف
ذلك ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة
الدنيا الرغبة عنها ، ويصير أهم أموره مايوصله الى الله تعالى وينفعه فى الآخرة ، واذا
غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها واندفع عنه كل غرور ؛
منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال ، وما دامت الدنيا
أحب اليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب اليه من رضاء الله تعالى فلا يمكنه الخلاص
من الغرور . فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال
عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بما يقربه من الله وما يبعده
عنه . فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ، ومن العادات أسرار
المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض
عنه ، ومن المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فان المانع من الله
الصفات المذمومة فى الخلق . فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من المنجيات
الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها
فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا
اليها من الغرور ، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على
القلب ، ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به
الإرادة ، وتصبح به النية ، ولا يحصل ذلك
إلا بالمعرفة التى ذكرناها * نسأل الله العون
والتوفيق وحسن الخاتمة
آمين *

كتاب التوبة

﴿ حقيقة التوبة ﴾

إعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور — علم. وحال. وفعل. والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ايجابا اقتضاه سنة الله فى الملك والملكوت. أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب و كونها سموما مهلكة، وحجابا بين العبد و بين كل محبوب . فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً . فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال و بالماضى و بالإستقبال — أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا — وأما بالإستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر — وأما بالماضى فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها . و كثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده . ويجعل العلم كالمقدمة والترك كالثمرة — و بهذا الأعتبار جاء فى الأثر (الندم توبة) اذ لايخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه و يتلوه *

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

إعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الايمان صدره . فان من عرف أن لاسعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه و بين مايشتهى

محترق بنار الفراق ونار الجحيم ، وعلم أن لامبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ولا مقرّب من لقائه إلا الإقبال على الله بدوام ذكره ، و علم أن الذنوب سبب كونه محجوبا مبعداً عن الله تعالى فلا يشك فى أن الإنصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب ، وإنما يتم الإنصراف بالعلم والندم والعزم — وهكذا يكون الايمان الحاصل عن البصيرة، ومَنْ لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ماورد من الآيات والآثار فقد قال تعالى ﴿ وَتوبُوا إِلى اللهِ جميعاً أيُّها المؤمنُونَ لعلَّكُم تُفلِحُونَ ﴾ وهذا أمر على العموم ، وقال تعالى ﴿ ياأيُّها الّذينَ آمنُوا تُوبُوا إلى الله توبَةً نصوحاً ﴾ ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب *

ويدلّ على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التوّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ التّائِبُ مِنْ الذّنبِ كَمَنْ لاذَنْبَ لهُ ﴾ والأخبار فى ذلك كثيرة *

﴿ وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام ﴾

لايخفى أن وجوبها على الفور أمر لايستراب فيه إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور ، والعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها . فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لايَزْنِى الزّانِى حِينَ يَزنِى وَهُوَ مُؤمِنٌ ﴾ وذلك لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت كسائر المعاصى لأنها للايمان كالمأكولات المضرّة للأبدان . فكما أنها تغيرّ مزاج الانسان ولاتزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين*

وأما وجوب التوبة على الدوام وفى كل حال فهو أن كلّ بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب ، فان خلا فى بعض الأحوال عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس

الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بضدها رجوع عن طريق الى ضده،والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وانما يتفاوتون بالمقادير . فأما الأصل فلابد منه - ولهذا قال عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ في اليَوْم واللَّيلةِ سَبْعِينَ مَرَّة ﴾ الحديث - ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ ليَغْفِر لكَ اللهُ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبك وما تأخَّرَ ﴾واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره*

وانما أطلقنا الوجوب في كل حال ، والتوبة عن بعض ما ذكر من الفضائل لا الفرائض لأنا نعني بالواجب مالا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين ؛ والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريدها فانه لاينوصل اليها إلا بها*

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لايخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك مامضى ؛ وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نَفَس الإنسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ﴿ كَلاَّ بَل رَانَ عَلى قلوبِهِم ما كانُوا يَكسِبُونَ ﴾فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لايقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ،ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب — كما لايكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان ، وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع

اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، واليه الاشارة بقوله عليه السلام « أتبع السَّيِّئةَ الحَسَنَةَ تمحُها » فاذاً لايستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات *

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال . لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلاّ على تفويت مامضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل مامضى من جهله ، وانما قال هذا لأن العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكي عليها لامحالة ، وان ضاعت منه وصار ضياعها سببَ هلاكه كان بكاؤه منها أشد ، وكل ساعة من العمر بل كل نَفَسٍ جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد ، وأىّ جوهر أنفس من هذا ، فاذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرتَ خسراناً مبيناً ، فان كنت لاتبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة ، ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته « والنَّاسُ نيامٌ فاذا ماتُوا إنْتَبَهُوا » فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته ، وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى « وأنفقُوا ممَّا رزقْنا كم مِنْ قَبلِ أنْ يأتِيَ أحدَكم الموتُ فَيَقولَ رَبّ لولاَ أخَّرتَنى الى أجل قَريب فأصَّدَّقَ وأكُنْ من الصَّالحين ولنْ يؤخِّر اللهُ نفساً إذا جاءَ أجَلُها » وقد قيل فى معنى الآيَة أنه يقول حالتئذ ياملك الموت أخّرنى يوماً أتوب فيه الى ربّى وأتزوّد صالحا لنفسى فيقول فنيت الأيامَ فلا يوم . فيقول فأخرنى ساعة . فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبه فيتغرغر بروحه وتزهق نفسه – ولمثل هذا يقال « ولَيستِ التّوبَةُ لِلّذينَ يَعملُونَ السيِّئات حتّى إذا حَضَرَ احَدَهُمُ الموتُ قالَ إنِّى تُبتُ الآنَ » وقوله تعالى « إنَّما التَّوبَةُ على اللهِ لِلّذينَ يَعمَلونَ السوءَ بِجَهَالَة ثمَّ يَتوبُونَ مِنْ قريب » معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم

عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو . ولذلك قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين « أحدهما » أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعا فلا يقبل المحو « الثاني » أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . فيأتى الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم *

« بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة »

اعلم أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لامحالة فان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار ، وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة . فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لا مردّ له وهو المسمى فلاحا في قوله « قد أفلح من زكاها »

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب * نعم قد يقول باللسان تبتُ فيكون ذلك كقول القصّار بلسانه قد غسلتُ الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا مالم يغير صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به — فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية .

هذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ، ولكننا نعضد جناحه

ببعض آيات وأخبار (فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به)
قال تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ وقال ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ عزوجلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بالتَّوبة لِمسيءِ اللَّيل إلى النَّهارِ ، ولِمسيءِ النَّهار إلى اللَّيلِ حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مغرِبِها ﴾ وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وقال ﷺ ﴿ التَّائِبُ مِنَ الذَّنب كَمَن لا ذَنبَ لهُ ﴾ *

﴿ بيان ماتكون عنه التوبة وهي الذنوب ﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان مالا يتوصل اليها إلا به واجبا ، فمعرفة الذنوب إذا واجبة ، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل * ثم إن مثارات الذنوب تنحصر في أربع صفات ، صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية *

فأما مايقتضى النزوع الى الصفات الربوبية ـ فمثل الكبر والفخر وحب المدح والثناء وحب دوام البقاء وطلب الإستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى — وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا ، وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى *

﴿ الثانية ﴾ هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر ، وفيه يدخل الغش والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال *

﴿ الثالثة ﴾ الصفة البهيمية ـ ومنها يتشعب الشَّرَه والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج — ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات *

﴿ الرابعة ﴾ الصفة السبعية — ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس

بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، و يتفرع عنها جمل من الذنوب *

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ؛ ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس، و بعضها على العين والسمع ، و بعضها على اللسان، و بعضها على البطن والفرج، و بعضها على اليدين والرجلين ، و بعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فانه واضح *

﴿ إنقسام الذنوب الى صغائر و كبائر ﴾

اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر ، وقد كثر الإختلاف فيها . فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة . وهذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وقال تعالى ﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ﴾ وقال بعض السلف كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر ، وقد روى عن الصحابة والتابعين في عدد الكبائر أقوال . وذهب أبو طالب المكي الى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

﴿ أربعة فى القلب ﴾ وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته والأمن من مكره ﴿ وأربع فى اللسان ﴾ وهى شهادة الزور . وقذف المحصن والسحر ، واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى النار ﴿ وثلاث فى البطن ﴾ وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم ﴿ واثنتان في الفرج ﴾ وهما الزنا واللواط ﴿ واثنتان فى اليدين ﴾ وهما القتل والسرقة ﴿ وواحدة فى الرجلين ﴾ وهو الفرار من الزحف أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشرين ﴿ وواحدة فى جميع الجسد ﴾ وهو عقوق الوالدين : وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما ، وإن يسباه فيضربهما و يجوعان

فلا يطلعهما. هذا كلام أبي طالب وهو قريب إلا أنه لم يرد تفصيلها بعد، ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات، والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع الى ما يعلم استعظامه إياها والى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر والى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه، وربما قصد الشارع الإبهام ليكون العباد على وجل وحذر فلا يتجرؤن على الصغائر ثم إن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع مجاهداً نفسه. فان امتنع لعجز أو خوف فهذا لا يصلح للتكفير أصلا *

﴿ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة. ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب عليها العبد، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر. ولذلك قال رسول الله ﷺ ﴿ خَيْرُ الأَعْمالِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلَّ ﴾ ومنها أن يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره، وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف. لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف. ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها. فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه. كمن يقول أما رأيتني

كيف مزّقتُ عِرضه ، وكيف فضّحته حتى خجلته، وكيف روّجتُ عليه الزائف وكيف خدعتهُ ـ فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فإنّ الذنوب مهلكات ـ ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إيّاه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثماً فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به ، وذلك لأنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ـ ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ـ فهما جنايتان انضمتا إلى جناية فتغلظت به فإن انضاف إلى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ـ ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه. وفي الخبر ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً ﴾ وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا *

حركات المقتدى بفعالهم في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إمّا بالربح وإمّا بالخسران *

﴿ تمام التوبة وشروطها ودوامها ﴾

وذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، فالندم هو توجّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب ؛ وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأىّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ، وأىّ عقوبة أشدّ من النار ، وأىّ سبب أدلّ على نزول العقوبة من المعاصى ؛ وأىّ مخبر أصدق من الله ورسوله . ولو حدّثه إنسان واحد يتطبب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه . ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله . ولا الموت بأشدّ من النار، ولا المرض بأدلّ على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها إلى

النار . فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا من حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية و بالرغبة نفرة كمن ينفر عن عسل فيه سم ولو كان فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فوجدانُ التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ؛ ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون . فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها — فهذا شرط تمام الندم ، وينبغى أن يدوم الى الموت وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب *

وأما القصد الذى ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط — وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت *

ومن أهم ما يجب تداركه الحقوق المالية . فمن تناول مالا بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو أكل أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم. وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق قبل أن يحاسب فى القيامة أو ليناقش قبل أن يناقش . فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه فان عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات بقدر كثرة مظالمه — فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم الثابتة فى ذمته — أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا، وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ، و يتصدق بذلك المقدار *

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو بعيبهم فى الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله ، فمن وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته . ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات *

ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم مايجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الإستقامة *

﴿ أقسام العباد فى دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات *

﴿ الطبقة الأولى ﴾ أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه الا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات — فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو « السابق بالخيرات » المستبدل بالسيئات حسنات ، واسم هذه التوبة ﴿ التوبة النصوح ﴾ واسم هذه النفس الساكنة ﴿ النفس المطمئنة ﴾ التى ترجع إلى ربها راضية مرضية

﴿ الطبقة الثانية ﴾ تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للإحتراز من أسبابها التى تعرضه لها — وهذه النفس جديرة بان تكون هى ﴿ النفس اللوامة ﴾ اذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد — وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهى أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه ، وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الَّذينَ يَجتَنِبُونَ كبائِرَ الإِثمِ والفَواحشَ إلاّ اللَّمَمَ إنّ رَّبكَ واسعُ المَغفِرَةِ ﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى ﴿ والّذِين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظلموا أنفسَهُم ذَكَرُوا الله فاستَغفرُوا لِذُنوبِهِمْ ﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم

ولومهم أنفسهم عليه . وفي الخبر « لابدّ للمؤمن مِنْ ذَنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أي الحين بعد الحين. وفي الخبر « كلُّ بني آدمَ خطّاءونَ وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ » فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لاينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين *

« الطبقة الثالثة » أن يتوب ويستمرّ على الاستقامه مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب وهو يَوَدّ لو كفى شرّها في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعَلْهُ وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه يسوّل نفسه ويسوّف توبته يوما بعد يوم ـ فهذه النفس هي التي تسمى (النّفس المسوّلة)وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخَرُونَ اعتَرَفوا بذُنوبِهم خَلَطُو عَمَلاً صالحاً وآخرَ سَيّئاً » فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة إن تداركه الله بفضله ألحقه بالسابقين والاّ فيختشى عليه *

« الطبقة الرابعة » أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته ـ فهذا من جملة المصرّين وهذه النفس هي « النفس الأمارة بالسّوء » الفرّارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وانتظاره مع هذه الحالة المغفرةَ من الله تعالى غرور فان المقصر عن الطاعة المصرّ على الذنوب الغير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران يُعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين كما أن مَنْ خرّب بيته وضيّع ماله وترك نفسه وعياله حياعا بزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الارض في بيته الخرب يعدّ عند ذوى البصائر من الحمقى المغرورين .فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال

بالتجارة. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته إذ يقول « إنّ الله كريم وجنّته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضرّه » ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار . وإذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس في بيتك ، فعساه يرزقك من حيث لاتحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ماهذا الهوس ـ السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة ، وانما ينال ذلك بالكسب ـ هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ـ ولا يعلم المغرور أن ربّ الآخرة ورب الدنيا واحد ، وان سنته لاتبديل لها فيهما جميعا وانه قد أخبر إذ قال ﴿ وَأَنْ لَيْسَ للإِنسان إلاّ ما سَعَى ﴾ فنعوذ بالله من الضلال *

﴿ مايفعله التائب بعد الذنب ﴾

اعلم أن الواجب على التائب ان كان جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق هو أن يبادر إلى التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها ، فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو . ويتذلل تذلل العبد الآبق ويخفض من كبره فيما بين العباد — وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات — وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول ﴿ ربّ ظلمتُ نفسي وعملتُ سوآ فاغفر لي ذنوبي ﴾ وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة ـ وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات ، وبالجملة فينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات *

واعلم أنه ليس كل استغفار نافعا. ففي خبر ﴿ المستغفرُ من الذنب وهُو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ بآياتِ الله ﴾ وقال بعض السلف، الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة ، استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير ، وذلك لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة ـ أستغفر الله ، وكما يقول إذا سمع صفة النار ـ نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ـــ فأما إذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة ـ فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة. وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ ﴿ ما أصرَّ من استغفَرَ ولوْ عادَ في اليوْمِ سبعينَ مرَّةً ﴾ ثم إن للتوبة ثمرتين *

﴿ إحداهما ﴾ تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له *

﴿ والثانية ﴾ نيل الدرجات ـ وللتكفير أيضاً درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية . وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حلّ عقدة الإصرار فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فانه لا تخلو ذرة من خير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تُطْرَحُ في الميزان عن أثر . فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها فاذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعات بغيبة مسلم أو فضول كلام

﴿ فرابعة ﴾ بقولها «استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير»

لا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله بل تذم غفلةَ القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه *

﴿ دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار ﴾

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ؛ وكل داء حصل من سبب فدواؤه إبطاله ، ولا يبطل الشيء إلا بضده ، ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ، ولا يضاد الغفلة الا العلم ، ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة *

وأما الأنواع النافعة فى حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب فهى أربعة أنواع ﴿ الأول ﴾ أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين . وكذا ما ورد من الأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين ﴿ الثانى ﴾ حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم ﷺ فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ونحوها فانه لم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار . فهذا أيضا مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فانه نافع فى تحريك دواعى التوبة *

﴿ الثالث ﴾ أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فينبغى أن يخوف به ، وفي خبر ﴿ إنَّ العبدَ ليُحرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنب يُصيبُهُ ﴾ وقال بعض السلف ، ليست اللعنة سواداً فى الوجه ونقصانا فى المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هى الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب .ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى

ليمقته الصالحون . وبالجملة فالأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا ، فمن ابتلى بشيء منها كان عقوبة له وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه ـ وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها ، وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته ﴿ الرابع ﴾ ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة وغير ذلك *

والمدار في هذا الباب على الفكر النافع وهو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وليعتبر بانه لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بان شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت ، وكان الماء البارد ألذّ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة ومفارقته للدنيا لا بد منها. فيقول كيف يليق بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصرانى طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبه . وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ، ومتى استشعر قلبه ذلك انبعث خوفه ، وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وتوفيقُ الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسّره الله تعالى لليسرى ـ وأمّا مَنْ بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلاّ شرح طرق الهدى وإنّما لله الآخرة والأولى *

كتاب الصبر والشكر

﴿ فضيلة الصّبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف . وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له. فقال عزّ من قائل ﴿ وَجَعلنَا منهُمْ أئمَّةً يهدُونَ بأمرِنا لمّا صَبرُوا ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَيَجزِيَنَّ الّذينَ صَبرُوا أجرَهُمْ بأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئكَ يُؤتَونَ أجرَهُمْ مرّتين بِمَا صَبرُوا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّما يُوفّى الصّابرُونَ أجرَهُمْ بِغيرِ حسابٍ ﴾ فما من قربة إلاّ وأجرها بتقدير وحساب إلاّ الصبر ووعد الصابرين بأنّه معهم. فقال تعالى ﴿ إنّ اللهَ مَعَ الصّابرين ﴾ وجمع لهم بين أمور لم يجمعْها لغيرهم . فقال تعالى ﴿ أولئكَ عَليهِمْ صلواتٌ من ربّهِمْ ورحمةٌ وأولئكَ هُمُ المهتدُونَ ﴾ ومن الأخبار قوله ﷺ ﴿ الصّبر نِصفُ الإيمانِ ﴾ وسُئل ﷺ عن الإيمان فقال ﴿ الصّبرُ والسّماحَةَ ﴾

﴿حقيقة الصبر وأقسامه﴾

إعلم أنّ الصبرَ عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى. وباعث الدّين هو ما هدى اليه الإنسان من معرفة الله ورسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وهى الصفة التى بها فارق الإنسانُ البهائمَ فى قمع الشهوات. وباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضاها. فمن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين*

ثمّ أنّ باعث الدّين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال *

﴿ أحدها ﴾ أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام

الصبر : وعندهذا يقال ﴿ مَنْ صَبَرَ ظَفِرَ ﴾ والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون. فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا *

﴿ الحالة الثانية ﴾ أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد . وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم . وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ فخسرت صفقتهم *

﴿ الحالة الثالثة ﴾ أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ــ وهــذا من المجاهدين يُعَدُّ لا من الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسي الله أن يتوب عليهم *

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات ــ وهذا قد خلق له ذلك وعطله فهو الناقص حقا *

واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر *

﴿ بيان مظانّ الحاجة الى الصبر ﴾
﴿ وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال ﴾

اعلم أن جميع ما يلقى العبدُ في هذه الحياة لا يخلو من نوعين ، ما يوافق هواه ومالا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما . وهو فى جميع الأحوال لا يخلو عن هذين النوعين فإذاً لا يستغنى قط عن الصبر *

﴿ النوع الأول ﴾ ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه و كثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور بأنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والإنهماك فى ملاذها المباحة أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ــ ولذلك حذر

الله عباده من فتنة المال والزوج والولد. فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وقال عزّوجلّ ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ فالرجل كلّ الرجل مَنْ يصبر على العافية. ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق. وفى بدنه ببذل المعونة للخلق. وفى لسانه ببذل الصدق — وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه — وهذا الصبر متصل بالشكر ، وانما كان الصبر على السرّاء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة اللذيذة وقدر عليها — فلهذا عظمت فتنة السرّاء *

﴿ النوع الثانى ﴾ مالا يوافق الهوى والطبع ـ وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أولا يرتبط باختياره كالمصائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه — فهذه ثلاثة أقسام *

﴿ القسم الاوّل ﴾ مايرتبط باختياره — وهما ضربان *

﴿ الضرب الأوّل ﴾ الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها لأن منها ماتنفر عنه النفس بسبب الكسل كالصلاة ـ أو بسبب البخل كالزكاة أو بسببهما جميعا كالحج والجهاد، وكل ذلك يحتاج الى صبر *

﴿ الضرب الثانى ﴾ المعاصى ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى في قوله تعالى ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ فما أحوج العبد الى الصبر عنها سيّما ما يثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً وأنواع المزح المؤذى للقلوب. وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار والقدح فى الموتى . ولمصير ذلك معتاداً فى المحاورات بطل استقباحها من القلوب لعموم الأنس بها ، وهى من أكبر الموبقات *

﴿ القسم الثانى ﴾ مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار فى دفعه كما لو أوذى بفعل أو قول وجنى عليه فى نفسه أو ماله ـ فالصبر على ذلك بترك المكافأة تا

يكون واجباً . وتارة يكون فضيلة . قال تعالى ﴿ وَاصبِرْ علىَ مايقُولونَ واهجُرْهُم هَجراً جَميلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولتسمَعُنَّ منَ الذينَ أوتُوا الـكتابَ مِنْ قبلِكُمْ ومِنَ الذينَ أشرَكوا أذى كثيراً وإن تَصبرُوا وتتقُوا فإنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ ﴾ أى تصبروا على المـكافأة ـ ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره . فقال تعالى ﴿ وإنْ عاقَبتُم فَعاقِبوا بِمِثْلِ ماعُوقبتُم به ولئن صَبرْتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصّابِرين ﴾ وقال ﷺ ﴿ صِلْ مَنْ قطَعَكَ ، واعطِ مَنْ حرَمَكَ ، وَاعفُ عَن ظلَمَكَ ﴾

﴿ القسم الثالث ﴾ مالا يدخل تحت حصر الإختيار كالمصائب مثل موت الأعزّة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء وسائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، وانما ينال درجة الصبر فى المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادات فى الملبس والمفرش والمطعم لأن هذه الأمور داخلة تحت اختياره. فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضاء بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن أم سليم رحمها الله قالت: توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت فهيأت له افطاره فجعل يأكل. فقال كيف الصبىّ فقلت بحمد الله لم يكن منذ اشتكي بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعتُ له أحسن ما كنتُ أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته . ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم . قلت أُعيروا عارية فلما طُلِبَتْ منهم واستُرْجِعَتْ جزعوا . فقال بئس ما صنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وأن الله قبضه اليه . فحمد الله واسترجع . ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره . فقال ﴿ اللهُمَّ بارِكْ لهُما فى ليلتِهما ﴾ قال الرّاوى فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن *

ولا يخرجه عن حد الصابرين توجّعُ القلب ولا فيضان العين بالدمع لأن

ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له في ذلك فقال ﴿ هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ﴾ بل ذلك لايخرج أيضاً عن مقام الرضاء *

وقدظهرلك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال حتى من اعتزل وحده لايستغنى عن الصبر على وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لايسكن ولا يزال في شغل دائم بسببها يضيع به الزمان. وقد يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، ولا تظنن أن الشيطان يخلوعنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح فانك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة ــ فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلوعن جولان الشيطان ، والافمن غفل ولوفى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين الا الشيطان . ولذلك قال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ و فى خبر﴿ إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ ﴾ وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان و يبيض و يفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضا وهكذا ــ و لذا قال الحلاج لما سئل عن التصوف « هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك » فاذا حقيقة الصبر و كماله الصبر عن كل حركة مذمومة ، و حركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ــ وهذا صبر دائم لايقطعه الا الموت * نسأل الله حسن التوفيق بمنه و كرمه *

﴿ دواء الصبر وما يستعان به عليه ﴾

إعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء و وعد الشفاء. فالصبر و إن كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، وقد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى. وكل مصارعين أردنا أن يغلب أحدهما

الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا و تضعيف الآخر . فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين و تضعيف باعث الدين، و تضعيف باعث الشهوة ـ فأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين ﴿أحدهما﴾ اطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين و الدنيا ـ وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة*

﴿الثانى﴾ أن يصارع باعث الهوى بالتدريج إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه*

و أما تضعيف باعث الشهوة فبقطع الأسباب المهيجة له كغض البصر الذى يحرك القلب ـ أو الفرار من الصور المشتهاة بالكلية ـ أو تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى يشتهيه كالنكاح فان كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه ما يغنى عن المحظورات منه ، و من عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبه مهما أراد ـ فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر*

﴿بيان فضيلة الشكر﴾

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه. فقال تعالى ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروالى ولا تكفرون﴾ وقال تعالى ﴿مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم و آمنتم﴾ وقال تعالى ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ و قطع تعالى بالمزيد مع الشكر. فقال سبحانه ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم﴾ و من الأحاديث قوله ﷺ ﴿الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر﴾*

﴿حقيقة الشكر﴾

اعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم معرفة النعمة من المنعم. والحال هو الفرح الحاصل بانعامه ، و العمل هو القيام بما هو مقصود المنعم و محبوبه. و يتعلق ذلك العمل بالقلب و بالجوارح و باللسان ـ أما بالقلب فقصد الخير و اضماره لكافة

الخلق — وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه — وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته *

﴿ بيان الشكر فى حق الله تعالى ﴾

اعلم أن العبد لا يكون شاكراً لمولاه الا إذا استعمل نعمته في محبته أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه — وأما إذا استعمل نعمته فيما كرهه فقد كفر نعمته كما إذا أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون الأول الا انه كفران للنعمة بالتضبيع (وكل ماخُلِق فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصّل به الى سعادته)

ثم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ولتميز ذلك مدر كان ﴿أحدهما﴾ السمع ومستنده الآيات والأخبار *

﴿الثانى﴾ بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار لادراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه اذ ما خلق شيأ في العالم الا وفيه حكمة. وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية — أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا. فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار — فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة — و كذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى ﴿ إِنَّا صَبَبْنا الماءَ صبًّا ثُمَّ شققْنا الأرْضَ شقًّا فأَنبَتْنا فيها حبًّا وعنباً ﴾ الآية — وأما الحكمة في سائر الكواكب فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذى يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر اليها . وأشار اليه قوله تعالى ﴿ إِنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بزينة الكواكب ﴾ فجميع أجزاء العالم سماؤه و كواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة

واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف — و كذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بان العين للإبصار واليد للبطش والرّجل للمشى — وهكذا. فاذاً كل من استعمل شيأ فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد . إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين إذ خلقت ليبصر بها ما تنفعه فى دينه ودنياه ويتقى بها ما يضرّه فيهما — و كذا من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير. وبهما قوام الدنيا. وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطرّ الخلق اليهما من حيث أنّ كل انسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه وملبسه وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج اليه و يملك ما يستغنى عنه فخلقت لتقدر بهما الأموال فتتداولهما الأيدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، ولحكمة أخرى وهى التوسل بهما الى سائر الأشياء ، ولحكم أخرى . فكل من عمل فيهما عملا يخالف الغرضَ المقصود منهما فقد كفر نعمة الله فيهما — فاذاً من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما — وكذا من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجذة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد — أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة — وأما الشجر فانّما خلقه الله تعالى وجعل له العروق وساق اليه الماء وخلق فيه قوة الإغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوئه فينتفع به عباده فكسرهُ قبل منتهى نشوئه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل. فان كان له غرض صحيح فله ذلك إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الانسان فانهما جميعاً فانيان هالكان فافناء الأخسّ في بقاء الأشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا. واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما فى الأرض جميعاً منه﴾ و بالجملة فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يطول *

﴿السبب الصّارف للخلق عن الشكر﴾

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم . ولا يتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها : ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله . ولم يعرفوا أن معى الشكر أن يستعمل النعمة في اتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل . فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان *

﴿ما يشترك فيه الصبر والشكر﴾

اعلم أنّه ما من نعمة من النعم الدنيوية إلا و يجوز أن تكون بلاء بالاضافة ونعمة كذلك . فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض و لو صح بدنه و كثر ماله لبطر و بغى : قال الله تعالى ﴿ولو بسطَ اللهُ الرِّزقَ لعباده لَبَغَوْا فى الأَرْض﴾ وقال تعالى ﴿كلاّ إنّ الإنسان ليَطغى أنْ رآهُ استَغنى﴾ وكذلك الزوجة والولد والقريب وأمثالها فإنّ الله تعالى لم يخلق شيأ إلاّ وفيه حكمة ونعمة أيضاً ، فإذاً في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً إمّا على المبتلى أو على غير المبتلى ، فإذاً كل حالة لا توصف بأنّها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعاً فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلاّ على غم ولا شكر إلاّ على فرح . فاعلم أنّ الشئ الواحد قد يغتم به من وجه و يفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ومرض وخوف و بلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح العاقل بها و يشكر عليها ﴿أحدها﴾ أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكثر منها اذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى . فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده و يحجزه . فليشكر اذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا ﴿الثانى﴾ أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه . وفي الخبر « اللهمّ لا تجعلْ مصيبتنا فى ديننا » ﴿الثالث﴾ أنه ما من عقوبة الا و يتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . فاعله لم تؤخر عقوبته

الى الآخرة وعجلت عقوبته في الدنيا . فلم لايشكر الله على ذلك ٭

﴿ الرابع ﴾ أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب، وكان لابد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها . فهذه نعمة ﴿ الخامس ﴾ أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة وكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل ، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا. ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لايؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة ، والأخبار الواردة فى ثواب الصبر على المصائب كثيرة ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ثم مع فضل النعمة فى البلاء كان ﷺ يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وكان يستعيذ من شماتة الأعداء وغيرها : وفى الحديث عنه ﷺ ﴿ سَلُوا اللهَ العافِيةَ فما أُعْطِيَ أحدٌ أفضلَ مِنَ العافيةِ الا اليقين ﴾ وأشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك. فعافية القلب أعلى من عافية البدن وفى دعائه ﷺ ﴿ وعافيتُكَ أَحَبُّ الىَّ ﴾

فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين

كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود. ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخـــرة كل عقبة كؤود . فلا يقود الى قرب الرحمن

إلا أزمة الرجاء ، ولا يصد عن نار الجحيم إلا سياط التخويف . فلابد اذاً من بيان حقائقهما *

﴿ بيان حقيقة الرجاء ﴾

قد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض . والايمان كالبذر فيه . والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض و تطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء اليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لاينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد الا ما زرع . ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان ، وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لاينمو بذر فى أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه في اوقاته ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش ، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع و يبلغ غايته سمي انتظاره رجاء . وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لاينصب اليها الماء و لم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقا وغروراً لا رجاءً ، وإن بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظره مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً سمي انتظاره تمنيا لا رجاء . فاذاً اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محموداً فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت ، و إن قطع عن بذر الايمان تعهده بماء

الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور : قال ﷺ « الأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَه هَواها وتمنى على الله الجنّةَ » وقال تعالى « فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهم خَلْفٌ أضاعُوا الصّلاة واتبعُوا الشّهوات فَسَوفَ يَلقَوْنَ غيّاً » وقال تعالى « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهم خَلْفٌ وَرِثوا الكِتابَ يأخذُونَ عرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولونَ سيُغفَرُ لنا » وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته وقال « ما أظنُّ أن تَبيدَ هذه أبداً وَمَا أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئنْ رددتُ الى رَبّي لأجدَنَّ خيراً منها مُنْقَلَباً » فاذا العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق أن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة — وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وانما الرجاء بعدتأكد الأسباب ـ ولذلك قال تعالى « انّ الّذين آمنُوا والّذين هاجرُوا وجاهدُوا في سبيل الله أولئك يَرجُون رحمةَ الله » معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله .وقال تعالى « انّ الّذينَ يتلُون كتابَ الله وأقامُوا الصّلاة وأنفقُوا ممّا رَزَقناهُمْ سِرّاً وعلانيةً يرجُونَ تجارةَ لن تبورَ » فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية : قل يحيي ابن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة .وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عزّ وجلّ مع الافراط *

ترجو النّجاةَ ولم تَسلُكْ مسالِكَها إنّ السفينةَ لاتجرى على اليَبَسِ

وإذاً حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال .ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى تملق له فان هذه الأحوال لا بدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكا

من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى ، فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى *

﴿ بيان حقيقة الخوف ﴾

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ، والعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه — وذلك الاحراق هو الخوف . فالخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه . وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون تكون قوّة خوفه فأخوفُ الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه — ولذلك قال ﷺ ﴿ أنا أخوَفُكُم لِلهِ ﴾ وكذلك قال الله تعالى ﴿ إِنَّما يَخشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلالَ الخوف واحتراقَ القلب. ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات — أما فى البدن فبالنحول والبكاء — وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل — وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف ان فيه سماً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلاّ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات . وما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان. قال الله تعالى ﴿ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِم يَرهَبُونَ ﴾ وقال تعالى

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ وكل مادل على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم *

﴿ الدواء الذى يستجلب به الخوف ﴾

اعلم أن من قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج بسماع الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء — وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء — أما رسولنا ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين. وكان أشدّ الناس خوفا حتى روى أنه سمع قائلا يقول لطفل مات «هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة» فغضب وقال ﴿ما يُدريك أنه كذلك والله أنى رسولُ اللهِ وما أدرى ما يصنعُ بى إنَّ اللهَ خلقَ الجنةَ وخلقَ لها أهلا لا يُزاد فيهم ولا يُنقَصُ منهُم﴾ وروى أنه ﷺ قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمه هنيئاً لك الجنة. فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكّى أحداً بعد عثمان : وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك هاجرت الى رسول الله ﷺ وقتلت فى سبيل الله فقال ﷺ ﴿ وما يُدريكَ لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ بما لا ينفعُهُ ويمنعُ ما لا يضرُّهُ ﴾ وفى حديث آخر أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا لك الجنة. فقال ﷺ ﴿ مَن هذهِ المتألِّيةُ على اللهِ تعالى وما يُدريكِ لعلَّ فلاناً كانَ يتكلَّمُ بما لا يَعنيهِ ويَبخلُ بما لا يُغنيه ﴾ وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو ﷺ يقول ﴿ شيَّبتْنِي هودٌ وأخواتُها سورَةُ الواقعةِ وإذا الشَّمسُ كوِّرتْ وعمَّ يتساءلون ﴾ فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ﴿ألا بُعداً لعادٍ قومِ هودٍ، ألا بُعداً لثمودَ، ألا بُعداً لمدْيَنَ كما بَعِدَتْ ثمودُ﴾ مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كلّ نفس هداها وفى

سورة الواقعة ﴿ لَيسَ لوقعتها كاذبةٌ خافضةٌ رافعةٌ ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة أما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا - وأما رافعة قوماً كانوا مخفوضين فى الدنيا - ففي سورة التكوير أهوال يوم القيامه وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى ﴿ وإذا الجحيم سُعِّرتْ وإذا الجنّة أُزْلِفَتْ علمتْ نفسٌ ما أحضرَتْ ﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يوم ينظُرُ المرءُ ما قدّمتْ يداهُ ﴾ الآية .وقوله تعالى ﴿ لا يتكلّمونَ إلاّ مَنْ أذنَ له الرّحمنُ وقال صَوَاباً ﴾ *

والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ﴿ وإنى لغفّارٌ لِمنْ تابَ وآمنَ وَعمِلَ صالحاً ثمّ اهتدَى ﴾ لكان كافيا إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى ﴿ فأمّا مَنْ تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحاً فعسَى أنْ يكونَ مِنَ المفلحين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليسألَ الصّادقين عَنْ صدْقِهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرُغُ لكم أيُّه الثّقلان ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفأمنوا مكْرَ الله ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذَ القرى وهى ظالمةٌ إنّ أخذهُ أليمٌ شديدٌ ﴾ وقوله ﴿ فمَنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيرا يرهُ ﴾ الآيتين وكذلك قوله تعالى ﴿ والعَصْرِ إنّ الانسانَ لفى خُسْرٍ ﴾ إلى آخر السورة - فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وإنما كان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ﴿ ولا يأمنُ مكْرَ اللهِ إلاّ القوْمُ الخاسِرونْ ﴾ وخوف الكاملين لا يصدر الا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعانى صفاته . فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن . وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القِدْر فى غليانها ؛ وقد قال معاذ بن جبل رضى الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه . وروى عن مخاوف الأنبياء والصحابة والتابعين ومن بعدهم مالا يحصى ولكن أجدر بالخوف منهم نحن لكن صدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا . فلا قرب الرحيل ينبهنا . ولا

بكثرة الذنوب تحركنا . ولا خطر الخاتمة يزعجنا. و من العجائب إنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا و ركبنا البحار و البرارى . وخاطرنا ونجتهد فى طلب أرزاقنا. ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا . والذى اليه رجاؤنا جلّ جلاله ـ يقول ﴿ وأنْ ليسَ للإِنسانِ إلاّ ماسَعَى ـ ولا يَغرنّكم بالله الغرور ـ يا أيُّها الإِنسان ماغَرّكَ بِربّكَ الكَريم ﴾ ثم كل ذلك لاينبهنا ولايخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الاّ محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدار كنا بها * فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الرّاضين الصّادقين ﴾

عن النبيّ ﷺ ﴿ إنَّ اللهَ يُحبُّ الفقيرَ المُتعفّفَ أبا العِيالِ ﴾ وعنه ﷺ ﴿ يدخُل فُقراءُ أمّتي الجنّةَ قبلَ أغنيائِها بخمسمائة عام ﴾ وعنه ﷺ ﴿ مَنْ أصبحَ منْكمْ مُعافًى في جِسْمِهِ آمناً فى سرْبِه عندهُ قوتُ يوْمه فكأنّما حيزتْ له الدُّنيا بحذافيرها ﴾ ولما طلبتْ سادات العرب وأغنياؤهم من النبيّ ﷺ أن ينحى عن مجلسه فقراء الصحابة ترفعاً عن مجالستهم إذا جاسوا اليه نزل قوله تعالى ﴿ واصْبرْ نفسَكَ مَعَ الّذينَ يَدْعُون ربّهُم بالغداةِ والعشيّ يُريدون وجهَهُ ولا تعْدُ عيْناكَ عَنْهم ﴾ يعنى الفقراء ﴿ تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ ولا تُطعْ منْ أغفلنا قلبهُ عَنْ ذكرنا ﴾ يعنى الأغنياء. واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبى ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ عَبسَ وتولّى أن جاءَهُ الأعمى وما يُدْريكَ لعلّه يزكّى أوْ يَذّكّرُ فتنفعهُ الذّكرى ﴾ يعنى ابن أم مكتوم ﴿ أمّا مَن اسْتغنى فأنتَ له تصدّى ﴾ يعنى هذا

الشريف. وقال يحيى بن معاذ: حبك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين. وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين. وعن علي رضي الله عنه مرفوعا «أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى»

﴿ آداب الفقير في فقره ﴾

اعلم أن الفقير آدابا في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها ﴿ فأما أدب باطنه ﴾ فأن لايكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لايكون كارها فعل الله تعالى من حيث أنه فعله وإن كان كارها للفقر ﴿ وأما أدب ظاهره ﴾ فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره. ففي الحديث ﴿إن الله تعالى يحب الفقيرَ المتعففَ أبا العيال ﴾ وقال تعالى ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ وأما في أعماله فأدبه أن لايتواضع لغني لأجل غناه: قال علي كرم الله وجهه «ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسنُ منه تيهُ الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل» فهذه رتبة، وأقل منها أن لايخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. وينبغي أن لايسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء. وأما أدبه في أفعاله فأن لايفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل مايفضل عنه. فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى *

﴿ آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال. وغرض المعطي. وغرضه في الأخذ ﴿ أما نفس المال ﴾ فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات. فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه *

﴿ وأما غرضه في العطاء ﴾ فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة *

﴿ أما الأول وهو الهدية ﴾ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فإن كان فيها منة فالأولى تركها. فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض *

﴿ الثاني ﴾ أن يكون الثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة. فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق الزكاة. فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه فإن كان مقارفا لمعصية في السر لو علمها المعطي لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه انه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه ﴿ الثالث ﴾ أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد *

﴿ وأما غرضه في الأخذ ﴾ فينبغي أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لا بد له منه أو مستغن عنه. فإن كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ. قال ﷺ ﴿ من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله اليه فلا يردّه ﴾. فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء. فإن كان مشغولا بنفسه فلاوجه لأخذه وإمساكه. وإن كان متكفلا بحقوق الفقراء فليأخذ مازاد على حاجته فانه غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به إلى الصرف اليهم — وبالجملة فالزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه. وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى ﴿ إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ *

﴿ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر اليه ﴾

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات ، قال ﷺ ﴿ مَنْ سألَ عنْ غِنًى فإنّما يَستكثرُ منْ جَمْرِ جهنّم ومَنْ سألَ وله ما يُغنيه جاء يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ وليسَ عليهِ لحمٌ ﴾ وفى لفظ آخر ﴿ كانتْ مَسألتُهُ خُدُوشاً وكُدُوحاً فى وَجهه ﴾ وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وكان ﷺ يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ، وسمع عمرُ رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عَشِّ الرجلَ فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل . قال قد عشّيته . فنظر عمر فاذاً تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال لستَ سائلا ولكنك تاجرٌ : ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ، ولولا ان سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته ، وانما استجاز ذلك رضي الله عنه لكونه لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيأً فانما أعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى أصحابه اذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح : نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة. فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا. وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مادام السائل عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته ـ وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله وسؤاله حرام قطعا ـ وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء ، وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد وكمن يسأل الكراء لفرس . ولا ينبغى أن يأخذ ما يعلم أن باعثه الحياء فانه حرام محض . وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه . وليترك حزاز القلب فانه الاثم. وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، وادراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت

فطنته، وضعف حرصه وشهوته . فان قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له مايوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة — وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ ﴿ إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرَّجلُ من كَسْبِه ﴾ وقد ورد فى وعيد من يسأل وهو غنى قوله ﷺ ﴿ مَنْ سألَ عن ظَهْرِ غِنًى فإنما يسألَ جمْراً فليستقلَّ منهُ أو ليستكثرَ ﴾ وقد ورد فى حد الغنى المحرّم للسؤال آثار مختلفة متنوعة يمكن تنزيلها على اختلاف أحوال المحتاجين اذ الحاجة لاتقبل الضبط . فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه و بين الله تعالى. فيستفتى فيه قلبه. و يعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة : نسأله تعالى حسن التوفيق بلطفه *

﴿فضيلة الزهد وحقيقته﴾

قال تعالى ﴿ ولا تمدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهُمْ زهْرَةَ الحياة الدُّنيا لنفتنهُمْ فيه ورزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ منْ كان يريدُ حرْثَ الآخرة نَزِدْ لهُ فى حرْثه ومنْ كان يريدُ حرْثَ الدُّنيا نؤْتهِ منها ومَالَهُ في الآخرة منْ نصيب ﴾ وفى حديث عمر رضى الله عنه انه لما نزل قوله تعالى ﴿ والّذين يكنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّة ولا يُنفِقُونَها فى سبيل الله ﴾ قال ﷺ ﴿ تبًا للدُّنيا تبًّا للدِّينار والدِّرهمَ ﴾ فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأىُّ شىء ندَّخر. فقال ﷺ ﴿ ليتَّخِذَ أحدُكُمْ لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحةَ تُعينُهُ على أمر آخرته ﴾ وعنه ﷺ ﴿السخىُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنّة . والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيدٌ من الناس قريبٌ من النّار ﴾ والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا. والسخاء ثمرة الزهد. والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وعنه ﷺ ﴿ ازْهَدْ فى الدُّنيا يحبَّك الله. وازْهدْ فيما فى أيدى النّاس يحبَّك الناس ﴾

ثم ان أصناف مافيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر ، وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها . فقال تعالى ﴿ زُيِّنَ للنّاس حبُّ الشهوّات من النِّساء والبنين

والقناطيرِ المُقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المُسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدُّنيا ﴾ ثم ردّه فى آية أخرى الى خمسة. فقال عز وجل ﴿ إعلموا أنّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكُمْ وتكاثُرٌ في الأموال والأولاد ﴾ ثم ردّه فى موضع آخر إلى اثنين . فقال تعالى ﴿ انّما الحياةُ الدُّنيا لعِبٌ ولهوٌ ﴾ ثم رد الكل الى واحد فى موضع آخر . فقال ﴿ ونَهى النّفْسَ عَنِ الهوَى فانَّ الجنّةَ هيَ المأوَى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا . فينبغى أن يكون الزهد فيه *

والحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها إلى ماهو خير منها علما بأن المتروك حقير بالاضافة الى المأخوذ .

واعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على مَنْ أحبَّ المدح بالزهد بل لابد من الزهد في حظوظ النفس . وينبغى أن يعول الزاهد في باطنه على ثلاث علامات *

﴿ الأولى ﴾ أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود — كما قال تعالى ﴿ لِكيلاَ تأسَوْا على مافاتَكُمْ ولاَ تفرَحُوا بما آتاكُمْ ﴾ ﴿ الثانية ﴾ أن يستوى عنده ذامه ومادحه ﴿ الثالثة ﴾ أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة *

كتاب النية والاخلاص والصدق

﴿ فضيلة النية ﴾

قال الله تعالى ﴿ واصْبِرْ نفسكَ مع الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهمْ بالغَداةِ والعَشِيّ يريدُونَ وجهَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إن يُريدَا إصلاحاً يُوفّقِ اللهُ بينهُما ﴾ والمراد بتلك الارادة

هي النية، وقال ﷺ ﴿ انما الأعمالُ بالنيّاتِ ولـكلّ امرىءٍ ما نوَى. فمن كانتْ هجرَتهُ الى اللهِ ورسولهِ فهجرَتهُ الى اللهِ ورسولهِ ومنْ كانتْ هجرتهُ الى دُنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكِحها فهجرَتهُ الى ماهاجرَ اليه ﴾ وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال ﴿ انّ بالمدينةِ أقواماً ماقطَعنا وادِياً ولاَ وَطِئنا موطِئا يغيظ الـكفّارَ ولا أنفقْنا نفَقةً ولا أصابتْنا مخمصةٌ الاّ شَرِكونا في ذلكَ وهُم بالمدينةِ ﴾ قالوا وكيف ذلك يارسُولَ اللهِ وليْسُوا معَنا. قال ﴿ حَبَسهُمُ العذْرُ ﴾ فشركوا بحسن النية، وقال ﷺ ﴿ يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على مامات عليه ﴾ وفي حديث أبي هريرة ﴿ منْ تزَوّجَ امرأةً على صدَاقٍ وهُو لاَ ينوِي أداءهُ فهو زان، ومَنْ أدانَ دَيناً وهُولاَ ينْوِي قضاءهُ فهُو سارِقٌ ﴾

﴿ تفضيل الأعمال المتعلقة بالنية ﴾

اعلم أن الأعمال تنقسم الى ثلاثة أقسام: طاعات ومعاص. ومباحات ﴿ فأما المعاصي ﴾ فلا تتغير عن موضعها بالنية أعنى أن المعصية لا تنقلب طاعة بالنية كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبنى مدرسة أو مسجدا بمال حرام وقصده الخير. فهذا كله جهل والنية لاتؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شرّ آخر. فان عرفه فهو معاند للشرع. وان جهله فهو عاص بجهله. إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم. والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشرّ خيرا هيهات ـ ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل. قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ـ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل، وقد قال تعالى ﴿ فاسأَلُوا أهْلَ الذّكرِ إنْ كنتم لا تعلمُونَ ﴾ *

نعم للنية دخل فى المعاصى وهو أنه إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها *

﴿القسم الثانى الطاعات﴾ وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها — أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله لا غير فان نوى الرياء صارت معصية — وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة حسنة ثم تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كما ورد ، ومثاله القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين

﴿أولها﴾ أن يعتقد أنه بيت الله وان داخله زائر الله *

﴿ثانيها﴾ أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى صلاة *

﴿ثالثها﴾ الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات

﴿رابعها﴾ عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد ﴿خامسها﴾ التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به ﴿سادسها﴾ أن يقصد افادة العلم بأمر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته ﴿سابعها﴾ أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة . والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله ﴿ثامنها﴾ أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله ما يقتضى هتك الحرمة — فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات ، اذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحصر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له . فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات *

﴿القسم الثالث المباحات﴾ وما من شيء من المباحات الا ويحتمل

نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلا فانه بقصد التلذذ والتنعم مباح ـ وأما اذا نوى به اتباع سنة رسول الله ﷺ وترويح جيرانه ليستريحوا بروائحه ، ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التي تؤدي الى ايذاء مخالطيه وزيادة فطنته وذكائه ليسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ـ فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التي لا يعجز عنها مَنْ غلب طلبُ الخير على قلبه مما ينال بها معالي الدرجات ـ وأمّا من قصد بالتطييب اظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق ليذكر بذلك أو ليتودد إلى قلوب النساء الاجنبيات أو لغير ذلك ـ فهذا يجعل الطيب معصية ويكون فى القيامة أنتن من الجيفة . والمباحات كثيرة لايمكن أحصاء النيات فيها . فقس بهذا الواحد ماعداه ـ ولهذا قال بعض السلف « إنى لأستحبّ أن يكون لى فى كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي للخلاء » وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لأن كل ماهو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدّين . فمن قصد من الأكل التقوّى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده كان مطيعا بأكله ونكاحه *
وبالجملة فاياك ثم إياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله مطلع عليك وشهيد ﴿وَمَا يلفظُ مِنْ قوْلٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾ وقد قال الحسن إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى انت أخذتَ لبنةً من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي ـ فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين . فان كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترّين . فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك *

﴿ فضيلة الاخلاص وحقيقته ﴾

قال الله تعالى ﴿ وما أمِرُوا إلاّ ليعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ لهُ الدّينَ ﴾ وقال ﴿ ألاَ

لله الدِّينُ الخالِصُ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِلاّ الّذِينَ تابُوا وَأصلحوا واعتصَمُوا باللهِ وأَخلَصُوا دِينَهُم للهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ فمَنْ كانَ يَرجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعمَلْ عَملاً صالحًا ولا يُشرِكْ بِعبادَةِ رَبِّهِ أحداً ﴾ وعن علىّ كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل ﴿ أخلِصِ العَمَلَ يُجزِكَ منهُ القَليلُ ﴾ وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيآته ::

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشو به غيره فاذا صفا عن شو به وخلص عنه سُمّى خالصا . و يسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا ، والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلاّ أن الشرك درجات ؛ وقد جرى العرف على تخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب فاذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الاخلاص . ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب — أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدو له — أو يصلى بالليل لغرض دنيوى — أو يتعلم العلم ـ أو يخدم العلماء والصوفية لذلك أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض ـ أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله ـ أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به ، وينظر اليه بعين الصلاح والوقار . فمهما كان باعثه التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من هده الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هده الأمور . فقد خرج عمله عن حدّ الاخلاص . وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى و تطرق اليه الشرك * وبالجملة كل حظ من حظوط الدنيا تستريح اليه النفس و يميل اليه القلب قلّ أم كثر اذا تطرّق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه فان الخالص من العمل هو الذى لا باعث عليه إلاّ طلب القرب من الله تعالى — وهدا لا يتصور إلاّ من محبّ لله لم يبق لحبّ الدنيا فى قلبه قرار — ولذا كان علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع

عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص ، وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغروراً لأنه لا يرى وجه الآفة فيها . فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر *

﴿ فضيلة الصدق ودرجاته ﴾

قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقُوا ماعاهدُوا اللهَ عليه ﴾ وقال النبى ﷺ ﴿ إنّ الصّدْقَ يَهْدِى إلى البرّ والبرّ يهدى إلى الجنّة وإنّ الرّجُلَ ليَصدُقُ حتّى يُكتبَ عند الله صدّيقاً وإنّ الكذبَ يهدى إلى الفُجُور . والفُجُورَ يهدى إلى النّار وإنّ الرّجلَ ليكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كذّاباً ﴾ *

والصدق درجات ﴿ الأولى صدق اللّسان ﴾ وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق . وكمال صدق القول الإحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إلا أن ذلك مما تمس اليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال ، وفى تأديب الصبيان والنسوان ، ومن يجرى مجراهم ، وفى الحذر عن الظلمة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار . فمن اضطرّ الى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه * نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ماوجد اليه سبيلا . كان رسول الله ﷺ إذا توجه الى سفر ورى بغيره ، وذلك كى لا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب في شىء . قال رسول الله ﷺ ﴿ ليسَ بكذّابٍ مَنْ أصْلحَ بين اثْنين فقال خيراً أو أنْمى خيراً ﴾ ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع مَنْ أصلح بين اثنين ، ومَنْ كان له زوجتان ، ومنْ كان فى مصالح الحرب ، والصدق ههنا

يتحوّل الى النية فلا يراعى فيه إلاّ صدق النية وارادة الخير « فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقاً وصديقا كيفما كان لفظه » ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطّى بأصبعك دائرةً وضعى الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا .وأفهم الظالم أنه ليس في الدار، وهذا الذى ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن المعاريض الاّ عند الضرورة هو الكمال الأوّل في صدق القول. وهناك كمال ثان وهو أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التى يناجى بها ربّه كقوله ﴿ وجَّهتُ وجْهِىَ للّذى فَطَرَ السَّموات والأرضَ ﴾ فان قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب ، وكقوله ﴿ إيكَ نَعبُدُ ﴾ وكقوله «أنا عبد الله» فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ، ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه . فانه ان كان عبدا لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله (وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له) كما قال ﷺ ﴿ تَعِسَ عبدُ الدّينار تَعِسَ عبدُ الدّرْهم وعبدُ الخَميصَةِ ﴾ سمّى كل من تقيد قلبه بشيء عبداله ، وإنّما العبد الحق لله عزّ وجلّ من أعتق من غير الله تعالى واشتغل بالله وبمحبته ويقيد ظاهره وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلاّ الله تعالى ☆

﴿الدرجة الثانية﴾ الصدق فى النية والارادة. ويرجع ذلك الى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلاّ الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ✽

﴿الثالثة﴾ صدق العزم وهو الجزم فيه بقوة والصادق فيه هوالذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات كمن يقول إن رزقنى الله مالا تصدّقت

بشطره ، و إن أعطانى الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق . فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى *

﴿الرابعة﴾ في الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذلا مشقة فى الوعد والعزم ، والمؤونة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات،ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه.ولذلك قال الله تعالى ﴿ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه ﴾ فقد روى عن أنس ان عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع.قال فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال الى أين فقال واهاً لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته ما عرفت أخى الا بثيابه. فنزلت هذه الآية ﴿ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه﴾

وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ومنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانَا مِنْ فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنَكونَنَّ مِن الصالحين. فلمّا آتاهمْ منْ فضله بَخِلُوا به وتولّوْا وهم مُعْرِضُون فأعقبهُمْ نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلْقَوْنَه بما أخْلَفُوا اللهَ ماوَعَدُوه وبما كانُوا يَكْذِبُون ﴾ فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا *

﴿ الخامسة ﴾ الصدق فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لايتصف هو به . فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لايرأى غيره ولكنه فى الباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال فى عمله غير صادق فيه . فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن

يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره *

إذا السرُّ والاعلانُ في المؤمن استوى * فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فان خالف الأعلانُ سرًّا فماله * على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لانهاية لها ، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فان كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقاً *

كتاب المحاسبة والمراقبة

﴿ بيان لزوم المحاسبة ﴾

قال الله تعالى ﴿ ونَضَعُ الموازينَ القسطَ ليوْم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كانَ مثقالَ حبَّةٍ من خردَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ووُضعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مشفقين مما فيهِ ويقولون ياويلتَنا مالهذا الكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووَجدُوا ما عملُوا حاضراً ولا يَظلِمُ ربُّك أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ يومَ يبعثُهُمُ اللهُ جميعاً فينبّئُهُم بما عَملوا أحصاهُ اللهُ ونسُوه واللهُ على كلّ شيءٍ شهيدٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ يوْمئذ يصدُرُ النّاسُ أشتاتاً ليُروْا أعمالهَمْ فمنْ يعملْ مثقالَ ذرّة خيراً يَرَه ومنْ يعملْ مثقالَ ذرة شرّا يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثمّ تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهُم لا يُظلمُون ﴾ وقال تعالى ﴿ يومَ تجد كلُّ نفس ماعملتْ منْ خيرٍ مُحضراً وما عملتْ من سُوء تَوَدُّ لوْ أنَّ بينها وبينهُ أمداً بعيداً ويحذّرُكم اللهُ نفسَهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلَموا أنّ اللهَ يعلمُ مافي أنفسكم فأحذَرُوه ﴾ *

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ، ويطالبون بمثاقيل الذّر من الخطرات واللحظات ، فتحققوا انهم لا ينجيهم من هذه الاخطار الالزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ومطالبة النفس في

الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزى والمقت سيئاته . فحتّم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها . وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاعوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من كنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد. فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل *

﴿ بيان مشارطة النفس ﴾

اذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها: مالى بضاعة إلاّ العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الحديد قد أمهلنى الله فيه وأنسأ فى أجلى وأنعم علىّ به ، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى الى الدنيا يوماً واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبى انك قد توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها فلا تميلى الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق ، وقد قال بعضهم (هب أنّ المسىء قدعفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين) أشار به الى الغبن والحسرة ، وقال الله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ليوم الجمع ذلك يوم التّغابُنِ ﴾ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ؛ ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهى العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل. فيوصيها بحفظها عن معاصيها *

﴿ أما العين ﴾ فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة

مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار . ثم اذا صرفها عن هـذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها و ربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة *

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لاسيما اللسان والبطن *

﴿أما اللسان﴾ فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه فى الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس ، ومذمة الخلق والأطعمة ، والطعن ، والدعاء على الأعداء ؛ والمماراة فى الكلام ؛ وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . فهو بصدد ذلك كله . مع انه خلق للذكر والتذكير ؛ وتكرار العلم ، والتعليم ، وارشاد عباد الله الى طريق الله ، واصلاح ذات البين ، وسائر خيراته ﴿وأما البطن﴾ فيكلفه ترك الشره ؛ وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ـ وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعتها ، ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تتكرر عليه فى اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها و كذا فيمن يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس ؛ وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة يحتاج الى أن يقتضي حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها . ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿ فضيلة المراقبة ﴾

روى أن جبريل عليه السلام سأل النبيّ صلوات الله عليه عن الإحسان

فقال ﴿ أَنْ تَعبُدَ اللهَ كأنكَ تَرَاهُ فإِنْ لمْ تكن تَرَاهُ فإنهُ يراكَ ﴾ وقد قال تعالى ﴿ أَفمنْ هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبتْ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلمْ يعلمْ بأنَّ اللهَ يرى ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رقيباً ﴾ وقال الله تعالى ﴿ والّذينَ همْ لأماناتِهمْ وعهدِهمْ راعُون والّذين هُمْ بشهاداتهمْ قائمونَ ﴾ وسأل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رَضيَ اللهُ عنهمْ ورضُوا عنهُ ذلكَ لمنْ خَشِيَ ربَّهُ ﴾ فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل . وحاسب نفسه وتزود لمعاده ، وقال رجل للجنيد بِمَ أستعين على غض البصر . فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه *

﴿ حقيقة المراقبة ﴾

المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ اليه . ويُعنَى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب ـ أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه ـ وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر . رقيب على أعمال العباد . قائم على كل نفس بما كسبت وان سرّ القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف . ثم للمراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ، ونظر فى العمل ـ أمّا قبل العمل فلينظر ان همه وحركته أهى لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق . فان كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمّه به ، وميله اليه . وعرّفها سوء فعلها وانها عدوة نفسها وأما النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل فذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ، ويحسن النية فى اتمامه ، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه *

وهذا ملازم له فى جميع أحواله . لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو فى معصية أو في مباح . فمراقبته فى الطاعات بالاخلاص والا كمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب . ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر

عليها ، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها. ونعمة لا بد له من الشكر عليها. وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه ـ إما فعل يلزمه مباشرته ـ أو محظور يلزمه تركه ـ أو ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله ـ أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ وَمَنْ يتعدَّ حُدُودَ الله فقدْ ظَلَمَ نفْسَهُ ﴾ ومنْ كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها . فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل *

﴿ بيان محاسبة النفس بعد العمل ﴾

قال تعالى ﴿ يا أيُّها الّذين آمنوا اتَّقوا اللهَ ولْتنظُرْ نفسٌ ماقدَّمتْ لِغَدٍ ﴾ وهذه اشارة الى المحاسبة على ما مضي من الأعمال ، وقال تعالى ﴿ وتُوبوا الى اللهِ جميعاً أيُّها المؤْمِنُون لعلّكم تُفلِحُونَ ﴾ والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقال تعالى ﴿ إنَّ الّذين اتقوْا إذا مسّهُمْ طائفٌ من الشّيطان تذكّرُوا فاذا همْ مُبْصرُون ﴾ وقال النبي ﷺ ﴿ انّى لأستغفرُ اللهَ تعالى وأتوبُ اليه في اليَوْم مائة مرّةٍ ﴾ وقال عمرُ رضى الله عنه : حاسبُوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن تُوزنوا. وقال مالك بن دينار: رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ، ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً : اذا علمت هذا فينبغى أن يكون للمرء فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا ، وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد — ماهذه المساهلة الا عن الغفلة وقلة التوفيق ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران

طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل . وخسرانه المعاصى. وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها — وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط كما يصنع التاجر بشريكه ؛ وليتكفل بنفسه من الحساب مايتولاه غيره فى صعيد القيامة *

﴿توبيخ النفس ومعاتبتها﴾

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها . ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها . فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها . قال الله تعالى ﴿ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يانفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا — أما تعرفين مابين يديك من الجنة والنار ، وانك صائرة الى أحداهما على القرب . فمالك تشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم — أما تعلمين أن كل ماهو آت قريب ، وأن البعيد ماليس بآت — أماتتدبرين قوله تعالى ﴿ إقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك . وإن كان

مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياؤك *

ويحك يانفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له ، فبأىّ جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه : هيهات هيهات جرّبى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب — أفتحسبين ان الله كريم في الآخرة دون الدنيا . وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد . وأن ليس للانسان إلا ما سعى — يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك . أفتظنين أن العبد ينجو بغير سعى هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وانما كرم الله تعالى فى أن عرّفك طريق التحصن ويسّر لك أسبابه لا فى أن يدفع عنك العذاب دون حصنه : انظرى يانفس بأىّ بدن تقفين بين يدى الله ، وبأىّ لسان تجيبين ، وأعدّى للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مُقامة ، وفي دار حزن ونَصب لدار نعيم وخلود ، واعلمى أنه ليس للدين عوض ، ولا للايمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يَسِرْ ، فاتعظى يانفس بهذه الموعظة . واقبلى هذه النصيحة فان مَنْ

أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار — فهذه طريق القوم في معاتبة نفوسهم ، ومقصودهم منها التنبيه والاسترعاء ، ومن أهمل المعاتبة لم يكن لنفسه مراعياً ، ويوشك أن لا يكون الله عنه راضيا *

كتاب التفكر

﴿ فضيلة التفكر ﴾

اعلم أنه قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصي وأثنى على المتفكرين فقال تعالى ﴿ الَّذينَ يذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِم ويتفكَّرونَ في خَلْقِ السَّموات والأَرض ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً ﴾ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ ﴿ تفكَّرُوا في خَلْقِ الله ولا تَفَكَّرُوا في اللهِ ﴾ وروى في السنة ﴿ تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ عبادَةِ سنةٍ ﴾ وقال حاتم (من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكر يزيد الخوف) وقال الشافعي رحمه الله تعالى « استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر » ثم إنّ ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغيَّر حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها لأنه الذي ينقل من المكاره إلى المحابّ. ويهدى إلى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد *

﴿ بيان مجارى الفكر ﴾

إعلم أنّ أنواع مجاري الفكر أربعة : الطاعات . والمعاصي . والصفات المهلكات . والصفات المنجيات *

﴿ فأمّا المعاصى ﴾ فينبغى أن يفتش الإنسانُ صبيحةَ كلّ يوم جميعَ أعضائه السبعة. ثم بدنه هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها — أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم — أو هو متعرّض لها فى نهاره فيستعدّ للإحتراز والتباعد عنها — فينظر في اللّسان ويقول إنّه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النّفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعنى إلى غير ذلك من المكاره فيقرر أوّلاً فى نفسه أنّها مكروهة عند الله تعالى. ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها فيحترز منها. ويتفكر فى سمعه أنّه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللّهو، وأنه ينبغى أن يحترز عنه. ويتفكر فى بطنه أنه إنّما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشّرب — إمّا بكثرة الأكل من الحلال وذلك ومكروه عند الله — وإمّا بأكل الحرام والشبهة فيتفكر فى الاحتراز عن مداخله ويتفكر في طريق الحلال وموارده. ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأنّ أكل الحلال هو أساس العبادات كلّها — فهكذا يتفكر في أعضائه حتى يحفظها *

﴿ وأمّا الطاعات ﴾ فينظر أوّلاً فى الفرائض المكتوبة عليه أنّه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير — أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل *

ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها ممّا يحبّه الله تعالى فيقول إنّ العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل فى طاعة الله تعالى. وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله. وأنا قادر على أن أشغل العينَ بمطالعة القرآن والسّنّة فَلِمَ لا أفعله. وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه فلم لا أفعله — وكذلك يقول في سمعه انى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم فمالى أعطله. وقد أنعم الله علىّ به وأودعنيه لأشكره فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله — وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول إنى قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى قلوب

أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فانها صدقة ـ وكذلك يتفكر فى ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه . ومهما احتجت اليه رزقنى الله تعالى مثله ، وان كنت محتاجا الآن فأنا الى ثواب الايثار أحوج منى الى ذلك المال ـ وهكذا يفتش عن جميع اعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه . ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات . ويتفكر فى إخلاص النية فيها — وقس على هذا سائر الطاعات *

﴿ وأما الصفات المهلكة التى محلها القلب ﴾ فيعرفها مما تقدم وهى استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ، ويتفقد من قلبه هذه الصفات . ويتفكر فى طريق العلاج لها مما سلف ذكره *

﴿ وأما المنجيات ﴾ فهى التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء ، والخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق فى الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه ، والرضا بأفعاله ، والشوق اليه ، والخشوع والتواضع له مما تقدم ذكره ، فيتفكر كلّ يوم في قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة الى الله تعالى . فاذا افتقر إلى شىء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّ علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار . فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم ، فليفتش ذنوبه أوّلا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها ، وليحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم ، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى احسان الله اليه وأياديه عليه ، وفى ارساله جميل ستره عليه ، وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه ، وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه ، وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولا

في ذنوبه الظاهرة والباطنة . ثم لينظر فى الموت وسكراته. ثم فيما بعده من سؤال القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه . ثم فى هول النداء عند نفخة الصور . ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد . ثم فى المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير . ثم ليحضر فى قلبه صورة جهنم وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقّومها وصديدها وأنواع العذاب فيها ، وانهم كلما نضجت جلودهم بدلوّا جلودا غيرها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً ، وهلمّ جرّا الى جميع ماورد فى القرآن من شرحها . واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء. فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم — فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة *

وأما ذكر مجامع تلك الأحوال فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر فان القرآن جامع لجميع المقامات والأحوال .وفيه شفاء للعالمين فيه مايورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال. وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة . فينبغي أن يقرأه العبد ويردّد الآية التى هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة. فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم. فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها الاّ بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة *

وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فانه قد أوتى جوامع الكلم. وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة. ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره

﴿بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى﴾

اِعلم أنّ كل مافى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه. وكل ذرّة من من الذرات ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن : فلنذكر من الموجودات مايدرك بحس البصر فإنّه الأقرب إلى الافهام . وذلك من الآيات التى حثّ على التفكر فيها القرآنُ الكريم *

﴿ آية الإنسان ﴾

من آياته تعالى الإنسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء إليك نفسك . وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة . فقال ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره من أيّ شيءٍ خلقه من نطفةٍ خلقه فقدّره ثم السبيل يسّره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يكُ نطفةً من منيٍّ يُمنى ثم كان علقةً فخلق فسوّى ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماءٍ مهين فجعلناه فى قرارٍ مكين إلى قدرٍ معلوم ﴾ ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين ثم جعلناه نطفةً فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقةً ﴾ الآية . فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه . فانظر الآن إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت : كيف أخرجها ربّ الأرباب من الصلب والترائب . وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم . وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الإجتماع . وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع . وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم . ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذّاه حتى نما وكبر . وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء . ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم . ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة . فدوّر الرأس . وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ . ثم مدّ اليد

والرجل وقسّم رؤوسها بالأصابع وقسّم الأصابع بالأنامل. ثمّ كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ؛ وفى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات مالو ذهبنا الى وصفها لا تقضى فيها الأعمار ٥

فانظر الآن إلى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة. ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له. ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة . فمنه صغير و كبير . وطويل ومستدير . ومجوّف ومصمت . وعريض ودقيق ، ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه مفتقراً للتردد فى حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها . و ربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرف العظم . وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه ، وفى الآخر حُفَراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار الانسان إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه — ولولا المفاصل لتعذّر عليه ذلك : ثم انظر كيف خلق عظام الرأس ، وكيف جمعها و ركّبها . فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه . فمنها مايخص القحف واللّحْىَ الأعلى واللحى الأسفل . والبقية هى الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن . و بعضها حادة تصلح للقطع وهى الانياب والأضراس والثنايا . ثم جعل الرقبة مركباً للرأس . ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة . ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر . وعظام الكتف . وعظام اليدين. وعظام العانة وعظام العجز ، ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين وتعداد ذلك يطول . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة ، والقصد أن ينظر فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها وخالف بين أشكالها وخصّصها بعددها المخصوص لأنه لو زاد

عليها واحداً لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج الى جبره . ثم أمرُ الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعابها أعجبُ من هذا كله ، وشرحه يطول . وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها. فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض الى عجائب السموات — ولذلك قال تعالى ﴿ أَأَنتُم أَشَدُّ خَلقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها وأَغْطَشَ لَيلَها وأَخرَجَ ضُحاها ﴾ فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانياً ، وتأمل إنه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحاً أو يخلقوا فيها عظما أو عِرْقا أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك — بل لو أراد أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه . فالعجب منك لو نظرت الى صورة تأنق النقاشُ في تصويرها لكثر تعجبك منه. وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها. وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة . فأحكم العظام في أرجائها ، وحسَّنَ أشكال أعضائها. وزين ظاهرها و باطنها . ورتب عروقها وأعصابها . وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حاويا لآلات غذائها ، والرأسَ جامعاً لحواسها . ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهيئتها . ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها ، وتدفع الأقذاء عنها . ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع

أكنافها ، وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرًّا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها ، وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة مايدب فيها، ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعرباً عما في القلب ، وزين الفم بالأسنان ولتكون آلة الطحن والكسر والقطع. فأحكم أصولها وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل. وزين العينين بالأهداب. ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص. فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والمثانة لقبول الماء حتى تخرجه في طريق الإحليل. والعروق تخدم الكبد في ايصال الدم الى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطوّلها لتمتد الى المقاصد . وعرّض الكف وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل

أصبع بثلاث أنامل. ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع — وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء . ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لاتتقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة. ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه — ولو في النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل .ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث . فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه، ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبىّ لما كبر كيف هداه السبيلَ حتى تنكس وتحرّك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج اليه . ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ، ثم لما كان بدنه سخيفاً لايحتمل الأغدية الكثيفة كيف دبّر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصا ؛ وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمَتين على قدر ماينطبق عليهما فمُ الصبى. ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقاً جداً حتى لايخرج اللبن منه إلا بعد المصّ تدريجاً فان الطفل لايطيق منه إلاّ القليل . ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع . ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان الى تمام الحولين لأنه فى الحولين لايتغدى إلا باللبن فيستغنى عن السنّ واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها . فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة . ثم حنّن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه. فلو لم يسلط اللهُ الرحمةَ على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه . ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والعقل

والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً ، ثم شاباً ثم كهلا ، ثم شيخاً إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً اوعاصيا مؤمنا أوكافراً تصديقاً لقوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهرِ لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الانسانَ مِنْ نطفةٍ أمشاجٍ نبتليهِ فجعلناهُ سميعاً بصيراً * إنا هديناهُ السَّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ﴾ فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائبُ الحضرة الربانية. والعجب كلُ العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همته الى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطّهُ وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا يدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته — فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وانت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم تشاركك فى معرفة ذلك - وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر فى زمرة النبيين والصدّيقين مقرّبا من حضرة ربّ العالمين ، وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك — وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا - وإذا عرفتَ طريقَ الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرّك . ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها . ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات *

﴿ آية الأرض ﴾

من آياته تعالى أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً ، وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها

ذلولا لتمشوا فى مناكبها. وجعلها قارة لاتتحرك وأرسي فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد. ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها. وقد أكثر تعالى فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقر الأحياء . و بطنها مرقد الأموات . قال الله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وأَمْوَاتاً﴾ فانظر إلى الأرض وهى ميتة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها. وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً صافيا زلالا . وجعل به كل شيء حى . فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والروائح يفضل بعضها على بعض فى الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة. ثم انظر الى أرض الوادى وفتش ظاهرها و باطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر. فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها. ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة — فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيي وهذا يقتل . وهذا يبرد . وهذا يسخن وهذا يفرح . وهذا ينوم ولم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام فى وصف ذلك فيكفيك من كل نبذة يسيرة تدل على طريق الفكر . فهذه عجائب النبات *

﴿ آية أصناف الحيوانات ﴾

اعلم أن من آياته تعالى أصناف الحيوانات وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشي. وانقسام مايمشى الى ما يمشي على رجلين وعلى أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها . وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها، وفى إلفها لزوجها، وفى ادخارها لنفسها، وفى حذقها فى هندسة بيتها، وفى هدايتها الى حاجاتها لم نقدر على ذلك ، وكل يشهد بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخلق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات *

وهذا الباب أيضا لاحصر له فان الحيوانات وأشكالها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة — نعم إذا رأى حيوانا ولو دوداً — تجدد تعجبه ، وقال : سبحان الله ما أعجبه. والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الأنعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه اياها فسبحان من الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير

تأمل وتدبره ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير. فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما الخلق إلا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته: فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته . فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته *

﴿ آية البحار ﴾

من آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، وفيها من عجائب الحيوان والجواهر أضعاف ماتشاهده على وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض . انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصخور . ثم تأمل ما عداه من العنبر واصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه . ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخرلهم الفلك لتحمل أثقالهم *

وأعجب من ذلك كله الماء ماهو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيّال مشف متصل الأجزاء كانه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع بهحياة كلّ ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك . ثم لو شربها ومُنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها *

فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل فى عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكلّ ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته *

﴿ آية الهواء وعجائب الجوّ ﴾

ومن آياته تعالى الهواء اللطيف . فإن شاء جعله نشراً بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرّياحَ لواقح ﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعدّ للنماء ، وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يومِ نحسٍ مُستمرٍّ تنزعُ النّاسَ كأنّهُمْ أعجازُ نخلٍ مُنقعِرٍ ﴾

ثمّ انظر إلى عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرّعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق وهى عجائب ما بين السماء والأرض. وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السّموات والأرضَ وما بينهما لاعبين ﴾ وهـذا هو الّذى بينهما ـ وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى ﴿ والسّحابِ المُسخرِ بينَ السّماءِ والأرضِ ﴾ وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر . فتأمّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جوّ صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء الى أن يأذن الله في ارسال الماء وتقطيع القطرات حتى يصيب الأرض قطرة قطرة. فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة لعجزوا. وكل ذلك من فضل الجبّار القادر لا إله إلاّ هو *

﴿ آية السموات ﴾

ومن آياته تعالى ملكوت السّموات وما فيها من الكواكب . وقد عظم الله تعالى أمرَ السموات والنجوم فى كتابه فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع وكم من قَسَمٍ فى القرآن بها كقوله تعالى ﴿ والسّماء والطارقْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلا أقسمُ بمواقعِ النّجوم وإنّه لقَسَمٌ لوْ تعلمون عظيم ﴾ وقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به. وأحال الأرزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى ﴿ وفى

السّماء رِزْقُكُمْ وماتُوعَدُونَ﴾ وأثنى على المتفكرين فيه فقال ﴿ويتفكّرُونَ في خلْقِ السّمٰواتِ والأرْضِ﴾ فارفع رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلافَ مشارقها ومغاربها ودؤبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغيُّر في سيرها بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدَّر لايزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طيَّ السجل للكتب ، وتدبّر كثرة كواكبها واختلاف ألوانها وكيفية أشكالها . ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة . ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأُطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام . فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر كيف أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها . وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من اجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، وعلى الجملة فما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى فيه حِكَمٌ كثيرة ، وكل العالم كبيت واحد . والسماء سقفه . فالعجب منك أنك تدخل بيت غنيّ فتراه مروّقا بالصبغ مموّها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته ، ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه ليس لك هم إلاّ شهوتك اشتغلت بأنواع الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض . فاستكثر من معرفة عجيب صنع الله تعالى لتكون معرفتك بجلاله وعظمته أتم . والله الملهم *

كِتَابُ ذِكْرِ الموْتِ وَمَا بَعْدَهُ

﴿فضل ذكر الموت﴾

روى عن النبي ﷺ أنه قال ﴿أكثِروا مِنْ ذِكْرِ هادِمِ اللّذّاتِ﴾ وعنه

صلوات الله عليه ﴿أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿كَفَى بِالمَوْتِ وَاعِظًا﴾ وعنه ﴿أَكْيَسُ النَّاسِ أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ﴾

وعن عبد الله بن مطرّف قال : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا موت فيه *

واعلم أن المنهمك فى الدنيا المكبّ على غرورها المحبّ لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذُكّر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ الى عالم الغيب والشَّهادة فيُنَبِّئُكُم بما كُنتُم تعملون﴾ ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدىء وإما عارف منته — أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا — وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت ليبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة — وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه لاموعد للقائه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قطّ موعد لقاء الحبيب . ثم إن أنجع طريق فى ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم . فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لا بد من مفارقته * نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا . ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا ثم بكى رحمه الله تعالى *

﴿ فضيلة قصر الأمل ﴾

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر ﴿ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسُقْمِكَ ﴾ وعن علي رضي الله عنه رفعه : ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ـ فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق ـ وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا *

وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة ولا يدرى أن ذلك غير بعيد فان الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ، ومن ليل ونهار فلا يقدر نزول الموت به مع رؤياه من مات بين يديه ، ولا يقدر أن تشيع جنازته وهو لا يزال يشيع الجنائز ، فما أغفله وما أجهله . فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ولا علاج لذلك إلا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . فمهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير *

﴿ المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير ﴾

عن النبى ﷺ أنه قال ﴿ اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبلَ خَمسٍ شَبَابَكَ قَبلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبلَ سُقْمِكَ وَغِنَاكَ قَبلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبلَ شُغلِكَ وحَيَاتَكَ قَبلَ مَوتِكَ ﴾ وقال ﷺ ﴿ نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفراغ ﴾ أى أنه لا يغتنمهما . ثم يعرف قدرهما عند زوالهما * وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها الى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعنى الأنفاس . آخر العدد

خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك . آخر العدد دخولك فى قبرك ٥

وسبب التأخير هو الأنس بالدنيا وشهواتها والتسويف فلا يزال يسوّف ويؤخر ولا يخوض فى شغل الاّ ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضى به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته ؛ وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف. يقولون واحزناه من سوف . والمسوّف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غداً ، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ؛ ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض في لدنيا فراغ قط . وهيهات فما يفرغ منها الاّ من أطرحها

فما قضى أحد منها لبانته ✻ وما انتهى أرب الاّ الى أرب

نسأله تعالى أن لا يجعل لنا بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء✻

﴿ بيان سكرة الموت والإعتبار بالجنائز وزيارة القبور ﴾

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو فى كل نفس بصدده ـ كما قال بعض الحكماء « كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك »

واعلم أن الجنائز عبرة للبصير. وفيها تنبيه وتذكير لا لأهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها الاّ قسوة لأنهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون ؛ ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ـ أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدّرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا يحسبون . فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم . فلا ينظر عبد الى جنازة إلاّ ويقدّر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد . ولعله في غد أو بعد غد . قال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلاّ متقنعا باكيا ـ فهكذا كان خوفهم من الموت، والآن

لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة إلا وأ كثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه الا في الحيلة التي بها يتناول بعض ماخلّفه ولا يتفكر واحدمنهم الى ماشاء الله في جنازة نفسه وفي حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بمالا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة *

﴿ فمن آداب حضور الجنازة ﴾ التفكر والتنبيه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع ، ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، واساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا يُدرى حقيقتها *

﴿ وأما زيارة القبور ﴾ فهي مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور . ثم أذن في ذلك بعد — وأما النساء فلا يفي خيرُ زيارتهن بشرّها يكثرن الهُجْرَ على رؤس المقابر ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرّج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة تردّ أعين الرجال عنها — وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر *

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلّم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبّله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أ كثر يجيء الى القبر فيقول — السلام على النبي * السلام على أبي بكر * السلام على أبي وينصرف : وكان بعض السلف إذا وقف على باب المقابر يقول : آنسَ الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيآتكم وقبل الله حسناتكم. فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به. وانما يحصل له الاعتبار به بأن يتصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه ؛ وكيف يبعث من قبره ، وأنه على القرب سيلحق

به ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكر إلا بالجميل . قال ﷺ ﴿ لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا ﴾

﴿ بيان المأثور عند موت الولد ﴾

حقٌ على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة ما لو كان فى سفر فسبقه الولد الى البلد الذى هو مستقره ووطنه فانه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخرٌ وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن إلى أن يلحق المتأخر. واذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه — لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب ما يعزّى به كل مصاب. فعن أبى هريرة رفعه إلى النبى ﷺ ﴿ لَسَقطٌ أقدّمُهُ بين يدىّ أحبُّ إلىّ منْ فارسٍ أخلِفُهُ خلفى ﴾ وانما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب : وقال رسول الله ﷺ ﴿ لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهُمْ الا كانوا له جُنّةً من النّار ﴾ فقالت امرأة أو اثنان يارسول الله. قال ﴿ أو اثنان ﴾ وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقرب به الى الاجابة : وقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللّهم انى قد غفرت ما وجب لى عليه فاغفرْ له ما وجب له عليه فانك أجود وأكرم. ووقف أعرابىٌّ على قبر ابنه فقال : اللهم انى قد وهبت له ما قصر فيه من برّى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . وينبغى أن يتذكر عند موت الولد الفجائع الكبرى ليتسلّى بها عن شدّة الجزع . فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها ، وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر *

﴿ ذكرى ما بعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة ﴾

كما أن للموت شدّة في أحواله وسكراته وخطراً فى خوف العاقبة كذلك الخطر فى مقاساة ظلمة القبر وديدانه . ثم لمنكر ونكير وسؤالهما . ثم لعذاب القبر وخطره

إن كان مغضوبا عليه ، وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير . ثم جواز الصراط . ثم انتظار النداء عند فصل القضاء — إما بالإسعاد وإما بالاشقاء — فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها . ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق . ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الايمانُ باليوم الآخر صميمَ قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم . ثم غفلت عنه قلوبهم ومنْ أُخبِرَ بأن مابين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى أخبره صدقتَ به ثم مدّ يده لتناوله كان مصدّقا بلسانه ومكذّبا بعمله ، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان . فمثّل نفسك وقد بُعثتَ من قبرك مبهوتا من شدّة الصعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم ، وقد أزعجهم الرعب مضافا الى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى ﴿ونُفِخَ في الصُّور فَصَعِقَ منْ فى السّموات ومنْ فى الأرض إلاّ من شاءَ اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فاذاهُمْ قيام ينظُرُون﴾ التفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم انتظارا لما يقضي عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم فكيف حالك وحال قلبك هنالك وقد بُدّلت الارُض غير الأرض والسموات، وطُمس الشمسُ والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة وازدحموا فى الموقف شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم . فتأمل يامسكين فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه والخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى وانت عار مكشوف ذليل متحير مبهوت منتظر لما يجرى عليك القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظمْ

بهذه الحال فانها عظيمة ، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه القاهر سلطانه القريب أوانه ﴿يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت *

وقد وصف الله بعض دواهي يوم القيامة . وأكثر من أساميه لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه . فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب . فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر ، وفي كل نعت من نعوتها معنى . فاحرص على معرفة معانيها . فمن أساميها ﴿ يوم القيامة ﴾ ، ﴿ ويوم الحسرة ﴾ ، ﴿ ويوم الندامة ﴾ ، ﴿ ويوم المحاسبة ﴾ ﴿ ويوم الزلزلة ﴾ ، ﴿ ويوم الصاعقة ﴾ ، ﴿ ويوم الواقعة ﴾ ، ﴿ ويوم القارعة ﴾ ﴿ ويوم الغاشية ﴾ ، ﴿ ويوم الراجفة ﴾ ، ﴿ ويوم الحاقة ﴾ ، ﴿ ويوم الطامة ﴾ ﴿ ويوم الصاخة ﴾ ﴿ ويوم التلاق ﴾ ، ﴿ ويوم التناد ﴾ ، ﴿ ويوم الجزاء ﴾ ، ﴿ ويوم الوعيد ﴾ ﴿ ويوم العرض ﴾ ، ﴿ ويوم الوزن ﴾ ، ﴿ ويوم الفصل ﴾ ، ﴿ ويوم الجمع ﴾ ﴿ ويوم البعث ﴾ ، ﴿ ويوم الخزى ﴾ ، ﴿ ويوم عسير ﴾ ، ﴿ ويوم الدين ﴾ ﴿ ويوم النشور ﴾ ، ﴿ ويوم الخلود ﴾ ، ﴿ ويوم لا ريب فيه ﴾ ، ﴿ ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيأ ﴾ ، ﴿ ويوم تشخص فيه الأبصار ﴾ ، ﴿ ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾

فالويل كل الويل للغافلين . يرسل الله لنا سيد المرسلين . وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين . ثم يعرفنا غفلتنا ،

ويقول ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه . ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يتدارکنا الله بواسع رحمته

﴿ صفة السؤال ﴾

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير . فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء الى موقف العرض على الجبار فيقومون صفا صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وينادون واحدا بعد واحد فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد انه ما يراه أحد سواه ، وانه المقصود بالأحد والسؤال دون من عداه . فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء من شدة الهيبة . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها . وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ،

فليت شعري بأيّ قدم تقف بين يديه. وبأيّ لسان تجيب. وبأيّ قلب تعقل ما تقوله وفي الخبر ﴿لا تزولُ قدَمَا ابنِ آدمَ يومَ القيامةِ من عِندِ ربّهِ حتى يُسئَلَ عن أربعِ خصالٍ عن عُمْرِهِ فيما أفناهُ وعن شبابِهِ فيما أبلاهُ وعن مالِه من أينَ إكتسبهُ وفيما أنفقهُ وماذا عَمِلَ فيما عَلِمَ﴾ فأعظم يامسكين بحياتك عند ذلك وبخطرك. ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان. وتطاير الكتب الى الشمائل والايمان ﴿فمن ثقُلَتْ موازينهُ فهُوَ في عيشةٍ راضيةٍ ومَنْ خفّت موازينهُ فأُمّهُ هاويةٌ وما أدراكَ ماهيهْ نارٌ حاميةٌ﴾

﴿صفة الخصماء وردّ المظالم﴾

إعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان الامن حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة نصوحا ويتدارك مافرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة. فهذا يدخل الجنة بغير حساب؛ وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه. فهذا يأخذه بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني؛ وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني — وهذا يقول أخفيتَ عيب سلعتك عنّي — وهذا يقول كذبت في سعر متاعك — وهذا يقول رأيتني محتاجا وأنت غني فما أكرمتني — وهذا يقول وجدتني مظلوماً وكنت قادرا على دفع الظلم عني فما راعيتني. فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم اذ قرع سمعك نداءُ الجبّار جل جلاله ﴿اليومَ تُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلمَ اليومَ﴾ فعندذلك ينخلع قلبك وتتذكر ماأنذرك الله على لسان رسوله حيث قال ﴿ولا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عمّا يعملُ الظالمونَ إنما يُؤَخِّرُهُمْ ليومٍ تَشخصُ فيه الأبصارُ مُهطِعينَ مُقنِعي رُؤسِهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئدتُهم هواءٌ﴾ فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك باعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسرتك في ذلك اليوم اذا وقف بك على بساط العدل وكشف

عن فضائحك و مساويك · فاحذر من التعرض لسخط الله و عقابه الأليم · و استقم على صراطه المستقيم · فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة و نجا . و من عدل عن الاستقامة فى الدنيا . و أثقل ظهره بالأوزار و عصى . تعثر فى أول قدم من الصراط و تردى *

﴿القول فى أهوال جهنم وقانا الله عذابها﴾

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه . و اصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قال سبحانه ﴿وإنْ منكم إلاّ واردُها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نُنجّى الذينَ اتقَوْا و نَذَرُ الظّالمين فيها جِثِيّاً﴾ فأنت من الورود على يقين ، و من النجاة فى شك. فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد . فعساك تستعد للنجاة منه . و تأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا. فبينماهم فى كربها و أهوالها و قوفاً ينتظرون حقيقة انبائها ، و تشفيع شفعائها ــ إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب و أظلت عليهم نار ذات لهب، و سمعوا لها زفيراً يفصح عن شدة الغيظ و الغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب · حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب — فهناك تسوق الزبانية المجرمين إلى العذاب الشديد و ينكسونه فى قعر الجحيم ؛ ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم، فاسكنوا داراً يخلد فيها الأسير ، و يوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، و مستقرهم الجحيم .شدت أقدامهم الى النواصى ، و اسودت وجوههم من ظلمة المعاصى. ينادون من أكنافها . ويصيحون فى نواحيها و أطرافها . يا مالك قد نضجت منا الجلود .يامالك أخرجنا منها فانا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان . فاخسئوا فيها و لا تكلمون و لو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون ــ فعند ذلك يقنطون ؛ و على ما فرطوا فى

جنب الله يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف ، يدعون بالويل والثبور . وتغلى بهم النار كغلى القدور . وتهشم بمقامع الحديد جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم . وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون . فكيف بك لو نظرت اليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم . وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وكسرت عظامهم . ومزقت جلودهم ولهيب النار سار فى بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن اكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود — فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا لافتدى بها من شدة ما هو فيه فيا لحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها *

فانظر يا مسكين فى هذه الأهوال . والعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى بماذا سبق القضاء في حقك ﴿ فان قلت ﴾ فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء في حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهو أن تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له . فان كان قد يسر لك سبيل الخيرات وابشر فانك مبعد عن النار . وان كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك اسبابه فاعلم أنك مقضى عليك . فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ ان الابرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين *

﴿ صفة الجنة وأصناف نعيمها ﴾

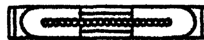
اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى فتأمل في نعيمها وسرورها. فان مَنْ بعد من احداهما استقرّ لامحالة في الأخرى فَسُقْ نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم ، وتسلم من العذاب الأليم. فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يُسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزّينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهنّ الياقوتُ والمرجان ، لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان . ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ، ومن ريب المنون آمنون * فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها ، والله لولم يكن فيها الاّ سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجرَ الدُّنيا بسببها وان لا يؤثر عليها ما التصرّم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل مايشتهون ، والى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله مالا ينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ، ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، وأقرأ قوله تعالى ﴿ ولمنْ خافَ مقامَ ربّهِ جنّتان ﴾ الى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة وسورة الانسان ، وغيرها من السور . ففيها ما يدلك على أن ثمة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما ورد في الأثر ، ويكفي من الاطلاع على جملتها ما بينا. وقد ورد في تفصيل صفتها كثير من الأخبار المدونة في الأسفار الكبار . واعلم أن درجة الآخرة متفاوتة فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة

تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر . فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها وقال تعالى ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾ وقال تعالى ﴿إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون﴾

اللهم انا نسألك الجنة وما قرب اليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل ؛ ونستغفرك من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم ياواسع المغفرة يا أرحم الراحمين *

قال مؤلفه رحمه الله

تم بحمده تعالى اختصار ﴿ احياء علوم الدين ﴾ ليلة الجمعة السادسة عشرة من ربيع الثاني قبيل العشاء سنة ١٣٢٤ هـ — في دارنا طاهر باب الجابية في زقاق العلامة المكتبي على يد جامعه الفقير ﴿ محمد جمال الدين ﴾ بن محمد سعيد بن قاسم ابن صالح القاسمي الدمشقي عفا المولى عن زلله . بمنه وفضله آمين *



خاتمة الكتاب للناشر

نحمد ربنا العلي الكبير. و نشكره على ما وهبنا من العقل و التفكير للارشاد و التبشير. حتى لا تسرى الغفلة من الصغير الى الكبير. و نصلى و نسلم على نبيه البشير النذير، و على آله و أصحابه أولى الفضل الخطير.

﴿أما بعد﴾ فان أفضل ما وعظ به المتقون و وصل به العارفون كتاب الله و سنة نبيه و هدى الراشدين من بعده ـ فطوبى لمن اتعظ، و بشرى لمن استيقظ و استعد لمآبه و ايابه الى ربه بالأعمال الصالحة و النظر في آياته الواضحة حتى استنار و أنار الطرق للطالبين، و ياسعادة من نصب نفسه للافادة وقومها بالاستفادة فذلك مقام الأنبياء و المرسلين. و قد حذا حذوهم العارفون. و استمد بنور معارفهم العاملون. فأوضحوا ماستروه. و فصلوا ما أجملوه. حتى أرضوا ربهم و ضميرهم. و قابلوه بوجوه بيضاء، و قلوب سليمة نوراء. قد أعد لهم أحسن الجزاء. و كان فى مقدمتهم بل واسطة عقد سعادتهم ﴿حجة الاسلام الغزالى﴾ حيث لم يترك صغيرة و لا كبيرة الا أنارها و أوضحها. و وقف حياته خدمة للدين و موعظة للمؤمنين. و تمحيصا للحقائق من شبهات المرتابين. فألف و وضح و بين و أفصح حتى تلاشت الشبهات. و أتى بالآيات البينات. فاستحق أن يسمى ﴿بحجة الاسلام﴾ و إمام المسلمين، وكان من أجمع كتبه للحقائق و أنفعها في كشف الغوامض و الدقائق كتابهُ الموسومُ ﴿باحياء العلوم﴾ غير انه لا يخلو من ابحاث علمية. ومواضيع فلسفية. تعزب عن معرفتها عامة المؤمنين. ويبعد عن تناولها أفهام القاصرين. فكان محتاجا لتمحيصه من المباحث، وتخليصه من مواضع الخوض فى بحار الجدل وتشريح المسائل فى الرد على المبطلين، ودحضه حجج المرتابين ليكون معيناً عذباً للواردين وعسلا

مصفى للشاربين ، وقد تمنى مثل هذا العمل المبرور والسعى المشكور الأستاذ الإمام المرحوم ﴿الشيخ محمد عبده﴾ مفتى الديار المصرية سابقاً . وصرح بحاجة الأمة الإسلامية الى اختصار كتاب الاحياء والاكتفاء بمواضعه وأبحاثه بالقدر الذى يسهل فهمه على عموم الطبقات . ولا يصعب دركه على غير المشتغلين باللغويات والاصطلاحات ، وكان ذلك بحضرة الأستاذ الكبير والعالم العارف الشهير صاحب هذا المختصر النفيس فقيد العلم والادب المغفور له ﴿الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى﴾ رضى الله عنه أيام أن كان نزيلا عنده بمصر عام (١٣٢١) كما أشار الى ذلك فى خطبته ، فتوافقا على حسن هـذا العمل ولزومه للأمة فى هذا الزمن . فأخذ على عاتقه هـذا العمل المبرور المرحوم الأستاذ القاسمى المذكور . فصنف مختصره الموسوم

بموعظة المؤمنين - من احياء علوم الدين

فجاء بحمد الله سفينة الواعظ ، وعجالة المرشد ، وجعبة النصوح ، وتذكرة الدعوة ، وموعظة المؤمنين ، وروح الأحياء . صنفه بعد الروية واستقراء حال الأمة وبعد أن عبر بواطن قلوبهم مستطلعاً * وخاض فى بحر أحوالهم مستخبرا — أى الدواء أنجع — وأى العلاج أنفع — فلذلك قام بهذه الخدمة الدينية ، ولا أخال الا أن الغزالى نفث فى روعه ليكتب — أو أملى عليه ما يناسب العصر ليستخلصه حتى أتم كما أرادا معاً واتفقا عليه وضعاً . وأتاح الله الأسباب لنشره وسهل طريق طبعه لنفع الأمة أن قد تشرفت بمقابلة مؤلفه المرحوم بحجرتنا الكائنة برواق الأكراد بالجامع الأزهر الشريف ، وتذاكرنا معه فيما ينفع الأمة ويهم العامة من الوعظ والارشاد

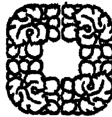
ولما رأى شغفى لنشر أمثال تلكم المواضيع النافعة سمحت نفسه الكبيرة وارتاح ضميره الى إهدائى هذا الكتاب المستطاب لأنه من أنفع ما يهدى لأولى الألباب فى هذا الزمن . خصوصاً وهو يرد شبوبية الدين بعد شيخوخته وينهض بالعالم الإسلامى من وهدته وسقطته - فتقبلته منه شاكراً لأنعمة ومكثت أترقب المكنة

لنشره وأن ننتهز الفرص لطبعه. فوفق الله حفظ الوعظ أن هيأ لطبعه الأسباب وفتح أمامي لتكميله كل باب ﴿ هذا ﴾

ولما شاع في الوعظ صيته وعم البلاد والآفاق ذكره وتوارد عليه الإقبال من كل فج . وتوالت الطلبات من كل صوب. فنفدت الطبعتان « الأولى والثانية » جميعها فأردنا اعادة طبعه تتميما للرغائب وإجابة لسؤال كل طالب. راجين أن يوفق الله الواعظين لاقتنائه والمتعظين للانتفاع به مع حسن النية وخلوص الطوية *

وقد اعتنينا بطبعه في هذه المرة الثالثة على ورق جيد وحروف جميلة مع ضبط الشكل للآيات والأحاديث وتصحيح متقن . ووضعنا في تراجمه وعناوينه (كليشيهات) بأحسن وضع وأجمل صنع حتى جاءت زينة في المطبوعات وبهجة للناظرين. وسرورا زائدا للقارئين. راجين من الله سبحانه وتعالى أن يثيبنا بقدر مابذلنا من العناية ويخلص النية. ويعم النفع لعموم المشتغلين بالوعظ والارشاد انه ولينا في المبدأ والمآب *

محيي الدين صبري الكردي



تنبيه

إبقاءً لأثر مؤلفه الخالد . وذكره بالثناء العاطر، آثرنا اثبات اجازته وحقوق طبعه الممنوحة منه لنا ﴿رحمه الله﴾ رغبة فى دوام الترضى والترحم عليه وهاهى مثبتة بخطه أخذناها ﴿ بالفتوغرافية﴾ تيمناً بأثره الصالح وعمله المشكور المبرور . والله لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً *

حضرة الاستاذ المفضال الشيخ محيي الدين صبري ناشر الكتب العالية الاسلامية ومدير المكتبة العراقية حفظه المولى

سلام عليكم ورحمة الله

وبعد فقد تلقيت بيده الكريمة كتابكم الكريم وحمدت المولى على نشاطكم وعلو همتكم اكثر المولى من امثالكم

اما ما رغبتم فيه من ارسال خاتمة للكتاب تتضمن ما يشير بان حقوق طبعه محفوظة لكم فهذا مما كنا تذاكرنا فيه قبلا فاكتبوا ما شئتم في ذلك وما جرت به العادة واعلموا ان حقوق الطبع محفوظة لكم باذن الله مؤلفه [illegible] - رحمكم المولى وبارك لكم انتم وكل من وازركم ووفقنا جميعا لخدمة هذه الامة المسكينة آمين

سلامي لاخوانكم الاكارم اهل الحرم المباركة بارك المولى [illegible] آمين

٧ شعبان ١٣٣١

جمال الدين القاسمي [illegible]

فهرست الجزء الأول ـ والثانى من كتاب

موعظة المؤمنين
من
إحياء علوم الدين

(تم فهرس الجزء الأول)

فهرس الجزء الثانى

انتهى الفهرس

[illegible] الكتب المطبوعة على [illegible]

ص

١٥ [illegible]

١٠ الأربعين في أصول الدين للامام [illegible]

١٠ معارج القدس في مدارج معرفة النفس [illegible]

٥ جواهر القرآن له أيضا

٧ ميزان العمل له أيضا

[illegible] الرسالة اللدنية له أيضا

٣ [illegible] له أيضا

١٠ [illegible] العلم [illegible] له أيضا

١٥ [illegible] مختصر [illegible]

[illegible] حاشية [illegible] ١٨ [illegible]

[illegible]

[illegible] كل [illegible] وردى [illegible]

[illegible]

١٥ شرح [illegible]

[illegible] أصول [illegible] في [illegible]

٦ الجواهر [illegible]

[illegible]

[illegible]

١٥ موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين للشيخ جمال الدين القاسمي
١٠ الاربعين فى أصول الدين للامام الغزالى ه
١٠ معارج القدس فى مدارج معرفة النفس له أيضاً
٥ جواهر القرآن له أيضا ،
٧ ميزان العمل له أيضا ،
٣ الرسالة اللدنية له أيضا ،
٢ كيمياء السعادة له أيضا ه
١٠ معيار العلم فى المنطق له أيضا ،
١٠ مقاصد الفلاسفة له أيضا ،
١٥ النجاة مختصر الشفا للشيخ الرئيس ابن سينا ،
١٠ جامع البدايع يحتوى على ١٨ رسالة [illegible]
٧ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للشيخ جمال الدين القاسمي
٣ هياكل النور للسهروردي [illegible]
٥ سلوك المالك فى تدبير الممالك
٦ [illegible]
١٥ شرح [illegible]
٤ [illegible]
٦ [illegible]
[illegible]
[illegible]